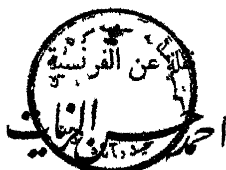
لجنة التأليف والترجمة والنشر

آلام فرتر

WERTHER

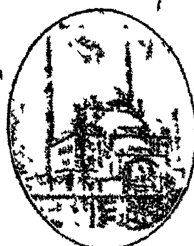
للشاعر الفيلسوف « جوت » الالمانى



نقلها عن الفرنسية

احمد حسن الزيات

مدير التعليم العربى بالجامعة الامريكية بالقاهرة



الطبعة الرابعة منقحة مصورة

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٨ — ١٩٢٩

الثمن ١٥ قرشا

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

آلام فرتر

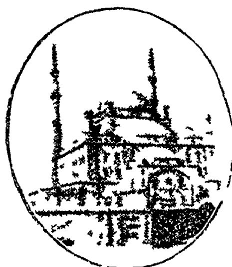
WERTHER

للشاعر الفيلسوف « جوت » الالمانى

نقله عن الفرنسية

احمد حسن الزيات

مدير التعليم العربى بالجامعة الامريكية بالقاهرة



الطبعة الرابعة منقحة مصورة

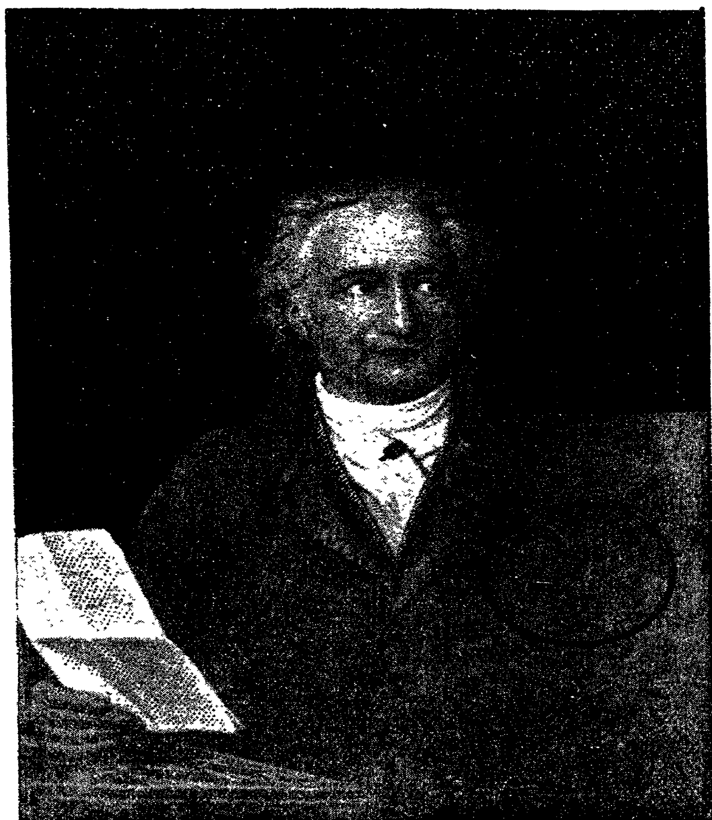
مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر

١٣٤٨ — ١٩٢٩

نبذة من ترجمة جوت

ولد چان وُلفجَنج جوت شاعر المانيا وفيلسوفها فى (فرنكفورت سيرليمين) عام ١٧٤٩ ثم صبت نفسه الى درس الحقوق فدرسها فى (لبزج ثم فى استرسبورج) ولما نال الدكتوراه فيها سنة ١٧٧١ صدف عنها ورغب فى الأدب فكان مبعثاً لحركته وروحاً لنهضته، ثم استقر به المقام فى (ويمر) لدى الغرندوق (شارل أوجست) سنة ١٧٧٥

وفى خلال ذلك نشر رواية (جوتز برليشنجن) سنة ١٧٧٢ على طريقة شكسبير، وآلام ڤرتر سنة ١٧٧٤ وهى تاريخ فترة من شبابه أجمل فيها آمال عصره، وعبر بها عن منازع نفسه، وخلق فيها نوعاً طريفاً من الأدب. ثم كتب قصة الكنت دجمونت سنة ٧٥، ووليم مستر سنة ٧٧ و (ايفجينى) سنة ٧٦. ثم أزمع الرحلة الى ايطاليا فأقام بها ثلاثة أعوام كتب فيها (تركاتوتاسو). وفى سنة ١٧٩٤ اتصلت المودة بينه وبين (شلر) ونشر كثيراً من القصائد الرائقة والكتب الممتعة. ثم الف الجزء الأول من رواية (فوست) عام ١٧٩٨، وزاره نابليون فى (ارفرت) وقلده (صليب اللجيون دى نور) سنة ١٨٠٨، ثم أصبح وزيراً لحكومة دوق ساكس ويمر سنة ١٨١٥، وشغل فراغه بالكتابة فكتب مذكراته ورحلته الى ايطاليا وأكمل رواية (فوست). ثم قضى نحبه فى ٢٢ مارس سنة ١٨٣٢



جوت

مقدمة

بقلم الاستاذ الدكتور طه حسين

لعل حاجتنا الى النقل والترجمة لم تبلغ قط من الشدة ما بلغته اليوم ، فنحن فى عصر انتقال من طور الى طور ، وأخص ما يميز عصور الانتقال الظمأ الى العلم بكل شيء ، والرغبة فى تعرف كل جديد

يسأم الشعب فى هذه العصور ما ألف قراءته من كتب ، وما تعود استماعه من مختلف النظريات العلمية ، والوقوف عليه من آثار الفن ، و يود لو استطاع أن يجد من الطريف المستحدث ما يشفى علته ، و ينقع غلته ، و يخرجه من هذه البيئة التى طال بها عهده وثقل عليه فيها احتمال الحياة . وقد كان يحسب نفسه كل شيء فاذا هو يشعر بأن على الأرض شعوبا أخرى تقاسمه الحياة وتشاطره ما اشتملت عليه من لذة وألم ، و من سعادة وشقاء ، وأن هذه الشعوب قد اتخذت لنفسها من نظم السياسة والاجتماع ، ومن مناهج البحث والتفكير ما لم يألفه ولم يهتد اليه . فما أشد ظمأه الى أن يعرف من أمر هذه الشعوب ماجهل، و يقف من حياتها الاجتماعية والعقلية على ما خفى عليه

فكل من نقل اليه كتاباً من كتب العلم ، أو لخص له فصلا من فصول الفلسفة ، أو ترجم له من الآثار الفنية والأدبية ما يعرب عن شعور هذه الشعوب وعواطفها ، وعن ضروب أحساسها للأشياء وتأثرها بها ، فقد صادف منه مكان الحاجة وأشرف به من البغية على ما يريد

ليس هذا الأمر من اليسر والسهولة بحيث يظن كثير من الذين يتصدون للنقل والترجمة ، فان سأم الشعب من كل قديم ، وتهافته على كل جديد ، من غير أن يروى فى النفع والضر ، أو الخير والشر ، يهيئه لقبول ما ينقل

اليه من حسن ورديء . فخليق بالناقل أن يلاحظ استعداد الشعب وحاجته ، وألا ينقل الا ما يوافق استعداده ويلائم مزاجه ، ويكون من النفع والفائدة بحيث يصلح من حاله ويقوّم من عوجه ويعينه على التطور والانتقال ، وليس هذا بالهين ولا اليسير

فاذا وفق الناقل الى اختيار ماينقل فأمامه من الصعاب مايعسر تذليله ، ومن العقاب مايصعب تمهيده . أريد صعوبة النقل فى نفسه ، فان الناقل ليس حرياً أن يحسن اللغة العربية التى ينقل اليها واللغة الأجنبية التى ينقل عنها فحسب، بل هو خليق أن يحسن الفن الذى ينقله احساناً تاماً ، وان يكون من اجادته بحيث يستطيع النقد والمناقشة اذا كان موضوعه علمياً أو فلسفياً . فاذا كان فنياً أو أدبياً فالصعوبة أثقل عبئا واشق احتمالا ، لأن الناقل ملزم حينئذ أن يكون من القدرة والكفاية بحيث يستطيع أن يقوم مقام المؤلف الأول فيشعر بقلبه ويحس بحسه ، ويرى الأشياء بتلك العين التى رأى بها المؤلف ، و يصفها بهذا اللسان الذى وصفها . فان الترجمة فى الفن والأدب ليست وضع لفظ عربى موضع لفظ أجنبى ، اذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور فى اللغة الطبيعية فكيف بها فى لغة أخرى ؟ . انما الترجمة الفنية والأدبية عبارة عن عملين مختلفين كلاهما صعب عسير : الاول أن يشعر المترجم بما شعر به المؤلف، وأن تأخذ حواسه وملكاته من التأثر والانفعال نفس الصورة التى أخذتها حواس المؤلف وملكاته ان صح هذا التعبير . والثانى أن يحاول المترجم الاعراب عن هذه الصورة والافصاح عن دقائقها وخفاياها باشد الالفاظ تمثيلا لها وأوضحها دلالة عليها

وخلاصة القول أن المترجم يجب أن يجتهد ما استطاع لا فى أن ينقل الينا معنى الالفاظ التى خطتها يد المؤلف ، بل فى أن ينقل الينا نفس المؤلف جلية واضحة تتبين فيها من غير مشقة ولا عناء ما أثر فيها من ضروب الاحساس والشعور

***

• لقد وفق صديقنا الزيات الى هذا كله حين نقل الى اللغة العربية آلام فرتر للشاعر الفيلسوف « جوت »

وفق الى حسن الاختيار ، فما كان لشعب يجل نفسه ويريد ان يعد بين الأمم الحيـة أن يجهل شاعراً فيلسوفاً كجوت قد أثر نبوغه الفنى والفلسفى فى الحياة العلمية والنفسية للعالم الحديث أشد تأثير . وما كان لهذا الشعب أن يجهل كتاباً كآلام فرتر قد عرفه الناس جميعاً فى أوربا فأحبوه وكلفوا به ، حتى انك لاترى فتى ولافتاة فى السادسة عشرة من العمر الا قرأه وقرأه وحاول أن يتفهم معانيه ويتأسى بما فيه ، وخيل اليه أن هذا الـكتاب لايصف ماجال فى نفس خاصة من فكر ، وما ملكها من هوى ، وما أثر فيها من عاطفة ، انما هو يصف الحياة النفسية لكل شاب وشابة على اختلاف الأزمنة والأمكنة ، وعلى تباين الأحوال والظروف

تلك خصلة تمتاز بها الـكتب التى أنشئت لتبقى أبد الدهر وقضى أن يكون الخلود لها نصيباً ، تخلد لأنها لا تصف الأشخاص التى تفنى وتزول ، وانما تصف النوع الذى يبقى ويدوم . وخصلة أخرى قضت لهذا الـكتاب بالبقاء والخلود ، هى انه لم يقف عند تمثيل الحيـاة النفسية للشباب فى طور من أطوارها ، وانما وضع للانسانية مثالا من الفضيلة تحس كل نفس الميل اليه ، وتود لو بلغته أو دنت منه . فهو يمثل الايثار والتضحية أحسن تمثيل، ويصور الولاء للاصدقاء والوفاء للاحباء أجمل تصوير. كل ذلك من غير تكلف ولا تصنع ، ومن غير محاولة ولا عناء

تبع المؤلف طبيعته ، وجرى مع فطرته ، فما كان الا أن تناول القلم وخط به فأخرج من ذلك أحسن صورة حيـة خلابة يرى فيهـا كل امرئ نفسه ، ويشعر مع ذلك بأنه فى حاجة الى شىء من الجد غير قليل ، والى مقدار من العناء غير يسير ، ليبلغ ما تصوره من الكمال

وفق الاستاذ الزيات الى حسن الاختيار ،فان الـكتاب الذى ترجمه على ما له من شهرة تلزم كل ناشئ أن يقرأه ويتفهمه ، يمثـل حياة الآداب الاوربية فى عصرهو أشد العصور شبهاً بهذا العصر الذى نسلكه ، فقد كانت أوربا حين كتب جوت آلام ڤرتر تعبر عصر انتقال كعصرنا الذى نعبره . سئمت مثلنا كل قديم وشغفت مثلنا بكل طريف ، وودت لو أراحها الـكتاب والشعراءمن تلك الأساليب العتيقة التى ألفوها فيما يكتبون وينظمون ، ومن تلك الآراء البالية التى كانوا يرددونها فى كل مايقولون ، حتى كأن حياتهم العقلية والنفسية لم تكن الا صورة وفق الأصل لحياة من سبقهم من الـكتاب والشعراء مع تغير الاحوال الاجتماعية والسياسية ، واستحالة النظريات العلمية والفنية . وليس على هذا السأم والملل من دليل يعدل ما كتبه (جوت) الى أحد الشعراء : « دعنى أشعر بشىء لم أحسه من قبل ، وأفكر فى شىء لم أعهد التفكير فيه ، أشكر لك ذلك شكراً جميلا . فأما وضع الضجيج والعجيج مكان التأثر والانفعال فلسنا فى حاجة اليه الآن »

كذلك كان يفكر (جوت) فى المانيا وكذلك كان يفكر غيره فى فرنسا وانجلترا . كان الـكتاب الاوربيون يودون لو خلصوا من تلك الاعباء الثقيلة التى كانت تنوء بالفن الادبى ، ورجعوا فى التعبير عن احساسهم وعواطفهم الى الطبيعة الحرة الطليقة . لذلك نشأت طريقة (روسو) فى فرنسا وهى بعينها طريقة (جوت) فى المانيا . كلا الرجلين يريدأن يترك لوجدانه وعواطفه الحرية فى أن تظهر للناس واضحة جلية لايشوبها شوائب الزخرف والتنميق، ولاتشوهها معايب التصنع والتقليد

لذلك كان « روسو » ينادى باقتفاء أثر الطبيعة فى كل شىء ، فى النظم والنثر بل فى أنظمة الحياة الاجتماعية والسياسية . وكان « جوت » ينادى بمثل هذا فى الآداب والفنون الجميلة. كانت آثار هوميروس وشكسبير و بيْرن

رفاقه فى وحدته ، ونموذجه فى طريقته ، وهو لم يكتف بمجاراتها وتقليدها بل كانت شخصيته أشد وأقوى من أن تقف عند المجاراة والتقليد فظهرت واضحة جلية فى كل ما كتب

كان «جوت» شديد الاعتراف بشخصيته والميل الى اظهارها ، فلم يستطع أن يسلك طريق غيره من الكتاب فيتخذ لكتبه وقصائده موضوعات لا تمس شخصه ولا تتصل به ، بل كان فى كل ما كتب انما يعبر قبل كل شيء عن عواطفه الخاصة وما لقى فى دهره من خير وشر

***

ليست آلام فرتر قصة منتحلة أو بناء متكلفاً استعيرت أجزاؤه المختلفة من الخارج ، انما هى قصة ما أصاب « جوت » نفسه أبان شبابه . ومن هنا برئ الكتاب مما يشوه غيره من آفة الكذب والاختراع

هام « جوت » بينما كان فى « وتسلار » يتدرب على المحاماة بفتاة يقال لها « شرلوت » وهامت به هذه الفتاة ، ولكنها كانت مخطوبة الى فتى يقال له « كستنر » فلم يستطع هذا الهيام الا أن يأخذ شكل الصداقة والأخاء الصحيحين . وقد حاول « جوت » أن يحفظ لهذه الصلة شكلها البرىء فاتصل الاخاء بينه و بين كستنر ، والف العاشقان والعشيقة جماعة تصل بين أفرادها صلة طاهرة نقية. ولكن الحب كان أشد قوة و بأساً من الشجاعة النفسية والحرص على المودة والوفاء

أشفق « جوت » على نفسه وعلى صاحبيه فترك « وتسلار » وتم القران بين الخطيبة وخطيبها ، فاحدث ذلك فى نفس شاعرنا ضروبا شتى من التأثر والانفعال . فتارة يرضى وتارة يسخط وأحياناً يذعن وأخرى يثور . وتجد ذلك كله مصوراً فى آلام فرتر . ولكن الكتاب يخالف الواقع فى شيء واحد وهو أن « جوت » لم ينتحر كما انتحر فرتر ولم يكن بينه و بين صديقه « كستنر » من

البغض والعداء ما كان بين « ڤرتر » و « ألبير » فى آخر أيامه . انما أخذ « جوت » فكرة الانتحار من حادثة وقعت فى « وتسلار » . وهى أن شاباً قد عرفه العاشقان سرى الخلق رقيق الطبع انتحر لاخفاقه فى قصة غرامية بينه و بين فتاة من فتيان المدينة . فاخذ « جوت » من هذه الحادثة ما ختم به حياة « ڤرتر »

ألف « جوت » آلام ڤرتر سنة ١٧٧٤ فلم يمض على انتشاره أشهر حتى عرفته المانيا كلها ، وحتى كان مجد مؤلفه شاهقا متين الأساس . ولكن وقع هذا الكتاب الغريب فى نفس صديقيه شرلوت وكستنر كان شديدا . فاشتد اللوم والعتاب من جهة ، واشتد الاعتذار والاستغفار من جهة أخرى ، ثم كان العفو والاعذار . ولعل من ألذ مايقرأ القارىء ما كان بين هؤلاء النفر الثلاثة من الرسائل التى نشرها للناس رابع أولاد « شرلوت » و « كستنر » فى منتصف القرن التاسع عشر

لايزال الكتاب يختلفون ويتناقشون ، فبعضهم يبيح للكاتب والشاعر وللناقش والمصور أن يتخذ الاشخاص الاحياء وحياتهم موضوعا لنظمه ونثره ، ولنقشه وتصويره . لان ذلك ان آذى الأشخاص وأساء اليهم ففيه للجماعة خير واحسان . و بعضهم يحظر عليه أن يسلك هذا المسلك لأن حياة الأشخاص وأسرارهم وشعورهم وعواطفهم مقدسة ليس لأحد أن يبيحها أو يذيعها مهما كان ذلك نافعا ومهما اشتمل عليه من الخير . وسواء أخطأ أولئك أم هؤلاء فان آلام ڤرتر قد نشرت فى أوربا فتهافت عليها الناس وأحدثت فى نفوسهم من الاثر الحسن أو السيء ما كانت خليقة باحداثه . وهى لاتزال الى الآن وستبقى أبد الدهر موضع بحث العلماء وعناية الفنيين

***

من الناس من يأخذ على هذا الكتاب أنه يحمل الشباب على الانتحار ويرغبهم فيه . ويستدل على ذلك بالعدد الوافر الذى انتحر من الشباب فى المانيا

وفرنسا وغيرهما من بلاد أوربا عند قراءته . ويخيل الى أن هؤلاء لم يوفقوا الى القصد ولم يهتدوا سواء السبيل . هب أن الكتاب قد ساء أثره حيناً ما ، فان هناك حقيقة ليس الى انكارها من سبيل : هى أن الكتاب قد بلغ من الجمال والروعة مبلغاً يُلزم كل محب للفن أن يقرأه، ونزل من آثار الفن الحديث منزلة توجب على كل استاذ من اساتذة الأدب أن يقف عليه . على انى أعتقد أن ما كان من سوء أثر الكتاب عند ظهوره قد بولغ فيه وأسرف الناس فى وصفه. فانما أساء بعض الشبان ذوى النفوس المريضة فهمه والاستفادة منه، لأن ظروف الحياة الاجتماعية كانت من الشدة والضيق فى أوربا بحيث تجعل نفوس كثير من الناس ضعيفة رخوة ، وخانعة مستسلمة ، لا تستطيع مقاومة ولا احتمالا. وآية ذلك أن الكتاب لا يزال يقرأ ويدرس بل هو الآن يمثل فى الملاعب ويغنى فى دور الموسيقى من غير أن يحدث من سوء الأثر وقبح العاقبة ما أحدثه حيناً ما

ذلك لأن الظروف الاجتماعية الخاصة التى ملأت نفوس الاوربيين سأماً ومللا فى أوائل القرن التاسع عشر قد انقضت واستحالت ، وأصبح الناس وقد ملأهم الأمل وملكتهم الرغبة فى الحياة ومافيها من لذة ونعيم ، فلم يبق من هذا الكتاب الا أثره النافع وهو كما قدمنا عظيم جليل الخطر

***

وفق صديقنا الزيات الى حسن الاختيار ووفق الى حسن الترجمة أيضاً على ما كان يعترضه فى سبيل ذلك من المصاعب والعقبات . فان آلام ڤرتر ليست من السهولة واليسر بحيث يستطيع القارئ أن يفهمها لأول قراءة بَلْهَ القدرة على نقلها وترجمتها . ذلك لأنها صورة نفس كبيرة دقيقة الحس والعاطفة هى نفس « جوت » ولأن فيها من دقيق الوصف الحسى من جهة ، والآراء الفلسفية من جهة أخرى مايعسر فهمه والوقوف عليه . أضف الى ذلك أن اللغة العربية لم تألف هذا النوع من الوصف والفلسفة لأن ابناءها لم يسلكوا بها هذه الطريق . فاذا

لاحظنا أن الاستاذ الزيات لم ينقل هذا الكتاب من لغته الاولى ،وانما نقله عن الفرنسيه [1] ، وأنه قد استطاع مع هذا كله أن يخرج لنا منه صورة صحيحة رائقة ، عرفنا مقدار ما عانى فى سبيل ذلك من مشقة ، وما كابد من صعوبة .
ولكننى أخشى ان أطلت فى مدح صديقى وقدمت اليه من الشكر والثناء ماهو خليق به أن أسىء اليه أو أن أوذيه، فقد عودنى وعودته أن نتقارض النقد لاأن نتقارض الثناء

فالى الشباب المصرى أقدم باسم صديقى هذا الكتاب وأنا واثق أنه سيجد من عنايتهم به ، وانكبابهم على قراءته وتفهمه، أجمل شكر على ما بذل من جهد، وأحسن تشجيع على ماهو باذل فى خدمة الأدب منذ اليوم ان شاء الله

(١) ترجم عن طبعة فلامريون وترجمة (سفلدج) و (بيوب) وقويل على ترجمين أخريين



اهداء المترجم

صديقي أ . ز . نزيل نوتنجهام *

لوسألتني وأنا أعلم الناس بك أن أصف خطرات نفسك، وأصوّر نزعات وجدانك وحسّك، لما كنتَ إلا ڤرتر !

فيك دقة شعوره ورقة قلبه، فيك قوة اخلاصه وشدة حبه، فيك حدة ذكائه وتصوّره، فيك سرعة بكائه وتأثره، فيك حدبه على المستضعفين، وسخطه على المستكبرين، فيك خياله الوثاب وروحه الجذاب وخلقه المصفّى و . . . غرامه اليائس . . . . !

قرأتُ ڤرتر ليالىَ ناءت بقلبك الغض عاطفة أليمة فأقضَّت مضجعك، وأسالت مدمعك، وتركتك كالملاك رُوحاً من غير

---

* هاهو ذا الاهداء يطبع للمرة الرابعة ويقرأ للسنة التاسعة والصديق الحبيب لم يؤب الا منذ أشهر ! آب أوبة جوت وعاد عودة الربيع ! بعد ان قضى أرب مشاعره من الجمال، ولبانة قلبه من الحب، وحاجة عقله من العلم، وبعية مواهبه من الثقافة، وحق وطنه من العدة.

جسم ، وهوًى من غير اثم ، ونَبْعاً يجيش بالوجدان الحي والشعور الصادق والحب البريء ، فكانت حالتك تمثيلا لحالته، وآهتك تفسيراً لعبارته . ثم ترجمتُه وقد سافرتَ كما سافر، فكان شخصك في ناظري ، ووحيك في خاطري، ولفظك على لساني، ويراعك في يدي أنتما المثل الأعلى للشبيبة الحساسة العاملة .

وما رجوت من نقل هذه النفحات السماوية إلا إيقاظ العواطف السامية في صدور الشباب، فان مبعث النهضات الاجتماعية انما هو العواطف المتقدة ، والخواطر الملتهبة ، والنفوس المضطرمة . أما العقول الرزينة الهادئة ، والأذهان المنطقية الساكنة ، فهي خمود في ثورة القلوب ، وقعود في نهضة الشعوب !

فاليك ياصديق النفس ومَهْوى الفؤاد أقدم هذا الكتاب ، لأنك أعلم الناس بواجبه ، وأفهم القارئين لكاتبه ، وليكون تحية على البعد خالدة، وآية على الاخلاص والود شاهدة

اول مارس ١٩٢٠ « أ . الزيات »

تقدمة المؤلف

عُنيتُ بجمع ما تيسر لى جمعه من نبأ البائس ڤرتر. وأنى أقدمه اليك وأعلم أنك ستحمد ما صنعت ، وتشكر لى ما جمعت

انك لن تستطيع وأنت تقرأه أن تحبس نفسك عن الاعجاب بفكره وقوة حسه ، ولا قلبكَ عن الولوع بخُلُقه وشرف نفسه ، ولا عينكَ عن البكاء لعثار جَدّه و بؤسه !

وأنت أيتها النفس اللطيفة الشاعرة ! اذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدى الصبر والعزاء من آلامه ، وتلمسى البرء والشفاء فى أسقامه ، واتخذى هذا الكتاب صاحباً وصديقاً اذا أبى عليك دهركِ أو خطؤكِ أن تجدى من الاصدقاء من هو أقرب اليك ، وأحنى عليكِ

« جوت »

الجزء الاول

٤ مايو سنة ١٧٧١

لَشَدَّ ما أبهج نفسي وأثلج فؤادي أنني سافرت ! وتلك عجيبة من عجائب القلب ياصديقي! . كيف أسرُّ وقد روَّعنا البين[١] وصدَّعنا الفراق وأنت الذي أُشْرِبتُ[٢] محبته وما كنت أُطيق الصبر عنه ؟ على أنني واثق منك بالصفح والمغفرة

إن صِلاتي بغيرك كانت على ما رأيتُ وسيلة من وسائل القدر لتعذيب قلب شديد الحساسية كقلبي . وارحمةً لك يالينور ! لقد تألمتِ في رضاي وشقيتِ في هواي ولكنني مما لقيتِ برىء . ماذنبي اذا كان الهوى ينبت سراً في قلبها البائس على حينَ كانت أختها تبتغي الوسيلة الى قلبي بملاهيها الجميلة ورشاقتها الفاتنة ؟ على أنني لاأبرئ نفسي كل البراءة . ألم أناقلها أحاديث الهوى والصبابة ؟ ألم ألهُ بلهجتها الساذجة الصادقة في شرح وجدانها وشعورها ؟ ولطالما أضحكني ذلك منها وان لم يكن في الأمر ما يضحك ! . ألم . . أواه ! ما الانسان حتى يجرؤ على شكاية نفسه ؟ لقد وعدتك ياصديقي أن أصلح نفسي فلا أريد أن ألحَّ كما كنت أصنع في اكتناه[٣] الاشجان اليسيرة التي ترشقنا

(١) البين : البعد (٢) خالط حبك قلبي (٣) اكتنه الشيء : بلغ كنهه أي حقيقته وغايته

بها أيدى القدر . أريد أن أنعم بالحاضر وأعدَّ الماضى نسياً منسياً

لقد أصبتَ . فان الناس لولم يَرُوضوا [١] مخيلاتهم ويريدوها على أن تدَّكر آلام الماضى لكانوا أخف أحزاناً وأقل أشجاناً . والله أعلم لمَ جُبلوا كذلك وقد كانوا أحرياء أن يعملوا على أن يجعلوا كفاف حاضرهم محتملا مقبولا

قل لأمى ولك الفضل أنى سأُعنى بقضيتها وسأطالعها بخبرها عما قليل . .

لقد قابلت خالتى فوجدتها ليست من الخبث فى المنزلة التى أحللناها اياها . أجل، انها حديدة الطبع قصيرة الاناة [٢] ولكنها طيبة القلب نبيلة النفس . . . بسطت لها ماتشكوه أمى من أمر [٣] تراثها المغصوب فوَقفَتنى على اسباب تلك الشكوى . وقالت انها مستعدة أن تنزل لنا عن أكثر مما ندعيه على شروط ذكرتها . . وفصاراى اليوم أن أقف فى هذا الموضوع على ما كتبت ، فقل لوالدتى ان الأمر سينتهى على ماتحب

زادتنى هذه المفاوضة القصيرة علماً بأن سوء التفاهم والاهمالَ ربما أحدثا من الشقاق والخلاف اكثر مما يحدثه الخب [٤] والخبث . فان تساوين فى الاسباب فهذان أندر وجودا

---

(١) يذللونها ويعودونها (٢) الحلم والوقار (٣) الميراث (٤) المكر

أصبحت فى هذا المكان رافهاً وادعاً ، أجد فى مناظره بهجة الفردوس وزهرة النعيم ، وفى الخلوة به دواء القلب وشفاء النفس . وأقبس فؤادىَ المقرور[١] من هذه الحرارة الفائضة والحياة النامية فى ذلك الربيع الطلق

عملتْ فيه يد الطبيعة فجعلتْ كل شجرة وكل سياج لفيفاً من الأزهار . فمن رآه تمنى لو يعود فراشة فيطير فوق هذا المحيط المائج بالعطر والطيب يلتمس فيه غذاءه الوحيد

المدينة قليلة الرُّواء والجمال . ولكن الله عاضها من ذلك ببهجة حواشيها ، ونضرة ضواحيها ، فان جمال الطبيعة فيهن لا يدركه وصف ، ولا يسأمه طَرْف . وذلك ماحدا بالكنْتِ . م. أن يخط حديقته على ربوة من تلك الربى الزاهرة الجميلة التى تتلاقى فتكوّن الأودية المونقة الرائعة

هذه الحديقة ساذجة النظام والزخرف . يتمثل فى خاطر داخلها لأول وهلةٍ ان رسومها لم تخطها يد جنّان[٢] صَنَاع[٣] ، بل دبجها قلب حساسٌ ليتمتع فيها بنفسه ، وليذهب مع خياله وحسه

وقفت بالجوسق[٤] البالى الذى شاده صاحب الحديقة بها ليكون مثوى لنفسه ، وملاذاً لها من همه ، فأرسلَتْ عيناىِ عبرتين على ذِكرَى هذا الراحل ، واتخذت هذا المكان من بعده حِمًى ومستقراً .

---

(١) البارد (٢) البستانى (٣) الحاذق (٤) الكشك باللغة العامية

سأصبح عما قليل رب الحديقة ، فقد توثقت بيني وبين البستانى عرى المودة . ولن يجد منى بحمد الله ما يعقبه على تلك الصداقة ندما

١٠ مايو

أصبحت نفسى طليقةً من عِقال الهموم ، غريقة فى صفاء الهدوء مشابهة للربيع الطلق فى سكون صباحه الضاحك، وجمال ضُحَاه الزاهر . متمتعةً بما تشاهد من جلاله ورُوائه . وغدوتُ فى هذا البلد الملائم لمثل قلبى وحيداً مرسلَ النفس مطلق العنان فى مُتَع الحياة ومسراتها . أنا ياصديقى رخى البال سعيد النفس ، وأن قواى ومَلَكاتى لفانية مستغرقة فى سكرة هذه الحياة الراضية المطمئنة . وذلك ما يُسخط الفن ولا يُرضى القلم . فان من المحال فى مثل هذه الحال أن أرسم خطا أو أخط رسما . على أنى لم أكن كاليوم أقوى شعوراً بالكون ولا أتم استعداداً للرسم . أقلب النظر حولى فأرى ذلك الوادىَ الحبيب وقد غشيه من البخار سحابٌ مركوم [١] ، وأبصر الشمس فى مُتوع [٢] النهار تبدد بلألائها ظلام الغابة الحالك ، وتتسرب أشعتها الى جوف بيتى المقدس ، واتبيّن ضروباً شتى من النبات وأنا أنظر الى أديم الأرض مفترشاً بساط الاعشاب السامقة على مقربة من هدير الجدول . وأتأمل ذلك العالم الصغير يموج بعضه فى بعض تحت وُرَيقة من أوراق الكلأ [٣] وتلك الحشرات والهوامّ ذوات الاشكال العديدة والالوان

---

(١) مجتمع بعضه فوق بعض (٢) غاية ارتفاعه قبل الزوال (٣) العشب

المختلفة التى تتحدى الناظر وتُعاجزُ المراقب . وأحس فى نفسى شهودَ القوىّ القادر الذى برأنا (١) على صورته ، وأمدنا برَوْحه (٢) وقوته ، وقادنا الى النعيم المقيم بفضله ومنته . أرى كل ذلك ياصديقى وأشعر به فترتفع عن ناظرى أغشية الحجُب ، وتنطبع فى خاطرى صورةُ هذا العالم الكبير كما تنطبع فى القلب صورة المحبوب ، فتستخفنى نَزِيَّةٌ (٣) من الشوق الى تصويره وأقول لنفسى : « آه ! ليتنى أستطيع أنَ أشرح كل هذا ! وليت يدى تقدر على ابراز ما أثر فى نفسى من هذه المناظر والمظاهر على القرطاس جلياً نقياً فتكون هذه الصورة مرآة نفسى كما أن نفسى مرآة الله » ولكن بهاء هذه الصور وسناء تلك الرؤى (٤) يملكان علىَّ طريق العمل فأقف أزاءها وضيعاً ، وأخر أمامها صريعاً !

١٢ مايو

لعمرك ما أدرى أأرواح ساحرة تجول فى هذا الوادى ، أم خيال سماوى تملك فؤادى وخلع على ما حولى من الأشياء وَضَاءة الحسن ونضارة الفردوس ؟ على مقربة من هذا المكان ينبجس ينبوع عذب بت به مفتوناً وبقربه مسحوراً كأننى ميلوزين (٥) وأخواتها . يهبط

---

(١) خلقنا (٢) الرحمة والمساعدة (٣) حدة (٤) جمع رؤيا . Vision وهى مايوحيه الله فى الخواطر أو فى النواظر من الاشباح والصور

(٥) جنية خرافية نصفها امرأة ونصفها الآخر أفعى . يزعمون أنها بانية

الذاهب اليه رابية صغيرة فيجد بناء معقوداً ذا عشرين دركة[1] تنزل به الى ذلك الماء النمير الذى يتساقط من خلال الرخام قطرة فقطرة . أقف بهذه المغارة فأشاهد الحائطَ القصيرَ الذى يكنفها ، والاشجار الباسقة التى تكللها ، وطراءة الهواء المنعشة التى تملأها ، فتفيض جوانب نفسي جلالا ورهبة . وبعيدٌ أن يتصرم يومٌ دون أن أفضى فى هذه المغارة ساعة من نهار . كذلك فتيات المدينة يَرِدْنها كل يوم فيملأن جرارهن . وذلك عمل نافع برىء ما كانت بنات الملوك قديماً يخجلن من مزاولته ، ولا يأنفن من مباشرته

لا أكاد أجلس فى هذا المكان حتى تتمثل فى خاطرى ذكرى العهود الأولى عهود الحياة الأبوية[2] فيخيل الى أنى أرى أولئك الآباء الكهول وهم على الماء يتعارفون ويتصافقون[3] ويزوجون بنيهم من بناتهم بِدالا ، وتتراءى لعينى أرواح خيرة تطوف حول آبار وعيون

من لم ينل ياصاح نصيبه من هذا الشعور ويدرك قسطه من هذا التأثر لم يذق قط حلاوة النسيم الرطب ، على شفير المنهل العذب ، بعد مسير يوم قائظ تتوقد هواجره ، وتتحرق سمائمه

قصر لوزينيان وحاميته ، ومن عادتها ألا تظهر على برجه الاكبر الا اذا حانت منية أحد من أهله (١) الدركة : المنزلة من السلم اذا اعتبرت النزول ويقابلها الدرجة للصاعد (٢) يريد العهود الابوية Patriarcal حين كان للأب سلطان واسع على أفراد الاسرة الراشدين منهم والقاصرين (٣) يتبايعون

١٣ مايو

بَعثتَ الى تسألنى هل ترسل كُتبى الى ؟ نَشَدْتك الله ألاَّ تفعل ! دعنى أستنشق نسيم الراحة . لا أريد أن أقاد ولا أن أهاج ولا أن أحرَّض . إن قلبى كالسيل المتدفق الهادر ، فهو أحوج الى أن يُهَدْهَدَ[1] بالغناء حتى يقر ويسكن وإن فى شعر هوميروس لبلاغاً وغُنية . لَشَدَّ ما وجدت فى هذه الاشعار مُسكّناً لدمى الفائر ، ومهدئاً لقلبى الثائر ! فانك لا ترى فى القلوب أشد تغيراً ولا أكثر اضطراباً من قلبى . وهل أنا فى حاجة الى أن أبوح لك بهذا القول وأنت الذى طالما ابتأست اذ ترانى أتحول فجأة من شدة الوصب الى هزّة الطرب ، ومن سكون الحشمة الى حدة الهوى ؟ أنا أعامل قلبى معاملة الطفل المريض : أسير على حكمه وأقف عند ارادته . لا تجهر لأحد بهذا فان من الناس من يراه جريمة

١٥ مايو

سرعان ما عرفنى أهل القرية وأحبنى كبارها ، وأنس الىَّ صغارها . وقد كنت فى بادىء الأمر كلما دانيتهم برفق ، أو ساءلتهم بلطف ،

---

(١) هدهدت الصبى أمه : حركته لينام

نفروا مني وأعرضوا عني، كأنهم يظنون أني أهزأ بهم وأسخر منهم. ما كنت أكترث لهذا ولا أعوج[١] به، الا أنه زادني يقيناً بما لاحظته غير مرة: لاحظت أن بعض الخاصة يعتزلون الشعب ويترفعون عنه ترفعاً ثقيلا، كأنهم يخشون أن يطأطيء ذلك من عزتهم، ويغض من قيمتهم. وآخرون منهم طائشون لا يقتربون من الدهماء[٢] الا ليؤلموهم بالنظرات المزرية، ويخزوهم بالكلمات المندية[٣]

أعلم علم اليقين أن الناس ليسوا جميعا سواء، وان من المحال أن يكونوا كذلك، ولكني أرى من يجد نفسه في حاجة إلى أن يقف على مرحلة مما يسمونه الشعب ليعظم قدره في النفوس، وترسخ مهابته في الصدور، ليس أقل خطأ من ذلك الجبان الذي يختبيء من قرنه خشاة أن يهوى صريعاً ليديه أمامه

ذهبت الى الينبوع بالأمس فبصرت عنده بفتاة قد وضعت جرتها على الدركة السفلى، ثم تلفتت يمنةً ويسرة لعلها تجد من صواحبها من تعينها على حمل الجرة. فهبطت اليها وقلت لها بعد أن تأملتها: «أتقبلين يابنيتي العزيزة أن أساعدك على حمل جرتك؟» فضرج الخجل وجنتيها وأجابت بلهجة الصاغر[٤] المشدوه: أوه! عفواً يا مولاي! فقلت لها: هلمي فلا بأس في ذلك ولا كلفة. فأصلحت حويتها واستقلت جرتها ثم صعدت السلم ممتنة شاكرة

(١) لا أحفل به (٢) العامة (٣) المخجلة (٤) الذليل الدهش المتحير

١٧ مايو

عرفتُ الناس آحاداً من كل نمط ، وما وُفّقت الى اختيار صحابة منهم بعد . ولاأدرى أى شىء فىَّ يعطف الناس علىَّ ، ويجذبهم الىَّ ، فان كثيراً منهم يُعْجَبون بخصالى ، يوصلون حبالهم بحبالى ، وقد أحسّ من قلبى الاصغاء [١] اليهم بالمودة حتى ليحزُنني وأنا أماشيهم أن تقف بنا الطريق فلا نواصل السير جميعاً

اذا سألتَ ماحال الرجال فى هذا البلد فاعلم أن الناس هم الناس فى كل مكان ، وأن بنى آدم على غرار [٢] واحد . تجد سوادهم ينفق معظم أوقاته ،فى الكَدْح لحياته ، فاذا بقيت لهم ساعة من فراغ كانت على كواهلهم عِبئًا لايألون جهداً فى الخلاص منه. يا للانسان ما أنكد حظه !! وهم ماعدا ذلك على شىء من الشهامة والكرامة

يحدث أحياناً أن أنسى نفسى فأساهمهم ما بقى للانسان من مُتَع العيش ، كالالتفاف حول خِوان يحفه الاخلاص والوفاء ، والخروج فى مركبة الى نزهة خلوية ، والاجتماع فى مرقص اقيم لمناسبة داعية ، فأجد بتلك الملاهى رَوْحاً [٣] ومسرة مادمت فى ذهول عن نفسى، فلا أذكر أن لى قوًى عاطلة أصدأها الاخلاد الى التبطل والاستنامة الى الراحة ، وأصبح سترها عن الناس واجباً مرعياً . أواه ! لشد

(١) الميل (٢) على طريقة واحدة ومجرى واحد (٣) فرحا

ماينقبض لذلك صدرى ويلتاع فؤادى ! على أن حظى وحظ أمثالى أن نعيش فى هذه الحياة مجهولين غير مفهومين :

وا ويلتاه ! لمَ فجعنى الموت فى صديقة صباى ولماذا عرفتها ؟ لقد كنت أقول لنفسى وهى ترتاد لها حبيباً : « يا حمقاء ! انك تطلبين محالاً وتتبعين خيالا » فلما لقيتها وجدت ذلك الحبيب وعرفته ، وشعرت أن بقربى قلباً كريماً ونفساً نقية كنت وأنا معها أجدنى أطيب عنصراً وأخلص جوهراً من قبل ، لأنى كنت كل ما أستطيع أن أكون . يا لله ! وهل كانت قوة من قوى النفس والحس لا تجد إذ ذاك عملها ؟ ألم أكن أمامها أستطيع أن أبسط تلك الحاسة العجيبة التى أستوعب الطبيعة بها وأفهمها ؟ ألم نتساقط[1] أعذب الأحاديث الجامعة بين العواطف الرقيقة والأفكار الدقيقة ؟ تلك الأحاديث المُصَرَّفة[2] المطبوعة بطابع الذكاء والعبقرية حتى فى سفهها ومجونها ؟ . أما الآن فوا حرَبَاه ! إن السنين التى تزيدها علىّ فى العمر عَجلت بها إلى القبر ! فهيهات أن أسلو تلك الفتاة الوقورة الصبورة ، ومحال أن أنسى تلك النفس المحتسبة السمحة

لقيت منذ أيام فتى أصحر[3] القلب وضاح المحيا يدعى . . . . لايزال حديث عهد بالجامعة . وهو وإن لم يعد نفسه فى العلماء يعتقد

(١) نتناقل (٢) المشتق بعضها من بعض (٣) طاهر السريرة مكشوف الضمير

أنه أعلم من غيره . وقد لاحظت مراراً أنه يحسن الانتفاع بوقته وأنه على حظ من العلم والأدب غير قليل

لم يكد يعلم أنى أحسن التصوير وأجيد اليونانية (وهذان شيئان غريبان هنا) حتى سعى الى معرفتى وأخذ ينفض الىّ جملة علمه ، ويخرج دفائن صدره : من (باتو) الى (وُود) ومن (بيلس) الى (ونْكلمان) . وأكد لى انه استوعب الجزء الأول من (نظرية الفنون الجميلة) (لمولزر) ، وأن تحت يده مؤلفاً مخطوطاً فى موضوع الفن القديم (لهين) . فتركته يعب عُبابه دون مراجعة ولا مقاطعة

كذلك عرفت نائب الامير وحاكم البلد وهو رجل طاهر القلب سرى الخلق حر الضمير . وقد يقال إن منظره بين أطفاله التسعة ليملك القلب ويستهوى الخاطر . والناس يهتفون[١] بأبنائه ولكنهم يخصون بنته البكر بالثناء والاعجاب . دعانى الى زيارته فلبيت . وسأزوره بكرة الغد . أنه يقطن منزل صيد للأمير على فرسخ ونصف من المدينة استأذن المالك أن يلجأ اليه عقب وفاة امرأته فراراً من الاقامة فى بيت فجع فيه بشريكة حياته ومسكن نفسه

لقيت عدا من ذكرت انماطاً غريبة من الناس كل مافيهم غير محتمل ، ولاسيما تلك الجمل الجوفاء التى يُزَوّرونها[٢] بين يدى تأكيداً لصداقتهم ، وتأييداً لمودتهم . !

---

(١) هتف بفلان : مدحه   (٢) يهيئونها ويزينونها

ذلك ياصديقى كتاب قصصى سيعجبك ويطربك ، وأنى أستودعك الله

٢٢ مايو

يرى بعض الناس أن الحياة حُلم . وذلك ما أراه وأسمع صداه فى كل مكان . كلما رأيت أن قوى الانسان العاملة العاقلة محصورة فى حدود ضيقة ، وأن جهدنا الجاهد لا يصرف الا فى قضاء حاجاتنا ، وامضاء رغباتنا ، وما لهذه الحاجات ولا لتلك الرغبات غاية غير تطويل هذه الحياة الحقيرة ، وكلما تحققت أننا لا نستطيع أن نُريح افكارنا ونرضيها بالاطمئنان الى الحق الصُّرَاح فى مسألة من المسائل بل نُرَفِّه عنها بتسليم واذعان مصحو بين بأحلام وأوهام ، كالسجين يحصره الظلام والقيد فينقش على جدران سجنه صوراً زاهية وأشكالا زاهرة، كلما خطرت لى هذه الخواطر أقف أمامها مشتركا مشدوهاً[1] لا أحير جواباً ولا أعرف صواباً

ثم أرجع الى نفسى فأجدنى منطوياً على عالم آخر أشبه بهذا العالم الخارجى يقوم على المشاعر المتوقعة المبهمة ، والرغائب المشتبهة الغامضة ، دون الصور البينة والحقائق الواضحة . حينئذ تمر الاشياء

---

(١) المشترك : من يحدث نفسه كالمهموم الموسوس والمشدوه من دهش وتحير

أمامى خِفافة طافية تكسوها أغطيـة كثيفة من السحب فأواصل السير خلال هذا العالم باسماً حالماً

أطبق[1] علماء التربية أن الاطفال لايعلمون لما يريدون سببًا . ولـكنك اذا قلت لهم إن الرجال كالاطفال يسيرون فى هذه الارض خَبْط عشواء بأقدام زَلِقة ، وأحلام قلقة ، لا يعرفون لوجودهم وِرداً ولاصَدَراً ، ولا يدرون لعملهم غاية ولا غرضا ، وأنهم كالاطفال يساسون تارة بالحلوى وتارة بالعصا ، أكبروا هذا القولَ وجعلوه دَبْرَ[2] آذانهم ، مع أن الواقع يؤيده ، والحواس تدركه !

أوافقك — لأنى أعلم ماذا يكون ردك — على أن أسعد الناس هم أولئك الذين كالاطفال يذهلون عن الماضى و يغفلون عن المستقبل ولايفكرون الا فى الحاضر . يُهدهِدون[3] عرائسهم الخشبية ويلبسونهن حللهن مرة وينضونها عنهن أخرى ، و يطوفون حول خزانة الحلوى باجلال وهيبة . حتى اذا نفحتهم امهاتهم مايرغبون التهموه ملء أفواههم ثم صاحوا قائلين : « نريد أيضاً » . هؤلاء سعداء بلا ريب . ومثلهم أولئك الذين ينحلون[4] أعمالهم الحقيرة وآمالهم الباطلة العناوين الضخمة والمظاهر الفخمة ، ويقنعون الناس بذلك التمويه والتلبيس أنها أعمال جسيمة تكفل للانسان سعادة

---

(١) اجمعوا رأيهم (٢) لم يحفلوا به (٣) هدهدت الام الصبى : حركته لينام (٤) نسبوا اليها ما ليس لها

النفس ورغد العيش وزينة الحياة . طوبى لمن استطاع أن يكون كذلك ! . ولكن الرجل الذى ينظر ساكناً خاشعاً الى عُقبى هذه الأشياء ، ويرى باحدى مقلتيه ذلك الحضرى المترف يجعل من جنينته الصغيرة جنة كبيرة وهو مبتهج جَذِل ، ويلحظ بالأخرى ذلك البائس الفقير يمشي دائباً تحت عبء الشقاء ، متساقطاً من الأين[1] والاعياء وهو مستسلم صابر، وكلاهما يطمح الى أن يرى نور الشمس ولو دقيقة فوق عمره . ذلك الرجل يعيش رخى البال سابحاً فى عالم قد خلقه من نفسه لنفسه بنفسه . وهو أيضاً سعيد لأنه رجل . ومهما تكن الحوائل التى تتصداه وتعوقه فلا ينفك حافظاً فى قلبه أعذب الشعور بأنه طليق ، وأنه يستطيع متى شاء أن يخرج من هذا السجن العميق

٢٦ مايو

أنت تعلم منذ بعيد مذهبي فى السكنى اذا طابت لى الاقامة واطمأن بى المنزل : أنتبذ مكاناً خلياً فأخيم به ثم أعيش عيشة قانعة متواضعة . ولقد وجدت هنا محلة صغيرة سحرنى جمالها ، وسرنى انعزالها

---

(١) التعب

على نحو فرسخ من المدينة تقوم على أحدى الربى الجميلة دَسكرة[1] تدعى ولْهِم[2] لاتقع العين على مثلها فى جمال الموقع وطيب الموضع . واذا صعَّدت فى الطريق الذاهبة اليها أخذت عينك منظر الوادى بنظرة واحدة . فى هذه القرية فندق صغير لامرأة ذات مروءة ونشاط تبيع فيه النبيذ والجعة والقهوة . وأجمل ماتراه هنالك شجرتان من شجر الزيزفون تغطيان بأفنانهما المتهدلة الساحة الصغيرة الواقعة أمام الكنيسة وقد احاط بهما أكواخ القرويين وأهراء[3] الغلال من كل جانب

تحت هاتين الشجرتين وجدت ذلك المكان المنعزل الخالى . فنقلت اليه من الخان كرسياً ومنضدة وأقمت به أشرب القهوة على أشعار هوميروس

قادتنى المصادفة الى هاتين الشجرتين فى عصر يوم جميل ، وكان الحى خلواً من أهله ،والفلاحون يعملون فى الحقول ،فلم أرَ الاغلاماً فى عامهِ الرابع قد أجلس رضيعاً فى شهره السادس بين ركبتيه ، وضمه الى صدره بذراعيه ، وهو ساكن الحركة مطمئن الجِلسة على حِدَّة

---

(١) القرية العظيمة (٢) لا يتعب القارىء نفسه فى البحث عن الامكنة المسماة هنا فقد اصطررنا أن نغير اسماءها ونخفى معالمها « حوت »

(٣) جمع هرى : مخازن الغلال

نظَراتِه وسرعة لفتاته . راقنى هذا المنظر القروى ، وسرنى هذا المظهر الأخوى ، فجلست تلقاءه على محراث وأخذت أرسمه

أضفت اليه السياج الملاصق وباب مخزن من المخازن وبعض العجلات المحطمة كلاًّ على حاله ، ثم نظرت بعد ساعة فيما صنعت، فاذابى قد رسمت صورة رائعة دون أن أزيد عليها شيئاً من عندى . فوطد ذلك عزمى على أن أقف عند الطبيعة لا أجاوز سيرها ، ولا أستمد غيرها ، فهى المنجم الذى لاينفد ، والمنبع الذى لاينضب ، وهى التى تخلق نوابغ الفن وتلهمهم أسرارها

إن لقواعد الفن محاسن يعرفها لها الناس كما يعرفونها لقوانين المجتمع . فالفنّان [١] الذى يأخذ نفسه بتلك القواعد لايأتى عملاً محالاً فعِلُه ، ولارديئاً كلُّه ، كذلك الرجل الذى يجرى على منهاج الأدب ويسير على أنظمة المجتمع لايكون جاراً ثقيلاً ولا شقياً شريراً ،ولكن مهما قيل فان القواعد تجنى على الطبيعة : تفسد عاطفتها الصالحة،وتبهم عبارتها الواضحة . سترمينى بالجور والمبالغة وتقول : أن القواعد تضع الحدود المناسبة ، وتشذّب الغصون الزائدة وهلمجراً . ولكننى أقرّب الأمر إليك بالتشبيه : الفن والحب سبيلهما واحدة وأمرهما متفق . فلوأن شاباً فَتِىَّ القلب تيمه حب غادة فأنفق على حديثها ساعاته ،

(١) كلمة استعرناها لصاحب الفن Artiste

وقصر عليها مَلَكاته[1] وممتلكاته ، ليدلها على أنه وهبها فؤاده ، وملّكها قياده . ثم جاءه مدنى متحذلق[2] وقال له : « سيدى ! ان الحب توجبه الانسانية ، وتقتضيه الطبيعة البشرية . ولكن أجمل بك أن توفق فى الحب بين عقلك وقلبك . قسم زمانك فاجعل ساعات العمل نصيبك ، وخص بساعات الفراغ حبيبك . ثم احسُب دخْلك وخرْجك فاذا فضل بعد نفقتك شىء فلا أمنعك أن تُطْرف غادتك ببعض التحف على شرط أن تقصد فى ذلك وتقصره على يوم ميلادها أو يوم عيدها »

لو أن هذا الشاب ألقى سمعه الى هذا الناصح وأخذ برأيه لأصبح نابغاً خطيراً ، ولاخترته أن يكون لأحد الأمراء مديراً ،ولكنه يقتل حبه ان كان هياماً ، ويفسد قريحته ان كان فناناً

قفوا أسائلكم يا أخلائى وصحبى ! ما لِسيل القرائح لا يفيض إلا قليلا ؟ ولم لا ترونه يندفع فيبهر النفوس الدهشة الحائرة باصطخاب أمواجه وجرجرة آواذيه ؟ أليس ذلك لأن سادتنا أولى[3] الاذهان الساكنة الفاترة قد عرّسوا[4] بشاطئيه ووقفوا يرصدون له الأهبة ،

---

(١) مواهبه (٢) الذى يدعى أكثر مما عنده Pédant

(٣) جوت من مبتدعى الطريقة الابداعية (رومانتيك) فلعله يعرض فى هذا القول بر حال الطريقة المدرسية المتشبثين بالقواعد الموضوعة (المترجم)

(٤) نزلوا وأقاموا

حتى اذا خشوا منه أن يفيض فيدمر المساكن ، ويحطم أعواد السوسن ، ويخرب البساتين ، عاجلوه بالحواجز وعالجوه بالثقوب ليهدئوا ثائرته ويأمنوا غائلته ؟

٢٧ مايو

أراني قد استرسلت في حُميًّا الاستعارة واستغرقت في سَوْرة[1] الخطابة حتى نسيت أن أقص عليك خاتمة أمري مع الطفلين . وذلك اني لبثت ساعتين جالساً على المحراث وقد استولى عليّ انفعال غريب يعرفه الشاعر والمصور ، وحاولت أن أصفه لك في كتاب الأمس فجاء الوصف مهلهلاً سقيما . فلما كادت الشمس تؤوب أقبلت الى الطفلين امرأة في رونق الشباب على ذراعها سلة — وكان الصبيان لا يزالان على حالهما من السكون والدعة — فهتفتْ بالكبير فيليب وأثنت على شهامته ورزانته ، ثم حيتني فرددت التحية ونهضت فدنوت منها وسألتها أهي أمّ هذين الغلامين الجميلين ؟ فقالت نعم وناولت الأكبر نصف رغيف وحملت الأصغر بين ذراعيها وقبلته قبلة لا تخرج الا من بين شفتي أم . ثم قالت : « تركت الوليد في رعاية فيليب وذهبت مع ولدي البكر الى المدينة نبتاع خبزاً وسكراً ومقلاة من الخزف — وكان كل ذلك في السلة رأيته حين سقط غطاؤها — « وسأصنع الليلة حساء

---

(١) حمية

لذيذاً ليحي (اسم الوليد) أما المقلاةفبدل التي كسرها بالأمس ولدى البكر الطائش عقب شجار بينه و بين فيليب المسكين على قَدِيح[١] المرق » . فسألتها أين غادرت ولدها البكر؟ فلم تكد تقول انه كان يركض وراء الأوز في المرج حتى رأيته مقبلاً يعدو وفي يده قضيب من شجر البندق أتى به إلى أخيهِ الأصغر

مضيت في الحديث مع هذه المرأة فعلمت أنها بنت معلم القرية وأن زوجها مسافر إلى سويسرا ليحصل على نصيبه من تركة ابن عم له قالت : « إن بعض الناس حاولوا أن يخرجوه من الميراث وقد راسلهم فما أجابوه . فآثر أن يشخص اليهم بنفسه . وقد انقطع علم ما بيني وبينه . فعسى أن يكون خيراً ماحبس عني رسائله !

تركت هذه الفتاة البَرَّة على مضض من فراقها بعد أن ناولت كلاًّ من بنيها (كُرُتْزَر)[٢] وأعطيتها نصيب الوليد لتشتري له خُبْزة متى ذهبت الى المدينة

لا أكْذِبُك يا صديقي ؛ فلقد أكون وعقلي مسبوه[٣] وفكري مشرَّد ونفسي مبلبلة فما ينفّس[٤] عني غير أمثال هذه المرأة التي تضطرب في دائرة حياتها الضيقة هادئة القلب سعيدة النفس ، وتعيش في يومها غير عابئة بغدها ، وترى أوراق الشجر تتساقط وتتناثر فلا

---

(١) مايبقى في أسفل القدر فيغرف بجهد Gratin

(٢) عملة المانية تساوي مليمين تقريباً (٣) داهب (٤) يفرج

تفهم من ذلك غير دنو الشتاء !

منذ ذلك اليوم كثر اختلافى إلى هذا المكان فاسترسل الاطفال بأنسهم الىّ ، ورُحت أعطيهم من السكر عند ما أشرب القهوة ، وأقاسمهم فى المساء الخبز والقشدة ، فاذا جاء الاحد أخذ كل منهم (كرتزره) ، واذا لم أكن وقت الصلاة هناك قام بذلك التوزيع ربة الحان على أمر منى

أُحْبِبْ إلى نفسى بذلك الانس والعطف من تلك القلوب الطاهرة الكريمة ! وما أسعدنى بما أسمع من أقاصيصهم المختلفة و بما أرى من غيرتهم المحبوبة التى تتجلى خلال اهوائهم الطفلية وسذاجتهم الفطرية متى رأوا صغار القرية يجتمعون حولى !

ولَشَدّ ما أُعانى فى تهدئة بال الأم كلما خَشِيتُ أن يضايق أطفالها السير !

٣٠ مايو

ما قلته لك آنفاً عن التصوير يقال ولا شك عن الشعر أيضا ، فان موضوعهما تعرّف الجمال والقدرة على تعريفه . ذلك وهو الحق لفظ قليل فيه معنى كثير

شاهدت اليوم منظراً من رواية الحياة لو نقل عن حاله ، و مثل

على جماله ، لكان أجمل منظر غزَلى فى العالم . ولـكن ما نفعُ كلمات الشعر والغزل والمنظر فى هذا الموضع ؟ أمن الضرورى أن نعمد الى جمال الصناعة وزخرف القول كلما أردنا أن نشرح منظراً من مناظر الطبيعة ؟

اذا رجوتَ أن تعلم بعد هذه المقدمة شيئاً عظيما فخماً فقد خدعتك نفسك ، وكذَبك حَدْسك . فانه لم يملك علىّ نفسى ، ولم يثر كامن حسى ، غير فلاح قروى ساذج ! سأقص عليك الأمر على عادتى بالقصور والعى ، وسترمينى أنت على عادتك بالاسهاب والغلو . أنها ولْهِمُ أيضاً ، ومابرحت ولْهِمُ مصدر ذلك الجمال ومنبع هذا السحر !

تفيأت جماعة ظلال الزيزفون ليشربوا القهوة ، فثقُل خلاطهم على طبعى ، فتذرعت بحيلة وانتبذت عنهم ناحية ، فرأيت فتى قروياً قد خرج من أحد البيوت المجاورة الى المحراث الذى كنت أرسم فوقه منذ قليل وأخذ يصلح شيئاً فيه

راقتنى صباحة وجهه فدانيتُه وبدأتهُ الحديث مستفهماً عن حاله وشأنه . فلم يكن غير قليل حتى تم التعارف وزالت الكلفة واستفاض الحديث ، كدأبى من أهل هذه الطبقة الكريمة . حدثنى أنه فى خدمة أرملة حدبة[1] عليه رفيقة به . ثم أفاض فى الحديث عنها معلناً مفاخرها

---

(١) مشفقة

معدداً مآثرها ، حتى ما شككت فى اخلاصه لها قلباً وقالَباً . وكان من قوله إنها ليست شابة ، وأن ما لاقته فى زواجها الأول من نكد العيش ومضض الخلاف صرفها عن الزواج ثانية . ولقد تبينت من خلل حديثهِ أنه يراها بارعة الجمال فتانة المحاسن . وأنه يود لو تختاره زوجاً ليبسط من جبينها غضون الشقاء الأول

ما أحوجنى الى أن أعيد عليك ما قال كلمة كلمة لتشعر بولائه ووفائه ! وما أفقرنى الى مواهب الشاعر المفلق لأصورَ لك صورة حية من اشارة حركاته، ورخامة نغماته، وتوقد نظراته! هيهات! ليس فى مقدور اللغة أن تعبر عن هذا الحنان الذى تنم عليه سحنته وهيئته. ومهما حاولت فلن آتى الا بكلام غليظ على الطبع ثقيل على السمع . وأشد ما أثر فىَّ خوفه أن أسىء الظن بتصرف هذه المرأة ، أو أشك فى علاقته بها. لله ما أجمل أن تسمعه يتكلم عن ملامح وجهها، ومقاطع جسمها ، ذلك الجسم الذى تَبَلَه [1] وذَلله وإن فقد مع الزمن وفرة شبابه، و بضاضة إهابه [2] ! لا أستطيع أن أعيد ذلك الا على نفسى ، ولا أردده الا فى أعماق صدرى، فانى لم أرَ قبل اليوم هوى محرقاً وشوقاً مبرِّحاً يحدوهما العفاف ويكنفهما الطهر؛ بل ما كنت أتصور اجتماع ذلك حتى فى الحلم !

---

(١) ذهب بعقله (٢) جلده

لا تلمنى اذا قلت لك أنى ما ذكرت هذه العاطفة الخالصة البريئة إلا شعرت بنار تتسعر فى احشائى ، وتتمشى فى أعضائى . إن صورة هذا الحنان الصادق لا تزايل بصرى ، ولا تترك أثرى . وكأنى أصبحت فريسة لمثل تلك النار الكامنة فأنا أذوى وأموت . سأحاول ما استطعت زيارة هذه المرأة . ولكن لا . إن خيراً من ذلك أن أجتنب تلك الزيارة وألاَّ أراها الا بعين حبيبها . فلعلها تكون فى ناظرى أفل منها فى خاطرى ! وما أربى[1] أن أعمد إلى صورة جميلة تنازعنى اليها نفسى فأعبث بها وأشوهها ؟

١٦ يونيو

تسألنى مابالى لا أكتب اليك ؟ وقد كنت تَقْدر وأنت فى عداد العلماء أن تحزرَ أنى سعيد ، وأنى . . . . بالاختصار عرفت فتاة أخذت بمجامع قلبى ، واستأثرت بخالص حبى

سأكلف نفسى خطة شديدة اذا التزمت أن أقص عليك أمر اتصالى بهذه الفتاة على اطراد وتساوق

أنا مثلوج الصدر سعيد ، الا أننى مؤرخ غير مجيد . إنها ملاك كريم . . . إف ! ما غناء[2] هذا القول ؟ كل يقول ذلك عن حبيبه . أنه لاسبيل الى أن أصف لك مقدار جمالها ، ولا أن أذكر سبب كمالها ،

---

(١) حاجتى (٢) نفع

وقصاراى أن أقول لك إنها ملكت مشاعرى وذهبت بفؤادى كل مذهب

قل ماشئت فيها من سذاجة فى رجاحة عقل ، وشفقة فى قوة حزم ، ونفس صافية فاضلة ، فى عيشة راضية عاملة

كل ما أقوله لك عنها ليس الا هُرَاء مملا ، أو إيجازاً مخلاً ، لا يؤدى إلى ذهنك معنى من ذاتيتها ولا هُوِيّتها . فى مرة أخرى . . . ولكن لا . مالى وللمرة الأخرى ؟ سأقص عليك حديثها الآن ، فانه إن لم يكن اليوم فلن يكون أبداً . ذلك لأنى — ولا أكْذِبُك — مذ بدأت الكتابة هممت ثلاث مرات أن أضع القلم وأُسرج الجواد لأذهب اليها . مع أنى آليت لألزمنّ بيتى سحابة هذا اليوم. وهأنذا أطَّلِع من النافذة كل لحظة لأرى الشمس على أى ارتفاع فى الافق . . . . !

لم أستطع البَرّ بيمينى ، فقد كانت زيارتها أمراً لا محيد عنه ! وهأنذا بعد العودة أكتب اليك . أى شيء أبهج للنفس وأملك للوجدان من رؤيتها شمساً لدارة [1] اخوتها الثمانية من بنات و بنين يتألق فى جباههم ضوء البشر ، ونقرأ فى وجوههم آية اللطف ؟ . .

اذا مضيت فى الحكاية على هذا النحو خرجتُ منها ونهايتها فى

---

(١) الدارة للشمس كالهالة للقمر

ذهنك كبدايتها. ولكن لا بأس ! سألزم نفسي أن أجيئك بالحديث على سرده

كتبت اليك منذ زمن أني تعرفت إلى الحاكم س . وأنه دعاني إلى زورته في صومعته، أو بالحرى في مملكته . فشغلتني الشواغل عن هذه الزيارة ، وما كنت لأفكر فيها لولا أن المصادفة كشفت لي عن الكنز المدفون في هذا المكان المنعزل . وذلك أن شباننا أقاموا مرقصاً في الريف فطابت نفسي إلى حضوره ، ورضيت أن أكون مراقصاً لفتاة من فتيات المدينة ظريفة الطبع كريمة الخلق إلا أنها غير جذابة ولاخلاّبة . وكان اتفاقنا على أن أحتال مركبة تقلّني أنا ومراقصتي وابنة عمها إلى الحفل ؛ ثم نعرج في طريقنا على الآنسة شرلوت س . فنحملها معنا .

انطلقت بنا المركبة تؤم بيت الصيد حيث يسكن الحاكم . وبينما هي تسير في غابة مظلمة قالت لي رفيقتي : إنك ستتعرف الآن إلى فتاة فتانة . وقالت ابنة عمها : لا تمنّ نفسك بها ، ولا تطع قلبك في حبها . فقلت لها ولماذا ؟ قالت : إنها مخطوبة إلى فتى كريم اضطره موت أبيه الى أن يسافر فينظم أموره ويلتمس له وظيفة سامية . فسمعت هذه الأشياء وعلمتها دون أن أحفل بها أو أكترث لها . ثم واصلنا المسير حتى وقفت العربة على باب الفناء، وقد كادت الشمس تتوارى خلف الجبل ، وكان الحر يقطع الانفاس ويزهق النفوس ،

والسحاب المتراكم المُرْبَدّ يطرز حواشى الأفق . فهفا قلب السيدتين فزعاً من دنو العاصفة . فادعيت علم الظواهر الجوية لأحل عن قلبيهما عقدة الخوف . ولا أَكْذِبُ الله فقد تنازعتنى الشكوك وقام فى نفسى أن لهونا سيقصر، وصفونا سيكدر

نزلنا من المركبة وجاءت خادمة الى الباب ترجو منا أن ننتظر الآنسة شرلوت هنيهة فانها لا تلبث أن تجىء . أجَزْتُ[1] الفناء وصعدت السلم الخارجى ووضعت قدمى على وصيد[2] الباب فاذا منظر ساحر لم يقع طرفى على أتم منه جلالاً وروعة ! رأيت فى الدهليز ستة أطفال تتراوح اعمارهم من سنتين الى إحدى عشرة وقد أسرعوا الى الغرفة الأولى وتجمعوا حول فتاة لطيفه التكوين مربوعة القامة عليها ثوب ساذج أبيض تجمّلهُ عقَدٌ وردية على رُدْنَيه[3] ومنطقته. وكان فى يدها رغيف أسمر تقطعه دوائر لكل طفل قطعة تناسب سنه وقابليته ، ثم تعطيه إياها بوجه منطلق وصدر منشرح ، فيأخذها بيده الصغيرة — وقد مدها طويلاً قبل أن يُقَطع الخبز — ويصيح بملء فيه « شكراً شكراً » ثم انصرفوا فرحين بما أُوتوا ، بعضهم يطفر[4] فرحاً ، وبعضهم يمشى سُجُحاً[5] ، وكلهم متجهون الى باب الفناء ليروا الأجانب ، ولينظروا المركبة التى ستقل عزيزتهم شرلوت

---

(١) اجتزته (٢) عتبته (٣) مفرده ردن وهو الكم
(٤) يثب (٥) متئداً مترفقاً



شرلوت توزع الخبز على اخوتها . رسم كلماح

أقبلت الفتاة ، وكان أول ما قالت . عفواً ياسيدى عن تحميلك مؤنة النزول ، وتكليف السيدتين مشقة الانتظار ، فقد أنسانى هندمة لباسى وبعض أوامر منزلية تقتضيها غيبتى أن أُعَصِّرَ[1] الأطفال ، وهم يأبون إلا أن يتناولوا عصورهم من يدى

(١) نستسمح رجال اللغة فى وضع هذه الكلمة للوجبة الخفيفة التى تؤكل وقت العصر Gouter

فحييتها تحية عادية لا روح فيها ولا معنى . فان نفسي بأسرها كانت مأخوذة بسحر محياها ورخامة صوتها وجمال هيئتها . ولم أكد أخرج من دهشتي وأصحو من سكرتي حتى رأيتها ذاهبة الى غرفتها لتأتي بقفازها ومِرْوحتها . ورأيت الأطفال على بُعد ينظرون اليَّ من طرَف خَفي ، فَدَنوت من أصغرهم سناً وأبلجهم غُرة فنكص على عقبيه ، وكانت أخته اذ ذاك خارجة من المنزل فقالت له : لويس! مد يدك الى ابن عمك . فمد الصغير يده اليَّ فلم تمنعني وساخة وجهه وقذارة أنفه من أن أُقبله بقلبي وشفتي . ثم قلت لشرلوت وقد مددت يدي اليها : ابن عمه ؟ أَتحسبينني آهلاً لأن أعد من أقربائك ؟ فقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خبيثة : إن لنا كثيراً من أولاد العم فرقتهم عُدَواء[1] الدار ، ومن الصعب عليَّ أن أظنك شر الأسرة جمعاء !

ولما همت بالخروج أوصت أُختها صوفيا وهي طريدتها[2] في العمر أن تكلأ[3] أخوتها وتقرأ على أبيها السلام لدى عودته من نزهته ، ثم أمرت الاطفال أن يلقُوا الى أُختهم بالطاعة فينقادوا لها ويُحلوها منهم محلها . فكلهم صدع بالأمر الا ابنيَّة شقراء في السادسة من عمرها قالت لشرلوت بلهجة المتعاظم : « إنها مع ذلك ستكون سواك ، وإن حبنا لك لأشد »

خرجتُ بها الى المركبة فاذا أخواها الاكبران قد تسلقاها ،

---

(١) البعد (٢) ولدت بعدها (٣) ترعى

فرجوت من شرلوت أن تسمح لهما أن يصحبانا حتى مدخل الغابة فقبلت بعد أن وعداها الوقارَ والسكونَ . ولم يكن إلا ريثما أخذنا مجالسنا من المركبة وتبادل السيدات جمل المجاملة ، ولاحظن بعض الشيء على هندامهن وقبعاتهن ، وتناولن بالنقد جميع المدعوات فى الحفل حتى وقفت شرلوتُ الحوذىَّ وأنزلت أخويها . فرجوا منها أن تعطيهما يدها ليقبلاها . فقبلها الأول قبلة الشاب الحنون الرشيد ، وقبلها الثانى قبلة الصبي الأهوج الغرير ، وحمّلتهما عبارات اللطف والحنان الى من تخلف فى البيت من أخوتها . ثم استأنفنا المسير وأخذنا بيننا بأطراف الأحاديث ، فقالت ابنة العم لشرلوت : « هل قرأتِ الكتاب الذى بعثت به اليكِ؟ فقالت : كلا . إنه كسابقه لا يروقنى . وإذا شئتِ رددته اليكِ » فسألتها ماشأن هذين الكتابين ؟ فأدهشنى جوابها أنهما من تأليف . . .[1] ووجدت فى كل ماقالت غرابة وشذوذاً . كنت ألمح فى كل كلمة من كلماتها معنى جديداً من معانى السحر ، وفى كل سرار من أسرة وجهها شعاعاً جديداً من أشعة الذكاء . وكان البشر يتهلل فى غرتها كلما علمت أن كلامها لم يَنِدَّ عنى منه حرف . قالت : كنت وأنا صغيرة لا يلذ لى غير القصص ، والله يعلم كم كنت أسر حينما أجلس وحدى يوم الأحد

---

(١) سترنا مضطرين فى هذا الموضع أسماء الاعلام حتى لا يتألم لهذا القول احد ، على أن الواجب ألا يعبأ مؤلف بحكم فتاة واحدة ولا رأى فتى طائش مذبذب

فأشارك (مس جانى) وأمثالها فى النعمى والبؤسى . لا أنكر أن لهذا الضرب من الكتب لذة وجمالاً ، ولكنى أوثر أن يكون ما أطالعه مفيداً رشيداً ما دمت لا أجد للقراءة من الفراغ إلا يسيراً ، يعجبنى المؤلف الذى أجد فيه عالمى الذى أَلِفتُهُ ، على شرط أن يشعرنى كتابه بما فى حياتى العادية الخاصة من تأثير واخلاص وصداقة ، ويحملنى على أن أرى فيها أساس السعادة ومنبع الغبطة دون أن يرفعها خياله الى مستوى الفردوس

حاولت أن أخفى ما أثارته فى قلبى تلك الكلمات الأخيرة ، ولكننى لم أقوَ على كتمه طويلاً ، فاننى حين سمعتها تتكلم عرضاً عن (نائب وكفييلد) تأليف . . . [1] بلسان صادق وفكر صائب لم أتمالك أن بحت لها بما فى نفسى

وجهت شرلوت الحديث الى السيدتين بعد أن استأثرنا به حيناً وقد لبثتا أثناء المناظرة صامتتين عيونهما شاخصة وثغراهما مفغوران ، ولطالما نظرت ابنة العم الىَّ نظرة الهازئ الساخر فلم أشغل بذلك فكرى . ترامى بنا الحديث الى لذة الرقص فقالت شرلوت : اذا كان هذا الميل نقيصة فأشهد الله أنى له محبة وفيه راغبة ، واذا نزت فى

---

(١) كذلك اضطررنا هنا أن نحذف اسماء كثير من الكتاب والمؤلفين فى هذا البلد. فأما الذين نالوا اعجاب شرلوت وثناءها فسيعلمهم القارئ بالحدس والتخمين . وأما الآخرون فلا يعنى أحداً منهم أحد (جوب)

الرأس نَزْوة الهمّ لا يُسْليها إلا أن أعمد الى بِيانى[1] المصدوع فأرقص عليه رقصة (الكنتردنْس)

بينما كانت تتكلم كنت أنعم بالنظر الى عينيها الدعجاوين ، وأشعر أن نفسى تترامى على شفتيها القرمزيتين وخدها الأسيل النضر . وأعجب الأشياء أنى كنت ثملا بسلافة[2] حديثها ، معجباً بنبالة معانيها ، دون أن أسمع فى الغالب ألفاظها التى تؤديها . تستطيع أن تتصور ذلك أنت لانك تعرفنى . وجملة القول أننا بلغنا منزل الرقص ونزلت من المركبة كأنى صحوت من حلم ، وقد كنت تائهاً فى عالم الخيال غريقاً فى بحار الفكر فلم أكد أفطن الى نغمات الموسيقى وهى خارجة الى اسماعنا من قاعة متلألئة الاضواء ، بديعة الرونق والبهاء !

جاء يستقبلنا لدى الباب الاكبر فتيان يدعى أحدهما أُدْران وأما الآخر فلا أذكره ، وكانا مراقصى ابنة العم وشرلوت . فأخذا بذراعيهما وصعدت خلفهما بمراقصتى

ثم أخذنا فى الرقص ، فرقصنا بادىء ذى بدء رقصة (المينوويت) مراراً ، ودعوت السيدات واحدة فواحدة فما نقض[3] مِرَّة صبرى

---

(١) فضلنا أن نبقى لفظة البيانو ونعربه بحذف الواو على أن نستعمل فيه (المضراب) أو نضع له كلمة جديدة (٢) الخمر (٣) اضعف قوة صبرى

غير تلكؤ القبيحات العابسات فى مد أيديهن الى حتى نفرغ من هذه الرقصة *

بدأت شرلوت ومراقصها رقصة انجليزية ، وليس يدرى إلا الله مقدار سرورى حينما جاءت نوبتنا فدخلت فى الرقص معها !

يجب أن تراها وهى راقصة : إنها تقبل بقلبها ونفسها على الرقص وتترك جسمها يموج ويميد فى انسجام وانتظام ، وترى حركاتها حرة طليقة . ولفتاتها سريعة رشيقة ، فلا تشك أن الرقص خاق لها فلا تفكر إلا فيه ، ولا تشعر إلا به ، وأن كل شىء فى هذه اللحظة قد فنى فى خاطرها وناظرها . دعوتها للرقصة الثانية فأبت الا الثالثة ، وصارحتنى بكلمات هنّ أندى على الأفئدة من زلال المـاء ، قالت : «إنى أحب الرقصة الالمانية ، وقد جرت عادة قومنا ألا ترقصها السيدة الا مع مراقصها ، وقد علمت أن مراقصى لا يحسنها ، وسيشكر صنيعى اذا أعفيته منها . كذلك حال مراقصتك لاتجيدها ولاتريدها . أما أنت فقد راقبتك حين رقصتَ الانجليزية فوجدتك رشيق الحركة ماهر اللفتة . فاذهب إن رأيت الى مراقصى فاطلب اذنه . وسأذهب الى مراقصتك فأستنزلها عنك » .

قبلتُ فى مثل ارتداد الطرف . وقد كان مفهوماً أن يلازم صاحبها صاحبتى أثناء رقصنا فيجالسها ويؤانسها

بدئ الرقص فمهدنا له بحركات الأذرع المختلفة ، وشاهدت من

لباقتها ورشاقتها ما ملأ القلب دهشة وعجباً . فلما تغير اللحن أخذ بعضنا يدور حول بعض دوران القمر حول الأرض ، فنجم فى أول الرقص عن ندرة الماهرين فى الراقصين اضطراب وفوضى ، فقابلنا ذلك بالحكمة والحزم،وتربصنا (١) بالقوم حتى انكسرت سَورتهم (٢) وقَرَّت فورتهم ، وخرج جمهور العاجزين عن الحلقة فلم يبق فيها غيرنا وغير زوج آخر هو أدران ومراقصته . لم أكُ فى حياتى أنشط جسما ولا أخف حركة منى اليوم ، حتى ما كنت أحسبنى انساناً ! آخذ بين ذراعىّ أجمل مخلوقة فى الناس، وأدور بها مثل لمح البرق ، وأرى كل شىء مما يحيط بنا يزول ويفنى ! وأشعر . . . . أقول لك بصراحة ياوليم انى أوثر أن أموت على أن ترقص الفتاة التى أهواها وأرعاها هذه الرقصة مع غيرى

رقصنا رقصات خفيفة ونحن ماشيان فى القاعة لنرفه عن نفوسنا، ثم عدنا فجلستْ ، وذهبت أنا الى برتقالتين كنت ادخرتهما وليس فى المقصف غيرهما فقطعتهما أرباعاً ثم ناولتها اياهما فزاد ذلك فى سرورها . غير أنى كنت أحس خنجراً يخترق فؤادى كلما رأيتها مضطرة أن تعطى بعض الحمق من جاراتها قطعة منهما

وفى الرقصة الانجليزية الثالثة كنا ثانى زوج ، فمضينا فى أثر الراقصين نرسم خطوطاً مختلفة،وجسمى معلق بذراعيها وقلبى مفتون

---

(١) انتظرنا (٢) حدتهم

بعينيها الفائضتين بالبشر الخالص والعفاف المحض، حتى حاذينا امرأة نَصَفاً تغترق الأبصار ملاحة وحسناً ؛ فنظرتْ الى شرلوت باسمة ، وأشارت اليها مهددة ، ولفظت مرتين اسم ألبير بهيئة ذات معنى وهى مارة بنا على عجل ، فقلت لشرلوت : هل أنت مخبرتى من ألبيرُ هذا إذا لم يكن فى الإخبار عنه ما تكرهين ؟ فهمّت بالجواب لولا أن انفصلنا مجبرين لننتظم فى السلسلة الكبيرة، ولما تقابلنا وجدتها ساهمة مفكرة ، فأخذت بيدى وخرجنا نستروح النسيم ثم قالت : « لماذا أكتم الأمر عنك ؟ أن ألبير فتى ظريف قد وعدوه أن أكون له خطيبة »

لم يكن هذا الخبر جديداً على سمعى ، فأن المرأتين حدثتانى به فى الطريق، ولكنه الآن وقع منى موقع الخبر الجديد ، لانى مافكرت حين سمعته أنه يتصل بتلك التى أصبحت فى وقت قريب أحب الناس الىّ وأعزهم علىّ لاأطيل عليك القول فقد انماث (١) قلبى كما ينماث الثلج فى الحر ، وعقِرْتُ (٢) حتى كدت أخرّ الى الارض ، وذهب عقلى شعاعاً من الكرب فأخللت نظام الرقص ، وهوشت ترتيب الصف ، وكاد الأمر يسوء لولا أن شرلوت لحضور ذهنها وذكاء فهمها جذبتنى جذبا فعاد النظام كما كان سريعاً

أخذ البرق يشتد وميضه ويتتابع قبل نهاية هذه الرقصة ، وقد رأينا سناه (٣) منذ طويل يلمع فى سواد الأفق فما كنت أشك فى انه

---

(١) ذاب (٢) فجأنى الروع فلم أقدر أن أتقدم أو أتأخر (٣) ضوء

برق خُلَّب . وزاد قصف الرعد حتى حجب عنا صوت الموسيقى ، فاضطربت الحواس ورهبت القلوب وخرج ثلاث نسوة من الصف هاربات وتبعهن مراقصوهن . ولم يك غير قليل حتى عمت الفوضى وكف العازفون

من طبيعة الانسان اذا بغتَه حزن أو خوف في خلال مسرته أن يكون تأثيره فيه أشد منه في كل وقت . ذلك إما لشدة شعوره بالضد ، أو لأن مشاعره وهى هائجة ثائرة تكون أقوى تأثراً وأشد انفعالا

لهذين السببين أعزو ذلك القطوب الغريب الذى بدا فجأةً على اوجه كثير من اولئك النسوة

جلست أعقلهن في إحدى زوايا القاعة وأدارت ظهرها الى النافذة وأسدلت على أذنيها حجاباً . وجاءت أخرى فجثت بين يديها وخبأت رأسها بين ركبتيها . وأقبلت ثالثة فدخلت بين اختيها وقبلتهما ثم انهلّت دموعها انهلال القَطر [1]

بلغ الرعب بالسيدات ان اراد بعضهنّ العودة الى ديارهنّ ، وانخلعت قلوب الأخريات فما استطعن أنَ يذُدن [2] عن أنفسهن جرأة الشباب وعدْوان الصباحين أقبل بعض الفتية يقطفون من شفاه أولئك الحسان المحزونات تلك الدعوات المرفوعات الى الله !

أما الرجال فقد نزل بعضهم يدخنون أعوادهم فى أمن ودعة ،

---

(١) المطر (٢) يدفعن

وقبل الباقون دعوة المُضيفة الى غرفة ذات سدول وستائر . وما كدنا ندخل هذه الحجرة حتى أخذت شرلوت تصف الكراسى على شكل دائرة . وأجلست الجماعة كلاًّ فى مكانه . ثم اقترحت عليهم لعبة يلعبونها ، فرأيت كثيراً من الناس قد نفخوا أشداقهم، وعضوا شفاههم، وجلسوا جلسة الآمل رجاة أن ينالهم بعض الفائدة من رهان مكتسب. قالت شرلوت : إنا سنلعب لعبة العدّ : تعدون من واحد الى الف ، فيلفظ كل منكم العدد الذى يقع عليه بسرعة ، وسأدور حول الحلقة من اليمين الى الشمال ، فمن وجدته منكم تلكأ أو أخطأ لطمته مرة . قالت ذلك وابتدأ اللعب فقال الأول : واحد . والثانى : اثنان . والثالث: ثلاثة ، وهلم جرا وهى تدور حولنا مرفوعة اليد . فكان من ذلك منظر ينفّس عن المكروب ، ويجلو صدأ القلوب . ثم أخذت تضاعف ُخطاهَا رويداً حتى كبا أحد العادين فلطمته لطمة . وضحك جاره فأذهله الضحك عن عدده فلطمته أخرى . كل ذلك وهى تسرع فى الخطو فنسرع فى العدّ . ولقد نالنى منها لطمتان كانتا على ما لاحظت أشد من لطمات الآخرين فطبت بذلك نفساً ونعمت عيناً . ثم انفجر القوم جميعاً بالضحك فوقفت اللعبة دون تمام الالف . وخرج من الحلقة بعض الاصدقاء الخلَّص فجلسوا شراذم على حدةٍ ، وتبعت شرلوت الى قاعة الرقص وكانت العاصفة قد هدأت . فقالت لى ونحن سائران : إن اللطمات قد أنست القوم هول العاصفة . فلم أجد ما أجيبها به .

فمضت فى الحديث قائلة : أنا من أشد الناس خوفًا وجزعًا ، ولكننى اصطنعت الشجاعة والثبات لأطمئن قلوب الآخرين فشجعت . اقتربنا من النافذة وكان الرعد لايزال يقصف على بعد ، والمطر ينهمر على الارض فيسيل حلوَ الخرير فى الحقول والاودية ، والهواء الفاتر تهب نفحاته عابقة بالعرف الذكى والأرج المنعش ، فوقفت شرلوت متكئة على مرفقها وسرحت طرفها فى الحقول ثم تطلعت الى السماء وردت بصرها الىَّ وهو مغرورق بالدمع ، ووضعت يدها فوق يدى وقالت: واكلوبستك [1] !!

فسرعان ماجرى على خاطرى ذكر تلك القصيدة البليغة التى قصدتها . وهيهات أن أصف لك ما أحدثته فى نفسى تلك الكلمة من شدة التأثر وقوة الانفعال . بهظنى الأمر فلم أستطع حمل نفسى فملت على يدها فغسلتها بدمعى ومسحتها بلثمى ، وما كان أروح ذلك لقلبي ؟ ثم أخذت عيناى تبحثان ثانية عن عينيها

أيها الشاعر الكريم والعبقرى النابغ ! ماكان أجدرك أن ترى تمجيدك وتعظيمك فى هذه النظرات ! عسى ألا أسمع بعد الآن اسمك إلا مقرونًا بالتنزيه والتجلة !

---

(١) شاعر المانى يؤثره الالمان (١٧٢٤ — ١٨٠٣) ذكرت شرلوت اسمه بالاكبار والاعجاب حين ذكرها جمال المنظر الذى تشاهده باحدى قصائده الرائعة فى وصف منظر يشبهه

١٩ يونيو

لا أدرى أين وقف بنا الحديث آخر مرة . وكل ما أعلمه أن الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل حين آويت الى مخدعى : ولعلى لو كنت حدثتك بدل أن كتبت اليك لأ سهرت جفنك حتى الصباح . لم أقص عليك ما جرى فى العودة من المرقص ولا أظن الوقت يتسع اليوم لتفصيله . تنفس الصبح ونحن فى الطريق فكان الشروق زاهياً صافياً ، والطل يَسَّاقط من الشجر قطرة فقطرة ، والروض يسيل عليه رُضاب الندى فيخضلّ ويرطُب ، وكل ما فى الطبيعة حولنا ينتعش ويحيا الا رفيقتينا فقد بدت فى أجفانهما فَتْرَة الكرى . فقالت لى حينئذ شرلوت : اذا شئت أن تأخذ حظك من الرقاد فافعل ، فانى لا أحب أن تتعب لأجلى . فقلت لها وقد حدقت فى عينيها : هيهات أن يخالط النوم جفنى مادمت أرى هذه العين ساهرة . ولبثنا كذلك يقظانين حتى بلغنا بيتها ، فجاءت الخادم وفتحت الباب رويداً فسألتها شرلوت عن أبيها وإخوتها . فقالت : إنهم على خير حال وأحسنه ، ولا يزالون فى سكرة النوم تحت الكِلل [1] استأذنتها فى الانصراف بعد أن رجوت منها أن تسمح لى بزورتها فى اليوم نفسه فقبلت

---

(١) جمع كلة بالكسر وهى ستر رقيق ينصب على السرير اتقاء البعوض . ناموسية)

زرتها . وأقسم أني منذ ذلك الحين أرى الشمس تشرق وتغرب، والقمر يبزغ ويأفل ، والكواكب تطلع وتغيب ، دون أن أعرف لها تقلباً ولا مداراً ، ولا أعلم الوقت إن كان ليلا أو نهاراً . فالعالم بأسره زال وانمحى من حولى فلا أجد له عيناً ولا أثراً

٢١ يونيو

مثل الأيام التى تمضى علىّ هنا كمثل الأيام السعيدة التى ادخرها الله لعباده المصطفين. فمهما أصابنى من مخبوء القدر فلن أقول أنى لم أذق حلاوة العيشة الخالصة وسعادة الحياة المطمئنة

لقد اتخذت ملجأى الذى تعرفه فى ولهيم مسكناً ومستقراً . ذلك لأنه يبعد مقدار نصف ساعة عن بيت شرلوت ، ولأنى أتمتع فيه بنفسى ، وأتذوق من السعادة ما قدر الله لبشر أن يتذوقه . من كان يدرينى أن ولهيم التى اخترتها لرياضتى أدنى الى الجنة وأقرب الى السماء ؟ كم مرة رأيت فى جولاتى البعيدة هذا البيت بيت الصيد الذى تجمعت فيه اليوم كل رغائبى وجميع أمانىّ تارة من فوق الجبل وتارة من جدد الارض المنبسط وراء النهر !

عزيزى وليم! فكرت طويلا فى أمر الانسان فوجدته يتطلع الى تقطيع وثاقه ، وتوسيع نطاقه ، ويتشوف الى كشف أشياء جديدة ، واختراق آفاق بعيدة ، ثم هو مع ذلك تدفعه قوة باطنة الى أن يكتفى

بوجود محدود، ويقتفى آثار العادة غير ملتفت الى ما يوجد عن يمينه أو عن شماله

لدى حلولى هذا المكان كنت كلما أجلت النظر فى هذا الوادى الجميل من أعلى الربوة أشعر أن نفسى نزاعة الى كل جهة من جهاته : أرى الغابة الصغيرة هناك فأشتهى أن أتفيأ ظلها الوارف ؟ وألمح قمة الجبل البعيد فأتمنى لو علوتها فأستكشف مساحة هذه البلاد ! وأبصر الهضاب المتسلسلة والوديان المنعزلة فأود لو أضل فى شعابها وأجول فى رباها ! فاذا ماذهبت اليها طائراً عدت ادراجى غير واجد ما كنت أرجوه وآمله !

هكذا أمر الغد : ظلام متكاثف منتشر أمام النفس يخوض فى أحشائه القلب ، ويضل فيه ضلال البصر فى المنظر البعبد ، ويذيبنا الشوق إلى الانتقال بأسرنا اليه فنحظى بالشعور الفرد والسرور المحض والعيش الرفيع ، فنركب إلى الوصول اليه كل صعب وذلول ، حتى إذا تمثل الغد وتحقق المرجوّ واقترب البعيد وجدنا كل شيء على حاله الأولى : حياة سيئة ، ومعيشة ضنْك ، ومستراد حرج ، ورأينا أنفسنا الصادية تحن عبثاً الى الشراب البارد العذب الذى فاتها ، ثم يعاودها الأمل فتأمل !

كذلك الأفّاق ذو النفس القاقة والطبع الشرود، ينتهى به الأمر إلى أن يتمنى العودة إلى وطنه ، فيجد فى كِسْر كوخه ، وبين أحضان

زوجه ، وفى وسط أطفاله، وفى الكدح لعياله ، تلك السعادة المرجوة التى تقب عنها فى معالم الأرض ومجاهلها فأخفق

أخرج فى الغالب والشمس فى خدرها الى ولْهِم فأجنى البسلّى بيدى من بستان الفندق ، وأجلس فأنزع القشور عنها وأنا أقرأ هو ميروس ، ثم أتخير قدراً من قدور المطبخ فألقى فيها البسلى مع شىء قليل من الزبد وأغطيها ثم أضعها على النار وأقعد بجانبها أحركها من حين إلى حين، فيتمثل فى خاطرى اذ ذاك كيف كان عشاق بنيلوب (١) الصلّفون وخطابها الوقحون ينحرون الثيران والخنازير ويقطعونها ثم يشوونها بأيديهم ؟ لا شىء أملأ للنفس وأملك للحس من تلك الحياة الابوية البدوية التى أستطيع بحمد الله أن أخلطها بحياتى اليومية دون مراءاة ولا تظاهر

ما أسعدنى بذلك القلب الذى يقدر على ادراك هذا السرور الساذج البرىء سرور الرجل الذى يأكل على خوانه كرنبة من غرس يديه ! أتحسب أنه يتمتع بأكلها فحسب ؟ إنما يتمتع فى وقت واحد بذكرى تلك الأيام السعيدة التى قضاها فى زرعها ، فيذكر الصباح

---

(١) بنيلوب Pénelope امرأة أوليس Ulysse وأم تلياك غاب عنها زوجها عشرين سنة فتقدم اليها الخاطبون وألحوا . فدعاها الوفاء الى بعلها أن تمكرهم فوعدتهم أن تختار منهم من تشاء اذا فرغت من نسيجها . ثم كانت تفتق بالليل مانسجته بالنهار، وظلت كذلك تراوغهم وهم على بابها حتى عاد زوجها

الجميل الذى غرسها فيه ، والليالى العِذابِ التى أمضاها فى سقيها ، وما كان يشعر به من غبطة ورضا حين كان يراها مباركة نامية

٢٩ يونيو

فى أمس البارحة جاء طبيب المدينة يزور الحاكم فوجدنى جالساً على الأرض بين أطفال شرلوت بعضهم يحبو علىّ ، وبعضهم يمتد بالقرص إلىّ ، وأنا أدغدغ (١) هؤلاء وهؤلاء فنحدث ضوضاء وجلبة . الدكتور — وهو رجل نظريات وقواعدَ تراه مُخْشوشب الجسم كأنه عروس من الخشب ذات محرّك ، يكلمك ويده تبسط ما تغضّن من كمه ، وترفع رباط رقبته إلى طرف ذقنه ، — يرى (كما يتبين من أنفه) فى تلك المداعبة منقصة لا يفعلها ذو نِهْية (٢) . فلم أحفل بذلك وتركته يخوض فى مسائل مختلفة من العلم واقبلت على قصر من الورق قد هدمه الصبيان فأعدت بناءه . ومشى صاحبنا فى المدينة يرفع عقيرته بالشكوى إلى الناس لأن ڤرتر قد زاد أولاد الحاكم فساداً وسوء أدب

أجل ياعزيزى وليم ! ليس على وجه الأرض شىء قلبى أشد ميلا اليه وأكثر عطفاً عليه من الاطفال . أتأملهم فأرى فى جبلّتهم (٣) أصول الفضائل والملكات التى يضطرون اليها بعد ، وألمح فى لجاجهم

(١) تخميش فى بعض الجسم يحدث عنه انفعال يضطر للضحك (زعزعة)
(٢) عقل (٣) طبيعتهم

عنادهم اليوم صدقَ عزيمتهم ورصانة خليقتهم غداً ، وفى طيشهم ونزقهم سهولة الطبع وبهجة النفس التى ستنير لهم وجوه الغِيَر[١] ، وتجلو أمامهم ظلَم الخطوب . كل ذلك أراه خالصاً غير مشوب ، وكاملا غير مثلوم ، فلا أفتر عن ترديد هذه الجملة الذهبية التى قالها معلم[٢] الانسانية: « إذالم تصبحوا كهؤلاء ! »فانظر ماذا نفعل ياصاح : نعامل أطفالنا وهم أمثالنا فى الخَلق وقدوتنا فى الخُلُق معاملة الاتباع والخدم .نريد ألا تكون لهم ارادة ، فهل نحن خالون منها ؟ علام اعتمدنا فى ادعاء هذه الخصائص ؟ أعلى أننا أعلى منهم سناً وأحكم عقلا ؟ سبحانك اللهم انك لا تنظر من عليا سمائك إلا الى أطفال كبار وأطفال صغار ليس غير وقد علمنا المسيح منذ طويل أى الفريقين عندك خير مقاماً وأجمل ذكراً. ولكنهم وا أسفاه يؤمنون به ولا يسمعون اليه ، و تلك مصيبة قديمة ثابتة . إنهم يَحْمِلون أولادهم على خصالهم ، ويحذونهم على مثالهم ، و . . . وداعاً ياوليم ! فحسبك ما هذيت فى هذا الموضوع

أول مايو

إن قلبى — وهو أسوأ حالا ممن شفه المرض وأذواه — يشعر بما لشرلوت من جميل الأثر للمريض العميد

---

(١) الحوادث (٢) السيد المسيح عليه السلام

تبلغت العلة بسيدة كبيرة فى المدينة ولم يبق منها كما حدث الاطباء الارمق ضعيف. فتمنت أن ترى شرلوت على سريرها وهى فى نزاع الموت فذهبتْ اليها ، وستلبث لديها بضعة أيام

وفى الأسبوع الماضى زرت معها قسيس قرية . . . . وهى قرية صغيرة واقعة فى منعزل بين الجبل على فرسخ من هنا . فبلغناها زُهاء الساعة الرابعة وكان مع شرلوت اختها الصغرى . فلما دخلنا فناء بيت القسيس المظلل بشجرتين من شجر الجوز وجدناه جالساً على مقعد أمام الباب، فلم يكد يرى شرلوت حتى عراه نشاط وهزة، نخاطر بالنهوض الى لقائها ناسياً عصاه العقداء (١) . فهرولت اليه واجلَسته ثم جلست الى جانبه تقرأ عليه تحيات أبيها وتلاطف ولده الأصغر وهو دميم الخلقة قذر الثوب تقذى به النواظر ، وتتقزز منه النفس . لو كنت رأيتها وهى تحادث هذا الشيخ الساذج وترفع صوتها بالحديث لتبلغه إلى أذنه الموقورة (٢) ، وتذكر أنباء الشباب الاقوياء وقد اخذهم الموت على حين بغتة ، وتثنى على ماء كرلسباد وتزين له الاصطياف بها من قابل ، وتؤكد له انه فى حاضره أنضر وجهاً وأنشط قلباً منه فى غابره !

أما أنا ففى تلك الفترة كنت أقوم بواجب الأدب والمجاملة لزوجة القسيس ، وقد راقنى جمال الشجرتين وشرح صدرى ما أضفتاه علينا

---

(١) ذات العقد (٢) الثقيلة السمع

من وارف الظل فلم أتمالك أن جهرت بالاعجاب بهما والارتياح لهما

فطفق الشيخ وقد اخذته أريَحيَّة السرور يقص علينا حديثهما قائلا . « أما الشجرة العتيقة فلا يدرى الا الله من غرسهـا . بعض الناس يقول القسيس فلان ، و بعضهم يقول غيره . أما الحديثة فهى رِئْدُ[1] امرأتى ، غرسها أبوها فى صباح يوم وُلدت هى فى مسائه . وسيكون لهما خمسون عاماً فى شهر أكتوبر

لقد كان أبوها سلفى فى هذه البِيعة[2] . وكان يعزُّ هذه الشجرة اعزازاً لا أستطيع لك وصفه. وقد ظفرتْ من قلبى بهذه المكانة أيضاً . لأن امرأتى كانت جالسة على خشبة تنسج فى ظلها حين دخلت هذا الفناء لأول مرة وأنا تلميذ بائس منذ سبعة وعشرين عاماً

ثم سألتْ شرلوت عن حال ابنته وأين هى فقال لهـا : انها خرجت مع السيد سميث الى بعض المروج ترى العمال كيف ينجلون[3] المرعى . ثم عاد الى حديثه فذكر ما كان له عند سلفه وابنته من الود المصفَّق والولاء الشديد ، وكيف صار له مساعداً ثم خلفاً

لم يكد يفرغ من حكايته حتى رأينا ابنته مقبلة مع صاحبها بين أشجار الحديقة ، فاستقبلت شرلوت بالترحيب والعناق . ولا أكْذبك فقد خفت على قلبى . إنها سمراء اللون حَرِكة الجسم سَوِية الخَلق ، وقد

---

(١) قرينتها فى السن (٢) الـكنيسة (٣) ينحلون المرعى : يحشونها

يُثلج النفس أن تقضي معها تلك الساعات بين الحقول . أما حبيبها (كما تنطق بذلك هيئته) فرجل مهذب النفس حَسَن الحِلْية الا أنه صموت فلم يشأ أن يطارحنا الحديث على الرغم من محاولة شرلوت أن تجره اليه . وشرما آلمني ما علمت من سحنته أن سكوته يرجع الى انقباض النفس اكثر مما يرجع الى تخلف الذهن . وذلك ما انكشف عنه قناع الشك بعد قليل . خرجنا نتنزه فسارت فريدريك بجانب شرلوت . واتفق أن سارت بجانبي مرة أو مرتين فرأيت الرجل وقد اكفهر وجهه الأسمر واربدّ ، فجذبتني شرلوت من كمي وأشارت اليّ أني أسرفت في مؤانسة فريدريك والتظرف اليها .

ماحزنت نفسي لشيء حزنها لأولئك الذين لاينفكون متألمين مكتئبين ولاسيما اذا كانوا في ربيع العمر ومقتبل الشبيبة ، حين تكون صدورهم مشروحة ، وقلوبهم مفتوحة ، لمسرات الحياة وملذات العيش ، ويكدرون صفاء أيامهم الجميلة القليلة بانقباض النفس وابتسار [1] الوجه ، ثم يدركون بعد أن قُضي الامر أنهم فرطوا في خير لن يرجع ، وبذّروا في ثروة لن تعود

ولما رجعنا في المساء إلى بيت القَسّ وجلسنا إلى منضدة في فناء الدار نشرب اللبن ونتحدث ، أفضى بنا الحديث إلى مسرات الحياة وهمومها ، فكرهت أن تمر هذا الفرصة دون أن أحمل على ذوي

---

(١) عبوسه وتعبره

النفس المنقبضة والقلب الحزين . فقلت : إنا معشر الرجال لانفتأ نزعم أن الدنيا تسوء اكثر مما تسر ، وتنفع قليلا ثم تضر ، والله يعلم انا كاذبون في هذا الزعم ، ومسرفون في هذا الوهم ، وأن نفوسنا لو كانت مهيأة على الدوام للتمتع بما يسوفه الله اليها كل يوم من طيبات الرزق وغفلات العيش لتلقينا محن الدهر متى أقبلت بصدر واسع وخلق وادع وصبر جميل . فقالت زوجة القسيس : ولكن نفوسنا ليست طوع أمرنا ، ولا نازلة على حكمنا ، بل هي تابعة لجسومنا في اكثر حالاتها ، تمرض بمرضها وتصح بصحتها . فقلت لها . أنا مقتنع بذلك ويجب أن نعد الانقباض مرضاً ، ونرى ان كان في مقدورنا أن نطبّ له ونشفيه . فقالت شرلوت : أصبت شاكلة السداد ، فاني أعتقد فينا القدرة على ذلك كما خَبَرْتهُ بنفسي ، فكنت اذا حضرني الهم وساورني القلق أمشي في الحديقة مغنية لحنين أو ثلاثة من ألحان الرقص فتَنْسَلِي [1] هموم صدري ، وتَنْجلي كُرَب نفسي . فقلت لها : ذلك ما اريد ان اقول . فان مثل المزاج المنقبض كمثل الكسل سواء بسواء : نجد في طباعنا ميلاً الى الفراغ واستنامة الى الراحة ، ولو أنا شجعنا مرة على طرح الكسل ، وحسرنا عن سافنا للعمل ، لوجدنا في الجد لذة لاتَعْدُلها لذة

كانت فريدريك مصغية بسمعها اليّ ، مقبلة بذهنها عليَّ ، فهاج

---

(١) انسلى الهم : انكشف

ذلك فى الفتى حب الكلام فقال معترضاً . ولكن المرء عاجز عن كبح نفسه وضبط عواطفه . فقلت ان بحثنا يدور حول عاطفة مرذولة يود كل منا أن يتخلى عنها ويتخلص منها . ولا يدرى امرؤ الى أى غاية تقف قواه اذا لم يَبْلُها (١) . فالمريض الذى تشتد رغبته فى نيل العافية لا ينى فى استشارة الأطباء طبيباً طبيباً ، ولا يرفض الاستسلام للحمية الشديدة المستمرة ، ولا الصبر على مضض العقاقير المرة . ثم لاحظت الشيخ الصالح يرهف أذنه لما نقول ، ويجمع باله لما نذكر ، فرفعت صوتى بالحديث وملت به اليه قائلاً : « درج الواعظون على أن يحذروا الناس كثيراً شر الرذائل ولم نسمع واحداً منهم يحذرهم شر النفس المنقبضة (١) . فقال القسيس : ذلك شأن وعاظ المدن . أما القرويون فلا يعلمون عن انقباض النفس شيئاً . على أن عظة من هذا النوع قد تفيد الحين بعد الحين لتكون على الاقل درساً لامرأتى ولسيدى الحاكم . فضحك الجماعة وقهقه هو حتى أخذته نوبة سعال شديدة قطعت حديثنا زمناً . ثم عاد الفتى الى الحديث فقال . انك دعوت انقباض النفس رذيلة ، وفى ذلك على ما أرى غلو ومبالغة . فقلت له : ليس فى الامر شىء من ذلك ما دمنا نطلق هذا الاسم على كل ضارّ بنا وبأهلنا . أما كفى ألا نستطيع أن يسعد بعضنا بعضاً حتى

---

(١) يختبرها (٢) بين ايدينا الآن عظة نفيسة فى هذا الموضوع للافاتر من بين ما كتبه عن سفر يونس (عليه السلام) « جوت »

يسعي كل منا فى اختلاس مايجد أخوه من المسرة فى قلبه ، وما يشعر به من الغبطة فى نفسه ؟ أرونى رجلاً سوْداويا قدر على كظم انقباضه ليحمل ثقله بنفسه دون أن يكدر صفاء من حوله ؟ ما أولى انقباض النفس أن يكون غيظاً كمينا من نقص كفايتنا ، وسقوط قدرتنا ، وسخطاَ على أنفسنا مصحوباً برذيلة الحسد التى تهيج فينا الزهو الشديد والعُجْب المفرط ؟ اذا رأينا قوماً سعداء ولم نكن نحن مصدر سعادتهم كان ذلك علينا شديدا غير محتمل

فلما رأتنى شرلوت أتكلم هكذا وأنا ثائر مضطرب نظرت الىَّ وابتسمت . أما فريدريك فرأيت فى مآقيها دمعة تترقرق ، فحملنى ذلك على الاستمرار فقلت : بؤساً لأولئك الذين يتخذون من سلطانهم على بعض القلوب ذريعة لحرمانها تلك المسرات البسيطة التى تنبعث فيها من تلقاء نفسها ! فلا التحف والهدايا ولا الظرف والملاطفة بعوضة عن تلك اللحظة التى سعدنا فيها بأنفسنا فسممها ذلك الخائن بحقده وغيرته

فى تلك الساعة فاض قلبي بالخواطر ، وانثالت [1] على نفسى الذّكَر ، فأجهشتْ عينى بالبكاء وصحت قائلا : آه ! حبذا لو كان كل منا يقول لنفسه كل يوم . ان أول الواجبات عليك لمن تحب أن تحفظ له مسرته ، وأن تزيد سعادته وغبطته : وتشاطره فرحه وبهجته ، وانك لا تستطيع ان تأسو [2] كلوم قلبه اذا صدعه الهم وأمضَّه الهوى ؛

(١) تتابعت وكثرت (٢) تداوى جروح

واذا ما غشيت سكرة الموت تلك التى أذويت حياتها وهى ناضرة مزهرة ، ورأيتها ممدودة معمودة [١] قد دكها المرض وأضنتها العلة وعيناها السادرتان [٢] شاخصتان إلى السماء ، وجبينها الشاحب من عرق الموت فى جزر ومد ، عرفت بعد أن حُمَّ القضاء — وأنت واقف حيال سريرها وقفة المجرم المقضى عليه — أنك لا تملك لها نفعاً ، ولا تستطيع لمكروهها دفعاً ، فتذهب نفسك حسرات على أنك لم تنفق ما تملك لتبعث فى هذا الجسم الضارع [٣] المنحلّ بقية من العزاء وأثارة من الحياة . . . !

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى قام فى خاطرى ذكرى موقف كهذا الموقف فغلبنى على نفسى واستمطر شئون [٤] عينى ، فسترت وجهى بمنديل وانتبذت ناحية ، فما عدت إلى رشدى الا على صوت شرلوت تدعونى إلى الرحيل . فلما انفرد بنا الطريق أخذت شرلوت تؤنبنى على شدة اهتمامى بكل شىء ، وتنصح الى أن أبقى على نفسى وأهاونها ، فان مغبة ذلك وخيمة على

أيها الملاك الكريم ! إنى اذا حييت فلأجلك ، وإذا سعدت فبفضلك !

---

(١) عمده المرض : أضناه وأوجعه وفدحه (٢) المحيرتان من سدة الحمى (٣) الواهن النحيل (٤) مجارى الدمع

٦ يوليو

لا تزال قائمة على سرير صاحبتها المحتضرة ، ولا تزال كما هي حاضرة الذهن رقيقة الطبع ترسل مع نظراتها العزاء للمنكوبين ، والسعادة للمنكودين

خرجت تتنزه مساء أمس مع اختيها مَرْيان وأميلي الصغيرة ، وكان عندي بهذه النزهة علم ، فوافيتهن اليها ومشينا معاً ساعة ونصفاً ، ثم ارتددنا إلى المدينة فمال بنا الطريق إلى المنبع الذي آثره قلبي باعزازه ، وأصبح منذ اليوم أعز عليَّ أضعافاً مضاعفة . جلست شرلوت على حائطه الصغير ولبثنا أمامها وقوفاً . ثم ألقيتُ نظرة على ما حولي فلمحت في صحيفة الماضي تلك الفترة التي قضيتها في هذا المكان منعزلا وحيداً ، فقلت : « أيها المنبع العزيز ! مضى زمن دون أن أرفّه عن نفسي بنسيمك الرطب ، ونَميرك العذب ، ولطالما مررت بك وشيكاً من غير أن أنظر اليك ، أو أقبل عليك » ثم نظرت الى أسفل فرأيت أميلي صاعدة وفي يدها قدح من الماء قد ربكها حمله . وكنت اذ ذاك أتأمل شرلوت وأشعر بأثرها فيَّ ومكانتها لديّ . فلما أقبلت أميلي بالماء رغبت مريان في شربه ، فأبته عليها الطفلة وصاحت بعبارة رقيقة عذبة : « لأنت ياشرلوت أول من يشرب من هذا الماء ! » فاستخفني ما سمعت في جملة البُنَيَّة من صدق

اللهجة ورقة القلب ، فلم اجد طريقة أعبر بها عن شعورى وسرورى سوى ان رفعتها بين يدىّ ثم قبلتها بحنان وقوة . فهبت الطفلة من فورها تصرخ وتُعْول، فوقفت دَهشاً مبهوتاً، وجاءت شرلوت فقالت : « لقد أسأت صنعاً بالبنية ! » وأخذت تلاطفها وتسرّى عنها بقولها : الىّ الى يا ليلى! لا بأس عليك منه « ثم أمسكتْ بيدها وهبطت بها الى المنبع وقالت لها اغسلى وجهك سريعا بهـذا الماء الخصِر[1] يذهب عنك ما يضرك « اما انا فلبثت فى مكانى انظر الى البنية وهى تحك خديها بيديها الصغيرتين المبلّلتين على اعتقاد راسخ بأن هذا الماء سيذهب عنها الرجس ويقيها شر الخجل من لحية[2] قبيحة كَثَّة[3] تنبت فى ذقنها وعارضيها . وكلما صاحت بها شرلوت : « حسبك ! حسبك ! » ضاعفت الابنة همها ، واستفرغت جهدها ، كأنها تعتقد أن الغسل الكثير أنقى من القليل وأبلغ

أوَ كذلك ياوليم انى لم أرَ فيما عشت تعميداً أفضل من هذا ولا أكمل . ولقد حدثت نفسى عند ماصعدت شرلوت أن أسجد لها كما أسجد لنبي كفَّر عن خطيئات شعبه

أخذتنى هزة السرور بهذا الحادث فما تمالكت أن أذعته فى مساء ذلك اليوم الى رجل كنت أظن أن له قلباً كما أن له رأساً فيقدر

---

(١) البارد (٢) من أساطير الاولين أن البنت اذا قبلها أجنبى نبت فى وجهها لحية كثيفة (٣) كثيفة

هذه السذاجة الانسانية حق قدرها . ولـكنى كنت واهماً فى زعمى ومخطئاً فى حكمى . فقد قال إن شرلوت قد ضلت ضلالا بعيداً ، وإن من الخطل أن نحق الباطل و نزين العاطل للأطفال ، و إن أمثال هذه الأقاصيص يفسح مجالا لأباطيل وتُرَّهات كان أولى بالمربى أن يقتلع جذورها من قلوبهم وهى غضة . . . تذكرت حينئذ أن هذا الرجل قد عمَّد (١) منذ ثمانية ايام ولداً من أولاده . . فضربت عن ذلك صفحاً وبقيت مؤمن القلب بهـذه الحقيقة ، وهى أن نعامل اطفالنا معاملة الله لنا ، فانا لانكون أسعد نفساً ، ولا أرغد عيشاً ، الا اذا تُركنا نهيم فى أودية الأحلام الواسعة ، ونعيش فى سكرة الأوهام الخادعة

٨ يوليو

لاجرم أنى طفل ! ما بال قلبى يهفو فى إثر نظرة ؟ لحقٌّ أنى طفل ! كنا ذاهبين الى وِلهم ، وكان السيدات قد خرجن فى مركبة ، ففى أثناء هذه النزهة رأيت يقيناً فى طرْف شرلوت الأدعج الساجى (٢) . . . عفواً أخى وصفحاً ! فانى مائق أحمق . كنت أريد أن ترى بعينيك عينيها . . لا أُطيل القول فقد دب فى جفنى الكرى . صعد النساء

---

(١) التعميد أول اسرار الدين المسيحى ، وهو غسل الصبى بالمـاء باسم الأب والابن وروح القدس . وفى ذكر هدا تهكم بالرجل كما لايخفى

(٢) الساكن

المركبة ووقف على بابها الفتى . و . . وسِلِسْتَاد وأدران ثم أنا . وأقبل النسوة على هؤلاء الفِتْيَة الهُوج الرقعاء يحادثنهن ، وطلبت نظرات شرلوت فوجدتها تنتقل من واحد الى آخر . اما انا ! انا الذى لم أشغل الا بها ، ولم افكر الا فيها فلم تتجه الىَّ ، ولم تقع علىَّ ؛ ولقد كرَّر قلبي لها الوداع الف مرة ، وهى لم تنظر الىّ مرة !

انطلقت المركبة فتغرغرت عيناى بالدمع وتبعها بصرى فرأيت رأس شرلوت بارزاً من باب المركبة . رأيتها تلتفت لتنظر ، فليت شعرى الى من تنظر ؟ أإلىّ تلتفت واياى تنظر ؟ عزيزى وليم ! أنا فى هذا الشك مضطرب متردد ، ولا عزاء لنفسى الا أن أقول لها : ربما تكون قد التفتت الىّ! ربما . . . . لِيَهْنِك النوم ياعزيزى، آه ! ما أجدرنى أن أُعد طفلاً !

١٠ يوليو

كنت أريد أن ترى وجهى كيف يغيره الحمق ويصوره اذا ما تكلم أحد عنها فى ملأ ، ولا سيما اذا سألنى انسان هل تعجبنى ؟ تعجبنى !! ما أثقل هذه الكلمة على سمعى ! كيف يكون رجلاً من تعجبه شرلوت فحسبُ دون أن تمتلىء بها قواه ومشاعره ؟ تعجبنى ! لقد سألنى بعضهم منذ قليل هل فى أسيان ما يعجبنى !

١١ يوليو

لا تزال زوجة السيد . م . تكابد غصص المرض وتقاسي لُهاث [(١)] الموت . وأنا أدعو الله أن يمسح عليها بيد العافية . فاني أتألم عما يؤلم شرلوت . أصبحت لا أرى الحبيبة الا نادراً عند احدى صواحبها، ولقد قصت عليّ اليوم هذه الحادثة الغريبة . وهي أن زوج المحتضرة رجل دنيء الحرص جماد الكف [(٢)] ، وقد جعل حياة امرأته بشحه وتقتيره سلسلة آلام ومجمع هموم . غير أنها لم تَعْدم مع ذلك وسيلة تعيش بها وادعة قانعة . فلما أعضل [(٣)] الداء ونكل [(٤)] الأطباء وزهفت [(٥)] الى الموت نادت زوجها على محضر من شرلوت وقالت له : « يجب أن أبوح لك بسر لو دفنته معي لأحدث بعد موتي ضرراً وبيلاً ، وشقاقا طويلاً ، : لقد دبرت منزلك منذ وليته الى الآن بما استطعت من ترتيب وتوفير وحكمة؛ بَيْدَ أني أستميحك العفو عن خداعي لك وغشي اياك ثلاثين عاماً . انك لم تخصص في العهد الأول من قراننا الا مبلغا زهيداً من المال نفقةً لطعامنا وقضاء لحاجتنا . فلما اتسع نطاقنا وكثرت نفقاتنا عجزتُ عن اقناعك بزيادة النفقة الأسبوعية. وجملة القول انك طلبت مني أن أقيم أوَدَك وأسد عوزك ، على ازدياد نفقاتك ، وكثرة

---

(١) شدته وكربه (٢) بخيل (٣) استعصى
(٤) عجزوا (٥) دنت منه

طلباتك ، بسبع فلورينات [1] فى الاسبوع . كنت أرضى بذلك القدر مكرهة اجابة لطلبك ، واجتنابا لغضبك ، ولكن ما يعوزنى من نفقة الأسبوع كنت آخذه بيدى من كيسك معتقدة أن ذلك لا يدخل فى باب السرقة

أنا ما بذرت ولا أسرفت . وقد اعترفت لك بهذا الأمر لا لأنه جريمة أخشى لقاء الله بها وعقابه عليها ، فانى راضية عن نفسى ، مستريحة لعملى ، ولكنى خشيت أن تقول للمرأة التى ستخلفنى فى تدبيرك إذا فدحها الأمر وأعيتها الحيلة : إن امرأتك الأولى كانت راضية بذلك القدر قانعة به

حادثت شرلوت ملياً فى أمر الأنسان وعمايته المفرطة . يرى سبع فلورينات تقضى حاجة بيت جاوزت نفقاته الضعف ولا يجد فى الأمر شيئاً يستريبه وينكره ! على أن فى الناس من يعتقد أن معجزة بعض الأنبياء فى جرّة الزيت التى لا تنزح ولا تنفد قد انتقلت اليهم ، وتجددت لديهم ! !

١٣ يوليو

كلا ، لم أك مخدوعاً . فقد قرأت فى عينيها الدعجاوين عطفها علىّ وعنايتها بأمرى . أجل ! إنى أشعر — وقلبى لا يتّهم فى ذلك ولا

(١) الفلورينة نقد نمساوى يساوى فرنكين وعشرة سنتيمات

يمين[١] — أنها .... أأجرؤ على النطق بهذه الكلمة التى تضمنت نعيم الحياة وسعادة الجنة ؟ إنها تحبنى ! أذلك مايتوهمه قلبي ويدعيه، أم هو الشعور الحق لا ريب فيه ؟ أنا لا أعلم رجلاً يستطيع أن يغلبنى على حبها ، أو يعبث بى فى قلبها . على أنها اذا حدثتنى عن ألبير بما شاء الله من حب أكيد وشوق شديد ، أخذنى ما يأخذ القائد الرغيب[٢] العين الطموح النفس اذا حُط من مقامه ، وجرد من وسامه ، وأرغم على تسليم حسامه !

١٦ يوليو

آه ! ما هذه النار التى تتمشى فى أعضائى كلما اتفق أن مست يدى يدها أو لمست قدمى قدمها تحت المنضدة ؟ أنى أجتذب يدى منها سريعاً كأنما لذعتها جمرة متقدة ! ثم لاتلبث قوة خفية أن تدفعنى ثانيـة اليها . ما أعظم الدُّوار الذى استقل مشاعرى ، واستولى على سائرى ! ولـكن نفسها البريئة النقية تجهل ماتجر على هذه المداعبات القليلة من الأذى والمضرة . اذا تحدثت الىّ وضعت يدها على يدى ، فاذا ما استمر الحديث اقتربت منى حتى أجد نفحات أنفاسها السماوية على شفتى ... هنـاك يخيل الى أن جسمى يتصدع ويذوب كأنما صعقته صاعقة

---

(١) يكذب (٢) الطامع

هل أفكر يوماً ما ياوليم أن أدنس تلك العفـة وأخون هذه الثقة ؟ حاشاى أن أفعل ! فلست خبيث الدِّخْلَة فاسد القلب إلى هذا الحد. نعم إن قلبي ضعيف جد ضعيف . . . ولـكن ليت شعرى لم لا يكون ضعفه من فساده !

أنى أجلها وأقدسها . فاذا كنت معها سكنت رغباتى ، وفنيت نزعاتى . ثم لا أدرى فى أية حال أكون اذا دانيتهـا : تكون نفسى حائرة مضطربة ، وأعصابى هائجة منقلبة

إنها تعرف لحناً من ألحان الموسيقى توقعه على البيان بما شاء الله من قدرة وسذاجة وتأثير . ذلك لحنها المختار اذا ما ابتدأت توقعـه سكنت آلامى ، وتبددت وساوسى وأوهامى

ليس شيء بعد ذلك فيما ذكره القدماء عن تأثير الموسيقى وفعلها الساحر بمتَّهم عندى ولا مدخول ما أفعل هذا اللحن بقلبى ! وما أقدرها على اختيار الوقت المناسب لتوقيعه ! إنها توقعه ساعة لا أرجو الراحة والسكون إلا فى الموت ، فتنجلى ظلمـات قلبى ، وتذهب ضلالات فكرى ، وأردد أنفاسى وادعاً طايقاً

١٨ يوليو

وليم ! ماقيمة العالم بأسره فى نظر القلب ، إذا ما خلا من نعمة الحب ؟ إنه يكون أشبه بالفانوس السحرى من غير ضوء . فاذا

ما أدخلت فيه المصباح لاتلبث أن ترى صوراً جمة الألوان على الحائط الأبيض، وترانا وإن لم نجد غير تلك الأشباح الزائلة ، والأخيلة الباطلة نسعد بالوقوف عليها ، والنظر اليها ، كالأطفال ذوى القلوب الفتيَّة الغضة تبهرهم تلك الرؤى العجيبة ، والصور الغريبة !

لم أستطع الذهاب هذا اليوم إلى شرلوت،لأن جماعة ضربوا الى موعداً لاقبل لى بإخلافه ، فأرسلت اليها خادمى لا لشيء سوى أن يكون بجانبى من دنا منها ونظر اليها هذا اليوم . لبثت أنتظره على أحر من الجمر ، فلما رأيته عائداً استطارنى الفرح وهممت أن أعانقه لولا أن قعد بى الحياء ومنعنى الخجل

لقد كان فيما زعم الناس أن حجر بولونيا إذا عرض للشمس اقتبس من أنوارها واختلس من أشعتها حتى ليبقى هزيعاً من الليل مضيئاً. وتلك كانت حال هذا الخادم معى ، فان شعورى بأن عينيها وقعتا على وجهه ووجنتيه وأزرار ثوبه وطوق عباءته، جعل هذه الاشياء فى عينى ثمينـة مقدسة ، وأنزله من قلبي منزلة سامية ، حتى لتأبى نفسى فى تلك اللحظة أن أبيعه بألف دينار . يا لله ! كم كنت سعيد النفس بحضوره !

رَبأ الله بك يا وليم عن الضحك من هذه الأشياء ، وحماك من نقيصة السخر والاستهزاء . وهل تنكر أن مايسعد نفوسنا، ويذهب بؤوسنا ، ليس الا أخيْلة طائفة ، وأشباحاً هاتفة ؟

١٩ يوليو

أول ما أهتف به فى الصباح هذه الجملة : « سأذهب لأراها » ومنذ أنهض من منامى وتستقبل عيناى أشعة الشمس الجميلة لا أجد لى طول النهار مبتغى ولا متمنى غير أن أراها . تجمع ما أتمناه فى هذه الأمنيَّة ، وتحقق ما أبغيـه فى هذا الرجاء ، فلم يبق لى ما آمله ولا ما أرجوه

٢٠ يوليو

ترى لى أن أصحب السفير إلى ڤينَّا ، وعزيز علىَّ أن أصير الى ما ترى . لا أحب أن أكون تابعاً ، وفوق ذلك فكلنا يعلم أن ذلك الرجل كريه بغيض . تقول إن أمى تريد أن ترانى مشـغولا ؟ . أمر مضحك ! وهل أنا خلٍ ياصديقى ؟ ألم أكن الآن مشغولا ؛ وأى فرق فى الواقع بين أنْ أقشر بِسِلَّى أو باقِلَّى ؟ كل ما فى العالم يؤدى إلى غاية دنيا حقيرة . فمن ينهك نفسه بالعمـل فى اكتساب المـال أو الجاه ابتغاء مرضاة الناس لا اتباعاً لأهوائه ورغائبه ، ولا قضاء لأغراضه ومآربه ، فقد ضل ضلالاً بعيداً ، وخسر خسراناً مبيناً

٢٤ يوليو

أراك تحرص على أن أرهف للتصوير عزمى ، وأحسر له عن يدى ، وذلك ما يحدونى إلى طى الحديث عنه ، حتى لا أعترف لك أنى ما أحدثت منذ بعيد شيئاً يذكر

ما رأيتنى كاليوم أسعد بالحياة نفساً ، ولا أتم بالوجود علماً ، ولا أصح للطبيعة فهماً ؛ تغلغل فكرى فى أعماق الكون ، من الجبل الى الحصاة ، ومن الدوحة إلى العشبة ، وأرانى مع ذلك إذا حاولت الشرح والبيان التاث[1] الأمر علىّ ووجدت القول فيه وراء الطاقة وفوق الامكان . . . ذلك لأن ملكة التعبير أدركها الوهن والعجز حتى لتمرُّ الأشياء بنفسى مرور الطيف خفّاقة مضطربة لا أستطيع أن أقنص منها حرفاً ، ولا أن أعرف لها وصفاً . ويخيل الىّ انى لو أُوتيت بصلصال[2] أوشمع لصورت بيدى مايجول بخاطرى ، وتحسه مشاعرى . ولو استمر مابى على حاله لاتخذت الطين ثم صورته . . ولولم أصنع منه الا كُرَات وفرازِق ![3]

حاولت ثلاث مرات أن أُصور شرلوت فأخفق ويضرج وجهى الخجل ، ثم يعترينى فضلاً عن ذلك همٌّ وكآبة ، لانى كنت قبل

---

(١) التاث الأمر : صعب (٢) الصلصال : الطين (٣) اقراص

اليوم أرسم التشابه بحذق وتوفيق وسهولة . فلما أعيانى الأمر رسمت وجهها رسماً تقريبيًّا واضطررت أن أقنع به

٢٥ يوليو

نعم ياشرلوت ونَعَامَ عين ! سأصْدُقك السعى فيما كلفتنِى ، وأكفيكِ من حاجتك ما استكفيتنى ، فلا تخشى أن تحمّلينى من أمورك غير هذا فانى خفيف إلى مبتغاك ، سريع إلى رضاك ، ولا أسألك على ذلك شيئًا إلا أن تُعفِى رسائلك الىَّ من تجفيفها بالرمل ؛ فان رسالة اليوم رفعتها بقوة إلى شفتى فانْجَرس الرمل تحت أسنانى ، ودهانى من ضَرَسها مادهانى !

٢٦ يوليو

كثيراً ما عاهدت نفسى ألاّ أزداد منها قرباً ، وألا أزورها الا غبًّا . ولكن من يستطيع أن يفى بهذا العهد ، ويَصدُق فى هذا الوعد ؟ لقد يحدث كل يوم أن أقع فى المحظور فأذهب اليها مُقْسما جَهد اليمين ألا أبرح المنزل غداً . فاذا جاء الغد لا أعدم سبباً قاهراً يبرر زيارتها ويستدعى لقاءها ، فأجد نفسى بجانبها قبل أن أفكر فى السبب . أويحدث انها تقول لى فى المساء : « أما أراك غداً ؟ » ومن ذا الذى بعد ذلك يطيق دفاعاً ، أو يستطيع امتناعاً ؟ أو تُحملنى رسالة

فأرى الأنسب أن أحمل اليها الجواب بنفسى ، أوأجد السماء صحواً والهواء رَخواً فآخذ الطريق الى وِلْهم . فاذا ما كنت هناك لايكون بينى وبينها الا نصف فرسخ . انى إذن أكون شديد الاقتراب من جوها ومدارها فتجذبنى فأرى نفسى فجأة بين يديها

لقد كانت جدتى تحدثنى عن جبل المغناطيس أن السفن اذا اشتد دنوها منه طارت اليه دُسُرُها [1] وحدائدها وخلفت الملاحين فى يد الموت صرعى بين الامواج المترامية ، والألواح المتداعية

٣٠ يوليو

عاد ألبير فليس لى الا الرحيل . فان وراء احتمالى أن أراه أمام عينى يملك هذا الجمال الفاتن والكمال الرائع مهما كان أعظم الناس خطراً فى عينى ، وأجلهم موقعاً من قلبى ، وأجدرهم باجلالى وحبى . أجل يملكها ياوليم وحسبك ذلك ! انه خطيبها وقد أقبل . وهو رجل سَرِىّ الاخلاق طيب القلب قد خلا مما يصرف القلوب عنه ، وينفر الطباع منه . والحمد لله لم أشهد ساعة استقباله ، فقد كان ذلك يورثنى حزناً يذيب لفائف القلب . على أن الرجل بلغت به سراوة الخلق ألا يُقبّل شرلوت على محضر منى . وتلك يد لا يستقل بثوابها غير فضل الله . إن ما يبديه الى شرلوت من مظاهر الاعظام والتجلّة ليدفعنى

(١) جمع دسار وهو المسمار

الى حبه واكرامه . أما مايظهره من العطف عليّ والميل اليّ فليس على ما أظن صادراً عن قلبه ولا ناقلاً عن شعوره ، وانما ذلك عمل من أعمال شرلوت . والنساء في مثل هذه الامور أنفذ بصائر وأبعد مدارك . ولهن الحق في ذلك ، فأنهن متى قدرن أن يجمعن رجلين من صرعى غرامهن بأواصر المودة كانت ألفتهما أنفع لهن وأعود عليهن ، وان كان ذلك لايقع الا ندوراً

لا يسعني أحياناً الا أن أجلّ هذا الرجل وأكبره ، فاني واياه في الطبع على طرفي نقيض . هو واسع الخلق رحب الأناة ، وأنا نزق الطبع طائش الحلم ، لاأملك من نفسي ما يملك من نفسه ، ولكنه رقيق الشعور لطيف الوجدان يعرف قيمة شرلوت ويقدرها قدرها ، ويظهر أنه قليل الخضوع لسلطان ذلك العيب الذي لا أغفره دون سائر العيوب وهو انقباض النفس

إنه يعتقد فيّ ذكاء القلب وصفاء الذوق ، فلمارآني أتعلق شرلوت وأطرب لكل ماتفعله ، زهاه النصر ولجّ به الفخر وازداد لها حباً وبها ولوعاً

أنا لا أبحث إن كان يؤلمها أحياناً بسخافة الغيرة أو لا يؤلمها . فاني لو كنت مكانه لما سلمت من نزغات هذا الشيطان ، ولما نجوت من شر هذا الخلق

ومهما يكن من شيء فأن سعادتي بقربها قد استرجعتها الأيام

فلم تعد الاذِكْرَى . قل لى بربك ماذا أسمى ذلك ؟ أجنونا أسميهِ أم عمى ؟ وماذا تفيد الاسماء أو تنفع الالقاب والشيء دالٌّ على نفسه بنفسه ؟ كنت أعلم قبل قدوم ألْبير كل ما أعلمهُ اليوم . كنت أعلم أن ليس لى فيها ولن تكون لى فيها رَجية ولا أمل . . وكنت أحبس رغبات نفسى ما استطعت كلما أثارتها رؤية هذا الحسن الرائع والجمال الفاتن . . . وترانى الآن أنظر نظر المائق [1] المشدوه ، وأعجب عجب الأحمق المعتوه ، لأن ألْبير جاء بالفعل يسترد أمانته ، ويسترجع غادته ! ! لقد بتُّ أحَرِّق [2] الأُرَّمَ على جَدى العاثر وحظى المنكود ، وأحنق أضعاف ذلك على الذين يريدونى على أن أذعن لأحكام القدر ما دمت لا أملك لدفعها حيلة ، ولا أعرف لتغييرها وسيلة . ألاَ بُعداً لأولئك الخاطلين وسحقا !

أرُود مسارح الوادى ، وأجوس خلال الغاب ، حتى اذا دانيت عريش البستان ووجدت شرلوت والى جانبها ألْبير خذلتنى قواى ، وثقلت علىَّ رجلاى ، وأخذنى من الطرب ما يأخذ الملموم [3] ، وأصابنى من الهذيان ما يصيب المحموم ، فآتى من سفساف القول وسخف الفعل فنوناً وضروباً . حتى قالت لى الغداةَ شرلوت : « نشدتك الله إلا ما أقلعت عن مثل ما فعلت بالأمس . إنك بمثل

---

(١) الاحمق (٢) أحرق الأرم je grince des dents أى تعيظ فحك اضراسه بعضها ببعض (٣) الملموم من أصابه اللمم وهو طرف من الجنون

هذا الفرح تملأ قلبي رعباً» ولـكنى اصارحك — والامر بينى و بينك أنى أرتقب ساعة يخرج ألبير الى عمله فأسرع اليها . ولاتسل عما أجد من برد السرور ولذة السعادة اذا وجدتها فى المنزل وحيدة

٨ اغسطس

عفوا ياوليم وصفحا ! ما كان يدور فى خلَدى حين قلت ماقلت فى أولئك الذين يريدوننا على أن نذعن لأحكام القدر أنك تتابعهم على هذا الرأى . وحقيقة الأمر أنك مصيب . بيْد أن لى عليك اعتراضاً وهو ان من النادر ان تجد الحوادث والأشياء فى هذا العالم محدودة الفروق خاضعة لقانون « *نعم* » او « *لا* » على اطلاقه . فان الفرق بين العواطف وطرائق العمل كالفرق بين الأنف الأقنى والأنف الأفطس . لعلك لاتنقم منى — وقد قبلت مبدأك — ان احاول التخلص من برهانك القاطع ذى الحدين المتباينين : « *نعم* » او « *لا* »

تقول اما ان اكون على امل من شرلوت او على يأس ، فان تكن الأولى فأولى بى أن أسير فى طريقها . وأسعى الى تحقيقها . وإن تكن الأخرى فخير لى أن أُمضى العزم على الافلات من رِبقة هذه العاطفة المشئومة التى ستنهك قواى وتطفىء سراج حياتى

هذا كلام يستخفه اللسان ، وتسيغه الآذان ، ولكن بينه و بين العمل مسافة بعيدة . هل تستطيع أن تحمل عليلا يذو يه الداء و يَضْو يه فى دُءوب و بطء على أن يضع فى الحال حدا لأسقامه وآلامه بطعنة

خنجر ؟ أن ذلك الداء الذى أوضعه وأضرعه قد سلبه فيما سلب قوة العزيمة على الخلاص منه

تستطيع أن ترد علىّ بتشبيه منطبق على هذه الحال ، وهو أنا لا نعرف رجلا تبلغ به الغفلة أن يتردد فى بتر ذراعه اذا كان بقاؤها يشفى به على الخطر ويهجم به على الموت . أنا كذلك لا أعرف هذا الرجل ، ولكننا لا نتقارع بالتشابيه ولا نتجادل بالأمثال وحسبك ذلك.

نعم ياولىم ، لقد تمر بى لحظات أشعر فيها بالقدرة على وضع ذلك العبء الذى أنقض ظهرى وناء به ، ولو كنت أدرى أين أذهب لذهبت ، ولكنى لا أعلم لى مغدًى ولا مراحاً .

في مساء اليوم نفسه

وقعت اليوم فى يدى مذكرتى اليومية بعد أن أهملتها زمناً ، فأدهشنى أن أرانى أتقدم فى هذه الطريق خطوة خطوة على بصيرة وإدراك ! وأعجب العجب انى أرى حاضر أمرى وحرج موقفى ثم لا أسلك إلا مسلك الصبّية الأغرار ! وهأنذا اليوم أبصر حالى وأعرف مآلى ثم لا أجد فى ظواهرى مايدل على تحسن واصلاح !

١٠ أغسطس

كان من الميسور لو لم أكن مُحَمَّقاً مأفوناً أن أعيش عيشة رغيدة، وأن أحيا حياة سعيدة . ذلك لأن من النادر أن يجتمع لامرىءٍ ما اجتمع

لى الآن من أسباب المسرة ووسائل الأنس . ولـكن وا أسفاه ! إن سعادة القلب لا تتعلق إلا به ، ولا تطلب الا منه ، ولا توجد إلا فيه . فأنا عضو فى أسرة من كرائم الأسر ، يحنو علىَّ الوالد حنوه على ولده ، ويجلنى الأبناء إجلالهم لوالدهم ، وتحبنى شرلوت . . . . ويودنى ألبير ذلك الرجل العظيم الذى خالصنى الود وصادقنى الإخاء فلا يكدر صفوى بإدلاله ، ولا يؤلم نفسى باغفاله ، ولا يختص بحبه بعد شرلوت سواى . الا أنى مع كل هذا أرى بينى وبين سعادة النفس أمداً بعيداً

وليم ! انه ليسرك وايم الله أن تسمع إلىَّ وإلى ألبير ونحن نتحدث عن شرلوت أثناء النزهة . فلا يتصور متصور موقفاً هو أبعث على الضحك من موقفينا . ولـكنه على ذلك طالما استدرَّ شئونى واستوكف دموعى

حدثنى عن أم شراوت وقص علىَّ نبأها وهى فى سياق الموت تلقى زمام البيت ومقاليد الاطفال الى ابنتها ، وتجعلها هى فى ذمة ألبير وعهده ؛ وذكر كيف خُلقت شرلوت منذ يومئذ خَلقاً جديداً ، وأصبحت بفضل عنايتها بتدبير بيتها واهتمامها بتربية اخوتهـا أماً حقيقية لا تنفق دقيقة واحدة من حياتهـا فى غير ملاطفة أطفالها ، أو مزاولة عمل من أعمالها ، دون أن تفقد شيئاً من بشاشتها واسجاح خليقتها . كان يحدثنى بكل ذلك وأنا أسير إلى جانبيه أقطف الأزهار من حفافَى الطريق وأؤلف منها طاقة جميلة ثم . . . أطرحها فى النهر

الذى يتدفق أمامنا فتذهب مع التيار راقصة مُرْجَحنّة . . .

لا أدرى أقلت لك ان ألبير باق هنا أم نسيت . أنه حصل بفضل زُلفاه لدى بلاط الأمير على عمل مُرْبح فى وَلهِمَ . والحق أن ألبير قد انفرد عن مواقف النظراء فى جودة العمل ، ودقة النظام ، وحب المثابرة

١٢ أغسطس

من الحق انْ ليس فيمن تقله الغبراء أطيب قلباً ولا أنبل نفساً من ألبير . لقد كان بينى وبينه بالأمس مشهد غريب ، وذلك أن نفسى سولت الىّ أن أجول جولة على ظهر الجواد فى الجبل (حيث اكتب اليك الآن) فذهبت الى ألبير أستأذنه وأودعهُ . وبينما أصّعد النظر فى غرفته وأصو به اذ لمحت عيناى على الحائط غدارتين . فطلبت اليه أن يعيرنى إياهما لأتسلح بهما فى جولتى . فقال لى : «هما بين يديك ، غير أنهما فارغتان ؛ فاذا شئت أن تحشوهما ، فانى لا أقتنيهما الاصورة فحسب » فتناولت احداهما واستمر ألبير يقول : « أخذت على نفسى ألا أدع غدارتى محشوة منذ وقع لى من جرّاء ذلك ما وقع » .

فاستشرفتْ نفسى الى أن يقص علىَّ ذلك الحادث فقال :

« قضيت ثلاثة شهور فى أسرة صديق لى فى الريف ، وكان فى حوزتى غدارتان تركتهما فارغتين لقلة الحاجة اليهما . ففى عصر يوم من

الأيام مطير تمثل فى خاطرى لسبب لا أعلمه أن داهماً سيدهمنا الليلة ، وأنا سنحتاج الى الغدارتين . فدفعتهما الى الغلام ليجلوهما ويحشوهما . فلما فرغ من عمله صوب الغدارة الى فتاة خادم يريد أن يخيفها مزاحاً ودعابة . فقضى الله أن تنطلق الغدارة وتصيب يمنى الفتاة فتذهب بابهامها . فلقيتُ ما لقيت من عويل الفتاة وشكواها ثم غرمت ثمن العلاج للجراح فكان ضغثاً على إبَّالة [1]. فعاهدت الله ألا أدع فى بيتى سلاحاً محشواً بعد الساعة . . . ولكن ماذا تنفع الحيطة أو يدفع الحذر والله قد حجب عنا علمه فما تدرى نفس ما يخبأ لها الغيب من مقدور الخطر؟ ولكن . . . »

ستعلم أنى أحب هذا الرجل وأجله الا اذا أخذ يكرر لاكنّاته [2] ويكثر من استدراكاته واستثناءاته . لا أنكر أن لكل قاعدة شواذ ، ولكنه رجل صدوق عدل يضن بالحق أن يمسخ أو يشوه ، فاذا ما ظن أنه هجم بالكلام من غير تريث ، أو ألقى الخبر على رُسَيْلاته [3] من غير تثبُّت، أقبل يحدده ويحوِّره ، فيحذف منه ويضيف اليه حتى لا يكاد يدع من الفكرة الأولى شيئاً

وجد الفرصة سانحة ومجال القول واسعاً فدقق البحث وعمق الموضوع على عادته . فتركته يقول وأسلمت نفسى لبلابل الصدر

---

(١) بلية على بلية . والضغث قبضة من الحشيش أو قضبان صغار . والابالة الحزمة الكبيرة من الحطب (٢) جمع لكن توسعا (٣) تهاون به

وهواجس الهم ثم انتبهت مذعوراً فصوبت فوهة الغدارة الى مافوق عينى اليمنى من الجبهة

لفتت هذه الحركة الباغتة نظر ألبير الىّ فوضع الغدارة من يدى وقال لى ممتعضاً : ما معنى هذا ؟ فقلت له إنها غير محشوة . فقال لى : ولو كانت كذلك فما معنى هذا ؟ أنا لا أستطيع أن أتخيل انساناً يبلغ به الحمق والعَتَهُ أن يمزق دماغه برصاصة . إن هذه الفكرة وحدها تُشعر قلبي خشية وفزعاً

فصحت به قائلا : ما بالكم أيها الناس لا تكادون تذكرون شيئاً الا اذا قلتم : هذا حمق وذاك عقل ، وهذا طيب وذلك خبيث ؟ ما نفع هذه الكلمات وما جداؤها ؟ هل استبطنتم دخائل النفوس واستخرجتم مخبآت الامور ؟ أم هل استجليتم غوامض الأسباب التى أنتجت هذه الأعمال وجعلتها قضاء لا مرد له ولا محيص منه ؟ انكم لو فعلتم ذلك لما تسرعتم فى الحكم ولا تعرضتم للخطأ

فقال ألْبير : لعلك توافقنى على أن من الأعمال ما يعد جناية مهما كانت الأسباب التى بعثت عليه ودفعت اليه . فسلمت اليه قوله اقتناعاً به ، ولكننى عقبت عليه قائلا : انى لأجد كذلك لهذه القاعدة شواذ . فالسرقة جريمة ، ولكن الرجل الذى وجد أهله وبنيه يتضاغون (١) من الجوع ، ويترامون فى أحضان المنية من السغوب (٢) ، فدفعته

(١) يتضورون ويصيحون (٢) شدة الجوع

الرغبة فى انقاذهم الى السرقة ، يستحق الرحمة ولا يستوجب العقوبة . من ذا الذى يبتدر بالوقيعة رجلا رأى بعينه المنكر على فراشه فملكته سَوْرة الغضب وازدهته نشوة الحميّة فقتل الزوجة الخائنة والمغوى الدنىء ! ! ومن ذا يكون أول الراجمين فتاة استسلمت لمحظور الغرام ومقدوره وهى فى عماية اللذة وسكرة الحب ! ! إن قوانيننا نفسها وهى المتحذلقة المتصلبة تدركها الرحمة فى مثل هذه الأحوال فتعلق الحكم وتغمد سيف العدل

فقال ألْبير : هذا شىء آخر يختلف كل الاختلاف عما تقول : فأن الرجل الذى يتملك هواه قياده ، يسلبه عقله ورشاده ، وإذن لا ننظر اليه الا كما ننظر الى سكران أو مجنون

فصحت به باسماً : لله أنتم أيها العقلاء والأخلاقيون ! تظلون هادئين جامدين أمام الهوى والسكر والجنون . تؤنبون السكير بلسان السخرية ، وتَدُعّون (١) المجنون بيد المقت ، وتتحامون جانبه وتصدون عن سبيله فعْلَ الكاهن ، وتحمدون الله حمد الفَرِيسىّ (٢) على أن خلقكم على غير شاكلة هؤلاء الناس

لقد سكرت غير مرة ، وكانت أهوائى فى كل سكرة تمتّ

---

(١) تدفعونه بعنف (٢) الفريسيون فرقة من بنى اسرائيل كانوا زمن المسيح يتشددون فى الدين ويتظاهرون بالورع رياء ومخادعة فكشف سترهم وأعلن نفاقهم

الى الجنون بسبب ، ولم يُعقبنى ما فعلت خجلاً ولا ندماً . بل استطعت أن أفهم الى حد محدود كيف اضطر بعض الناس فى كل زمان أن يرموا الأفذاذ والنابغين بالسكر والجنون اذا قاموا بأعمال عظيمة كان من المظنون ألا تصل اليها قدرة وألا يعلق بها سبب

كذلك فى الحياة العادية لاتجد أثقل على الأسماع ولا أشق على النفوس من أن يقول الناس كلما رأوا رجلاً قام بعمل خطير أو نبيل أو مفاجىء : هذا سكران ! هذا مجنون !

ألاَ إن أولى الناس بالخجل لَأولئك الذين صاموا عن العمل ولم يفطروا ، وسموا العجز عقلاً حين هموا ولم يقدروا !

فقال ألْبير . تلك احدى ترّهاتك ، وصورة باطلة من تصوراتك . انك تبالغ فى كل شىء ؛ ولقد أخطأت هـذه المرة على الأقل فى موازنتك الانتحار وهو موضوع الحديث بالأعمال العظيمة ؛ وهيهات أن يعده الناس الاخوراً وضعفاً ، فان أسهل على المرء أن يذوق الموت مرة ، من أن يتحمل طويلاً آلام الحياة المرة

هممت أن أقطع سلسلة الحديث لولا أن ملكت نفسى ورددتها على ما تكره . فانه لا شىء أملأ لجوفى غيظاً من أن يبادرنى المخاطب برأى مستعار لا يسفر عن معنى ولا يُجَلّى عن غرض ، على حين ينبعث كلامى اليه من سويداء قلبي وأعماق ضميرى ! على أن ذلك ليس بدْعاً من الأمر فلقد سمعت كثيراً وغضبت كثيراً فما نفع السكوت ولا أجدى الغضب .

رددت على ألْبير فى شىء من الحدة قلت له : أتدعو ذلك خوراً وضعفاً ؟ أنى أعيذك بالله أن يخدعك ظاهر الأمر . هل تستطيع أن تتهم بالضعف شعباً يرسف فى قيود الاستبداد ، ويئن تحت نير الاستعباد ، اذا انفجر فى وجه المستبد فكسر أغلاله وقطع سلاسله ؟ أم هل تجرؤ على أن تَصِم بالوهن رجلا راعه أن يرى بيته طعمة للنار فاستجمع قواه وحمل من الاثقال ما يعجز عن تحريكه وهو آمن هادىء ؟ بل كيف يكون خواراً ضعيفاً من أهين فى نفسه ، فعصفت النخوة فى رأسه ، وأخرجه الغضب عن طوره ، فحمل على ستة أقران فنثرهم على الارض نثراً ؟ فاذا كان من يوتِّر القوس يدعى قوياً ، فلِمَ يسمى ضعيفاً من يقطعها ؟ واذا كان الجهد العظيم دليلا على القوة ، فكيف يكون الجهد المضطرم الحاد دليلا على الضعف ؟

فرشقنى ألْبير بنظرة ثم قال : خفض عليك فليس فى الأمر ما يغضب . إن المُثُلَ التى سردتها ليست على ما أظن فى محلها . فقلت له : ذلك ممكن ! ولطالما نُعى علىَّ أنى أبرهن الاشياء بطريقة أقرب الى الهراء والهذَر . فلننظر بعدُ اذا كنا نستطيع أن نَخْبُر بطريقة أخرى سرما يهجس فى خاطر المنتحر حينما يعقد النية على أن يلقى عبء الحياة عنه وهو على الجملة مقبول الحمل محمول الثقل . فان من الصعب أن نتكلم بعدل ودقة عن عواطف لانجيد فهمها ، ولانستبطن كنهها .

إن الطبيعة البشرية محدودة ، فلا تتحمل السرور والحزن والألم

الا بقدَر . فاذا سيمتْ فوق ما تطيق ، وحُمِّلتْ أكثر مما تستطيع ، فَدَحها الحمل وأدركَها الاعياء فترزح [1] . فليس الغرض اذن أن نعرف الرجل أقوى هو أم ضعيف ، وانما سبيلنا أن نعرف هل يقوى على أن يتحمل مقدار الألم ، وسواء عندنا أكان ذلك الألم ماديًا أم أدبيًا

وقُصارى القول انى أجد من الغريب أن يسمى جبانًا من قتل نفسه ، ولا يسمى كذلك من قتلته حمى خبيثة !

وكان حالهما فى الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا الى حكَم

فصاح ألبير قائلا : لقد رأيت رأيًا بديعًا [2] ، وخالفت فيه الناس جميعًا . فقلت له : ليس الخلاف على قدرما تظن ، فانا متفقان ولا ريب على أنهم أطلقوا الداء الثُّبات [3] على كل مرض ينهك الجسم ، ويهد القوى ، ويحل العزيمة ، ويدع المريض وقيذًا [4] لا يثوب اليه جسمه ، ولا يعود بأية حال عزمه . فلنطبق حال الجسم على حال الفكر ، ولننظر الى الرجل وقد ضاقت حدود فكره ، وحصرت قوى عقله ، كيف تؤثر فى ذهنه الانفعالات ، وتستقر به الأفكار ، وتتصرف به العواطف حتى ينبعث من قلبه هوى لايزال يعظم ويقوى حتى يحرمه نعمة الهدوء ويسلبه قوة التفكير ، ويفضى به إلى الموت

ان من العبث أن يحاول العقل الهادىء شرح هذه الحال أو

---

(١) تسقط اعياء (٢) مبتكرًا يخالف ما عليه الناس (٣) المعجز عن الحركة (٤) مستفيا على الموت

للطبيعة من ذلك التيه الذى تتصارع فيه القوى وتتنازع فيه الطبائع . لذلك كان الموت أمرا محتوما لادافع له ولا وعى منه

يا بؤس للقائل حين يرى هذه البائسة فى وسط اللجة : « يالها من حمقاء ! كان خيراً لها ان تنتظر ؛ فان الزمن بلسم القلوب الدامية ، ولو عرفت (١) لهذا الخطب لتبدد يأسها ، وتجدد أنسها ، ووجدت فى الناس المخلص الأمين ! » ذلك ولا ريب أشبه بقول القائل : « ما أشد حماقة من يموت بالحمى ! لو انتظر حتى ثابت اليه قواه ، وطهرت أخلاط جسمه ، وسكن فوران دمه ، لكان اليوم حياً يرزق ! »

لم ير ألبير تشبيهى واضحاً جلياً ، فوجه الىّ بعض اعتراضات منها أنى لم أتكلم الاعن فتاة ساذجة جاهلة ، وأنه لايستطيع أن يفهم كيف يعذر فى مثل هذه الحال رجل ذو حصاة (٢) ولب يعيش فى دائرة أوسع ، ويدرك بثاقب رأيه وبُعد نظره حقائق الأشياء وعلائقها

فقلت له ياصاح : إن الانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان ، وإن قليل الذكاء الذى أُوتيه لا يغنى عنه فتيلاً اذا ما تحكم هواه وهاجت ميوله ورأى نفسه محصوراً فى حدود الانسانية ومآزقها . وأكثر من ذلك أن . . . لِنَدَعْ بقية الكلام الى مرة أخرى . ثم أخذت قبعتى ونهضت والقلب مفعم زاخر ثم افترقنا وكلانا لا يفهم صاحبه . وكذلك الناس فى هذا العالم قلما يفهم بعضهم بعضاً

---

(١) عرفت لهذا الخطب : صبرت وتجلدت (٢) عقل

٢٥ أغسطس

ليس فى العالم ما يجعل الانسان ضرورياً لأخيه الانسان الا المودة . أشعر الشعور كله أن شرلوت كان يحزنها فقدى ، وأن أطفالها ما كانوا يفكرون الا فى عودتى اليهم بعد الغد

ذهبت اليوم الى شرلوت أصلح بيَانها فلم أستطع أن أتم العمل ، لأن الأطفال أرادونى على أن أقص عليهم حكاية من حكايات الجان ، وشرلوت نفسها طلبت الىّ أن أسرهم وأرضيهم ، فقطّعتُ لهم خبز عصورهم (وقد أصبحوا يفضلون تناوله من يدى على تناوله من يد شرلوت) ثم قصصت عليهم حكاية « **الاميرة المخدومة بأيد مسحورة** » وهى من أحسن القِصص وأغرب الأنباء . وأؤكد لك ياصديقى انى تعلمت من ذلك القصص شيئاً كثيراً. وقد أدهشنى وأثار عجبي ما أرى من تأثير ذلك فيهم وسلطانه عليهم ، حتى اذا ما اضطرنى النسيان الى الاختلاق أو التزيّد فحكيت الحادثة على غير وجهها الأول قالوا : لقد رويتها من قبل على غير هذا النمط . فأنا أروض نفسى الآن على أن أسرد الحكاية سرداً دون تغيير ولاتحوير كما تسرد حبات المِسْبحة . دلنى ذلك على أن المؤلف الذى يتناول فصته فى طبعتها الثانية بالتصحيح والتنقيح انما يضر عمله ولا ينفعه ، ويخفض قدره ولا يرفعه . فان الطبعة الأولى صادفت نفوسنا وهى طيّعة مستعدة ، والناس جبلوا على أن يصدقوا ما لا يصدّق ، ويعتقدوا ما لا يحقق ، فاذا رسخت

فى أذهانهم ، وبلغت حظها من ايمانهم ، فالويل كل الويل لمن يريد محوها ، أو يحاول اقتلاعها

١٨ أغسطس

أكذلك قضى الله أن يصبح ما كان مصدراً لسعادة المرء ورخائه ، علة لبؤسه وشقائه ؟ أليس عجيباً أن الشعور المتقد الذى كان يصل قلبي بالطبيعة ، ويغمر نفسى بالنعيم واللذة ، ويجعل كل مايطيف بى جنة بهيجة ، يعود عذاباً بئيساً لا يخف ، وشبحاً مخيفاً لا يغيب ؟

كنت فيما مضى حين يمتد طرفى من فوق الصخرة الى ما وراء النهر فيقع على الوادى الخصيب وما يكتنفه من الهضاب الخضرة ، أرى كل شيء حولى ينبت ويزهر . وحينما كنت أبصر هذه الجبال المغطاة بأشجار الدوح من أسافلها الى أعاليها ، وتلك الأودية المظللة محانيها بالغابات الانيقة ، وذلك النهر ينساب هادئاً بين نغمات القصب المهتز ، وتتراءى فى جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة فى جو السماء ، بنسيم المساء ، وأسمع الأطيار تُحْيى بأغاريدها موات الغابة جمعاء ، وجماعات الذباب ترقص طربة مَرِحة على خيوط الشمس الأرجوانية الغاربة ، وأرمق الارض ببصرى فأرى الأشْنان [١] يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة ، والرَّتَم [٢] ينبت فوق سفح الاكمة القاحل المرمل ، فيكشفان لى عن

(١) نبات دقيق ينبت لفائف على السقوف والصخور : Mousse

(٢) نبات بقلى ذو زهر أبيض أو أصفر Genêt

ذلك النبع المقدس وتلك الحياة القوية فى باطن الطبيعة ، أقول حينما كنت أرى وأسمع هذه الاشياء كان قلبي يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة ، وكنت أشعر أنى أقرب ما أكون الى التألُّه بما يفيض فى قلبي من الشعور والحس ، ويخيل الىَّ أن صور العالم الجميلة الفخمة تتحرك فى نفسى فتملأها حياة جديدة

كنت أرى حولىَ الأطواد[1] الشاهقة ترتد عنها الأبصار كليلة ، وأمامى الوهادَ العميقة تقتحمها السيول غبَّ العاصفة ، وتحتى الانهارَ الطامية تنحدر أمواجها مسرعة ، وأسمع الآكام والآجام ترن أجوافها رنيناً ، وأنظر فى أحشاء الأرض فأجد القوى الطبيعية الخفية يعمل بعضها فى بعض فتتولد وتتجدد ثم تفيض وتنتشر فوق الأرض وتحت السماء ، وأبصر أنواع المخلوقات يموج بعضها فى بعض على أشكال شتى وصور متباينة ، وبنى آدم يلوذون جماعات بالخصاص والأكواخ ، ثم يبتنون منازل ثابتة ويتخيلون أنهم يهيمنون على العالم كله !

مسكين أيها الأحمق ! ترى كل شيء صغيراً لأنك صغير !

فى جميع الكائنات — من صياصى الجبال المنيعة الى أغوار الفلوات المجهولة ، ومن بداية البر الى نهاية البحر — ينبثُّ روح الخالق الأزلى الذى لا ينقطع ايجاده ، ولا يبطىء امداده ، ولا تحرم ذرة من ذرات الهباء من قوة روحه وسر كلمته . آه ! كم تمنيت فى ذلك الزمن أن أقطع

(١) الجبال

أجواز الفضاء على جناحَيْ ذلك الـكرْكِيّ الذى يطير فوق رأسى فأبلغ ساحل ذلك البحر الخِضَمِّ الذى لما يكشفْ سره الانسان لأشرب من اللانهاية كأساً دِهاقاً [1] تبسط القلب وتنعش المشاعر ؟ وأشعر لحظة واحدة على قصورى وضعفى بنقطة تجرى فى دمى من سعادة ذلك الموجود الذى يخلق كل شىء فى ذاته و بذاته ؟

أُخىّ ؟ ان ذِكرَى هـذه الساعات الذاهبة لأخلق أن تردنى سعيداً ! وإن ما أبذل من الجهد فى احياء أثرها الأسمى فى قلبى وشرحه لك ليَسْمو بنفسى الى أعلى من مكانها ! ولـكنه وا أسفاه يجعلنى أشعر الآن بسوء حالى وحرج موقفى أضعافاً مضاعفـة . يخيل الى ان قد هُصِرت الستور وانجابت [2] الحجب أمام نفسى فرأت مسرح الحياة الذى لاينتهى ولايحد قد تحول الى حفرة ضيقة أمامى وقبر فاغر [3] فاه الىّ

هل تستطيع أن تقول : « **هذا الشىء موجود** » وأنت ترى كل شىء يمر ويختفى أسرع من لمح البرق، وتجد من النادر أن مخلوقاً تطول حياته حتى تخمد قواه وينطفىء سراجه ؟ اما يبتلعه السيل الأتىّ ، و يدفعه التيار الجارف ، حتى يمزقه على صخور الحياة ؟

لا تمر لحظة من الزمن دون أن تفنيك أنت ومن حولك من أهلك . ولا تمر لحظة دون ان تدمر أنت أو تُرغَم على التدمير . إن

---

(١) مملوءة (٢) انكشفت (٣) فاتح

خروجك الى التنزه ماشياً وهو أبرأ مايكون يودى بحياة مئات من الديدان الصغيرة ، ولخطوة واحدة من خطواتك تدمر عشرات من مساكن النمل وقد تحمَّل فى بنائها رهقاً شديداً ، وتسحق هذا العالم الصغير النشيط بأسره

ليس ما يؤثر فىّ ويشق علىَّ ما أرى من مصائب العالم النادرة التى تجتاحكم ، ولا الفيضان الذى يغمر قراكم ، ولا الزلزال الذى يخسف مدائنكم ، وإنما هو تلك القوة المدمرة الكامنة فى الطبيعة جمعاء : تلك القوة التى لاتوجد شيئاً الا ليُهلك ما يجاوره و يَهلك

كذلك أسير فى هذه الحياة ، يميدبى القلق ، ويجيش بصدرى الهم ، بين السماء والأرض وما فيهما من القوى الفعالة فلا أرى الا وحشاً هائلاً يأكل أبداً كل شيء ، ثم لايعيد خلقه الا ليعيد أكله !

٢١ أغسطس

عبثاً كنت أبسط ذراعىَّ اليهـا ساعة استيقظت صباح اليوم من حلم طاهر مؤلم ! و باطلا كنت أبحث عنها فى الليل على مرقدى وقد أوهمنى الحلم السعيد البرىء أنى جالس معها فى المرج أنعم بالحديث اليها ، وأغمر بالقبل يديها ! والَهْفَ نفسى علىّ وأنا بين اليقظة والنوم أتلمسها فى السرير ضِلَّة فترجع الىّ هـذه الحركة مشاعرى بغتـة فأستيقظ . . . فينبجس[1] من قلبى المكروب سيل من الدمع ،

---

(١) ينفجر

وأئن أنين اليائس حين أسفُّ(١) النظر فى صفحة الغد فلا أرى الا سواداً كثيفاً ، وظلاماً مخيفاً

٢٢ أغسطس

أنا تعس منكود الحظ ياوليم ! لقد فترت قواى العاملة ، وخمدت حواسّى المضطرمة ، وآل بى الهم الى همود لازم ، واضطراب دائم . لا أستطيع المكث فارغا ، ولكنى غير كفء لعملٍ ما . عدمت الحساسة والخيال ، فلا تزدهينى أعاجيب الطبيعة ، ولا تبعث الكتب فى نفسى غير الاشمئزاز والضجر . كل شىء يُعْوزنا ولا ريب اذا ما أعوزتنا أنفسنا . شهد الله انى تمنيت مراراً أن اكون أجيراً ليكون لى فى الصباح لدى يقظتى شىء أؤمله ، وضرورة تدفعنى الى ما أعمله ، وكثيراً ما أغبط ألبير حينما أراه غريقاً فى الأوراق والأضابير(٢) الى أذنه . ويخيل الىَّ انى لو كنت مكانه لعشت سعيداً

أثرت فىّ هذه الفكرة حتى حدثت نفسى ان أكتب اليك وإلى الوزير أسأله مثل هذا العمل فى السفارة . وهم لا يمنعوننى هذا السؤل كما تؤكده لى انت وكما أعتقده أنا . فانى أرى للوزير صَوْرَة(٣) الىّ منذ طويل ، وطالما نصح لى أن أشغل نفسى بعملٍ ما .

---

(١) أشده وأحده (٢) جمع اضبارة وهى الحزمة من الصحف Dossier

(٣) الصورة : الميل بالمودة

ولا أَكْذِبك فقد هممت مراراً أن أفعل، ولكنى اذا استأنفت الفكر، وتسلّفت النظر، وتذكرت حكاية الفرس الذى أضرّ به طول الجِمام[1] فأسلم نفسه السرج واللجام، فكدّه فارسه وعنّاه حتى لصب[2] جلده، وارتهكت مفاصله، وقفت حائراً لاأدرى ماأصنع. ولكن رويدك ياصديقى! أليس ذلك الطموح الذى أحسه فى نفسى الى تغيّر الحال وتبدل الأمر قلقاً باطناً ومرضاً دخيلاً سيصحبنى فى كل مكان؟

٢٨ أغسطس

لو أن ما بى من الداء يرجى برؤه، لكان فى كرم هؤلاء الناس دواؤه وشفاؤه

كان هذا اليوم ذكرى مولدى، فما كاد الصبح يفترّ عن نواجذه حتى صبَّحنى رسول ألْبير بصرة صغيرة، ففتحتها فاذا فيها عقدة من العقد الوردية التى كانت على منطقة شرلوت يوم لقيتها أول مرة، وقد سألتها إياها مراراً؛ ومجلدان من القَطع الصغير فَتحتهما فاذا هما ديوان هوميروس من طبعة (ديتيطس)، وقد كنت أرغب فى الحصول عليها منذ طويل لأستبدلها بطبعة (ارنستى) فانها ترهق ذراعى اذا ما خرجت أتنزه. فانظر كيف يدنوننى من منالى، ويصلون يدى بآمالى، وكيف يتحينون الفرص لهذه الألطاف الودية، وهى أثمن ألف مرة من تلك الهدايا الفاخرة التى يشفعها الاعجاب ويتبعها المن

---

(١) الجمام: الراحة (٢) لزق باللحم من الهزال

فتنال من كرامتنا وعزتنا

أنحيت على تلك العقدة بالقُبل ، واستنشيت فى كل قبلة ذِكرَى ما نعمت بهِ فى تلك الايام السعيدة على قصرها من غفلات العيش ولحظات الانس ، تلك الايام التى لاتشرق فى سماء العمر الا مرة !

كذلك يا وليم أزهار الحياة لاتُعَمَّر طويلا ، وإن كثيراً من تلك الازهار ما يذوى فلا يترك أثراً ، وان قليلاً منها ما يصلح فينتج ثمراً ، وقليل من ذلك الثمر ما يبلغ يوم نضجه ويَنْعِهِ . على أنه بقى من تلك الثمرات ما يكفى . فمن يستطيع ياصاح أن يطوى كشحه عن هذه الثمار اليانعة فيدعها تعطب دون أن يتمتع بها وينعم ؟

وداعا ياأخىّ ! إن الصيف عندنا جميل بهى ! ولله ما أجملَ أن أتسلق الشجر فى بستان شرلوت وفى يدى مِجْناة أو عصا طويلة فأرمى بها ماعلى الاغصان من الكمثرى وهى واقفة أسفل الشجرة تلقف بيديها ما يسقط من الثمر ! !

٣٠ أغسطس

ويلك أيها البائس ! لعل بك مسا من خبال ! ألست تخدع نفسك بنفسك ؟ الى أين يقودك هذا الهوى المبرّح الذى استحكمت قيوده ، وتباعدت حدوده ؟

أصبحت ياوليم لا أرفع الصلاة الا لها ، ولا أتخيل الاصورتها وشكلها ، ولا أنظر ما حوالىّ من الاشياء الا مضافاً اليها ومرتبطاً

بهـا . وتلك حال تشعر النفس بالسعادة حيناً . فاذا ما نُزِعت من جوارها ، وحيل بيني وبين استحضارها ، فلا تسل عما يملأ العين ظلاماً ويفعم القلب وحشة ! أواه يا وليم ! لو كنت تدرى أين يذهب القلب بأخيك في أكثر أمره ؟ . . . حينما أجلس اليها ساعة أو ساعتين أمتع العين بقسامة وجهها ورشاقة حركاتها ، وأشنف الأذن برقة عبارتها وعذوبة كلماتها ، تشعر مداركي شيئاً فشيئاً بتوتر شديد وضغط عنيف ، فيظلم بصرى ، ويثقل سمعى ، وأحس خناقي يضيق كأنما أخذت به يد قاتل ، فيجهد القلب ان يخفف من ارتباكي ، وينفِّس عن إدراكي ، فيثور ثائره ، ويشتد وجيبه ، ولا يزيد الأمر الا اضطراباً وقلقاً . في أكثر أيامى لا أدرى يا وليم أفي هذا العالم أنا أم في غيره . نعم أعرف نفسي ، ويثوب الىّ حسي ، اذا كظَمني الحزن ، ولاع قلبي الهم ، ولم أظفر من شرلوت بقليل عزائها ، فلا أغمر يديها بسيل دموعي ، ولا أخفف بحديثها حر ضلوعي ، حينئذ أهيم على وجهي في الحقول والأودية ، وأجد من اللذة أن أتسلق جبلاً صعب المرتقى ، أو أعْمَه[1] في جوف غابة مُضلة ، أو أخبط في وسط الأدغال الشواجن[2] ، فيدمى الشجر جسمى ، ويمزق الشوك قدمى ، وهنالك أحس بشيء من الراحة قليل . وكم مرة قعد بي الاعياء والظمأ في الطريق فأستلقي على الحصباء ، أو أجلس تحت الليل في الغابة المقفرة على جذع شجرة عوجاء ، أجلس

(١) أتيه وأضل (٢) النبات الطويل الملتف المتشابك

ياوليم لأهاون قليلاً رجلى المرضوضة والبدر فى كبد السماء يتلألأ فوق رأسي، فتأخذنى عيناى فى ذلك الضوء المريب فأنام نوم اللاغب القلق!

أواه يا وليم ! ان الاعتكاف فى حجرة ضيقة موحشة ، والتمطُّق[1] بمنطقة ذات أشواك حديدية قائمة ، وتعذيب الجسم بالأسنة الحادة النافذة ، لأرْوَحُ لنفسى من هذا العذاب الذى يذيبها ويضويها

وداعاً يا وليم ! انى لا أرى لهذا الشقاء المبرم غاية الا القبر

٣ سبتمبر

أجل ! ليس من السفر بد ! والحمد لله على أن أخرجتْنى من عماية الحيرة الى نور اليقين ، فقد مضى علىَّ خمسة عشر يوماً وأنا أُفكر فى تركها . ذلك أمر محتوم . لقد ذهبتْ الى المدينــة ثانية تزور إحدى صواحبها . . . . و . . . . لا بد من السفر !

١٨ سبتمبر

لَشَدَّ ما أُكابد الليلة يا وليم ! على انى الآن أستطيع أن أتحمل كل شيء. انى لن أراها بعد ! وليتنى أطير اليك ، فأرتمى بين ذراعيك، لأشرح لك بانفعالاتى القاتلة ، ومدامعى الهاطلة ، ماهاجم قلبي وتشعّب خاطرى من العواطف ! أنا أتململ أرقا وقلقاً ، أستنشق الهواء فلا أجده ، وألتمس العزاء فلا أناله ، ولا أنتظر غير الاصباح ، فان الخيول

---

(١) شد الوسط بالمنطقه (الحزام)

ستغدو عليّ مطلع الشمس . والَهْف نفسى ! إنها نائمة نوم الخليّ الهادىء
لا تعلم انها لن ترانى عَوْض[1]

فارقتها الليلة مرغماً بعد ساعتين قضيناهما فى الحديث ملكتُ
فيهما نفسى ، وكظمت على جِرَّتى[2] ؛ حتى لا ينم ظاهرى بما أقصد .
وذلك أن ألبير وعدنى ان يكون هو وشرلوت فى الحديقة بعد العشاء
توًّا ، فسبقتهما اليهما ؛ ووقفت على مَشْرَف تحت سرحتين من شجر
القسطل أشيّع آية النهار ببصرى وهى تغرب لآخر مرة على مرآىَ
خلف ذلك الوادى الضاحك ، وهذا النهر الهادىء . ولكم وقفت
أنا وهى فى هذا المكان جنباً إلى جنب نطالع معاً هذا المنظر الجميل !
أما الآن . . . . . !

كنت أتمشى فى ذلك المشى العزيز عليَّ قبل أن أعرف شرلوت
فتجبسنى فيه أكثر الأحايين جاذبية خفية . فلما تعارفنا كان سرورنا
باجتماع هوانا على تفضيله عظيما . والحق الذى لا مرية فيه أنه أشد
مارأت عينى جمالا وسحراً . تجد لأول وهلة بين أشجار القسطل منظراً
واسعاً ممتداً ، وقد أذكر أنى وصفت لك فى رسائلى كل هذا : وصفت
لك كيف يجد المرء نفسه اذا ماتقدم محصوراً بين صفين من أشجار
الزان الباسقة ، وكيف يدْهامّ[3] المشى قليلا قليلا بالخضرة النضرة كلما

---

(١) ظرف مختص بالنفى بمعنى أبداً وهو لاستغراق المستقبل فقط
(٢) سكت على مافى جوفه فلم يتكلم به (٣) يسود قليلا قليلا

خاض فى أحشاء الأجمة المتصلة به ، ثم ينتهى كل ذلك بسور صغير تشعر عنده بسحر العزلة وتأثير الوحدة

لا أزال أشعر بذلك التأثر الذى أحسسته حين دخلت هـذا المكان أول مرة أستجير به من حر الظهيرة . فقد خيل الىّ ان هذا المكان لى مألف ومعهد ، وأحسست أنى فى هذا الموضع سأشرب إما شهد الحياة و إما صاب الموت !

مضى علىّ نصف ساعة وأنا أغذى النفس بهذه الخواطر الحلوة المرة خواطر الاجتماع والافتراق ، وقد ذهلت عن كل شىء ، حتى سمعت وقع أقدامهما صاعدين الى المشرف . فدلفت اليهما مسرعاً ، وتناولت يد شرلوت مرتجفاً وقبلتها . ثم صعدنا جميعاً إلى المشرف ، وماعلوناه حتى رأينا القمر بازغا وراء الهضبة الشجراء ، فمشينا نتساقط الحديث فى موضوعات مختلفة حتى بلغنا الأجمة المظلمة ، فولجتها شرلوت ثم جلستْ ، وجلست أنا وألبير إلى جانبها . ولـكنى كنت من الاضطراب بحيث لا أستقر فى مكان . فنهضت ووقفت ازاءها ثم مشيت طولا وعرضاً ورجعت فأخذت مجلسى . تلك كانت حال اضطراب وهمّ لا يطمئن عليها الخاطر ولا تهدأ فيها النفس . .

لفتتنا شرلوت إلى جمال ضوء القمر وقد أنار أمامنا الممشى كله الى أقصى أشجار الزان ، فاذا منظر رائق يملك الابصار ويخلب الأفئدة ؛ وقد زاده اثراً وروعة أن ما حولنا كان فى ظلمة حالـكة . سكتنا هنيهة

ثم بدأت شرلوت الحديث قائلة : « ما مشيت ليلة فى ضوء القمر الا تذكرت من مات من أهلى ، وتفكرت فى أمر الموت والحياة الأخرى انا سنحيا ثانية ، ولكن ليت شعرى يا فرتر هل نتراءى ونتعارف ؟ مارأيك فى هذا الأمر وماذا فى حسك منه ؟ » قالت ذلك بلهجة سامية مؤثرة . فقلت لها وقد اغرورقت عيناى بالدمع . سنتراءى ياشرلوت! أجل سنتراءى فى الحيـاة الدنيا وفى الآخرة . ثم لم أستطع أن أزيد على ماقلت حرفاً

لِمَ سألتنى ياوليم هذا السؤال على حينَ يملأ قلبى هم الفراق ولوعة النوى ؟ استمرت شرلوت تقول : « وهل يعلم احباؤنا الذين فقدناهم من أمورنا شيئاً ؟ هل يشعرون بسعادتنا إذا سعدنا ! وهل يدرون أننا نذكرهم بلسان وامق وقلب مشُوق ؟ آه ! إن خيال أمى لا يبرح طائفاً حولى كلما جلست فى تلك الليالى الهادئة وسط أطفالى وأطفالها ، وقد ازدحموا من حولى كما كانوا يزدحمون من حولها ، فأرفع إلى السماء طرفى المخضَلَّ بدموع الأسف ، وأتمنى لو تستطيع أمى أن تلقى علينا نظرة من وراء الحجب فترى كيف قمت بما وعدتها ساعة احتضارها من أن أكون لأطفالها أما ، ثم أهتف بها قائلة : مغفرة يا أمى المحبوبة اذا لم اكن لهم مثـل ما كنت . على أننى فد بذلت لهم ما أستطيع ، فهم مكسوون مغذوون ، فضلا عن أنهم مدللون محبوبون . لو كنت تستطيعين أيتها القديسة العزيزة أن ترى فى أى مجتمع نحن نعيش .

اذن لشكرت الله وحمدته على ان استجاب دعاءك ، وتقبل بكاءك ، فبسط على أطفالك جناح رحمته ، وأضفى عليهم ثوب نعمته وبركته »

قالت ذلك ياوليم ! ومن يستطيع ان يعيد اليك مافالت ؟ وهل فى مقدور تلك الأحرف الباردة الجامدة ان تعبر لك عن هذه الزهور السماوية لتلك النفس المَلَكية ؟

تحرّك ألبير فقطع عليها الحديث بقوله : لقد هاج الادّكار أشجان نفسك ياشرلوت . أنا أعلم منزلة هذه الذكريات من قلبك ، ونصيبها من حبك ، إلا أنى أتوسل اليكِ . . . . فقاطعته شرلوت قائلة : « إنك لم تنس يا ألبير هاتيك الليالى التى كنا نقضيها جالسين جميعاً حول المنضدة الصغيرة المستديرة ، وأبي غائب عنا فى سفره ، والاطفال قد أووا إلى مضاجعهم ، وقد كنت تحمل معك فى اكثر الليالى كتاباً مفيداً تقرأُ لنا فيه ، فيلهيك عن القراءة حديث تلك المرأة المحبوبة الذى يمتزج بالقلوب ويسرّى عن الخواطر . ألم يكن حديثها العذب أفضل من كل شيء ؟ لقد كانت جميلة وديعة طربة نشيطة . ولا يعلم الا الله تلك الدموع التى كنت أذرفها حين آوى الى مخدعى جاثية الى الله مبتهلة اليه ان يجعلنى شبيهة بها ! »

فخررت ساجداً على قدميها ، ورويت بمدامعى يديها ، وقلت ياشرلوت : « لتحلّ عليك وفيك بركة الله وروح أمك ! » فضغطت يدى بيدهاوهى تقول : « آه لو كنت عرفتها ! لقدكانت خليقة بأن

تعرفها» فأحسست انى أذوب وأفنى تأثراً من هذه الجملة . فانى ماسمعت تقريظاً لنفسى هو أسمى وأجل من هذا . ثم سارت فى حديثها تقول : « لقد عجلت اليها المنية وهى فى ريّق الشباب وزهرة العمر حين لم يكن لأصغر أولادها الاستة شهور . كان مرضها قصيراً ، وكانت هادئة مستسلمة لايحزنها غير أمر أطفالها ولاسيما الأصغر . ولما زهفت إلى الموت قالت لى : ائتينى بهم ، فأتيت بهم اليها . فاما الصغار فما كانوا يعلمون شيئاً ، وأما الكبار فقد أذهلهم الموقف ودلّهم الحزن فوقفوا جميعاً حول سريرها . فرفعت يدها الى الله ودعته لهم وباركت عليهم ثم قبلتهم واحداً بعد واحد وأرسلتهم . ثم قالت لى : « أوصيك أن تكونى لهم أماً » فوعدتها بذلك . فقالت : حمّلت نفسك يابنيتى بهذا الوعد كثيراً ، فأنكِ لاتدرين ما قلب الأم وما عينها ، ولكن دموع الشكران والامتنان التى طالما سكبتها أمامى تدلنى على عرفانك معنى الأمومة ، وتقديرك عاطفة الحنان . فهَى لبنى أمك ذلك القلب الرؤوم وتلك العين الكلوء[1] ، وامنحى أباك اخلاص الوفى وطاعة الزوجة ، فان فيك سلوته وعزاءه »

ثم طلبت أن تراه ، وكان قد خرج ليخفى عنا ألمه الذى عجزت مُنّتُه[2] عن احتماله . والهف نفسى عليه ! لقد كان الهم يستوقد صدره ، والألم يمزق أحشاءه ؛ وقد كنت يا ألبير فى الغرفة ، فسمعت خطاك

---

(١) الراعية الواعية (٢) قوته

فسألت من أنت . ولما عرفتك أذنتك ، ثم نظرت الينا نظرة تنم على ما فى نفسها من الطمأنينة والأمل فى أنا سنكون سعيدين معاً . فطوقها ألبير بذراعه وقبلها قائلاً : « أجل إنا سعيدان ، وسنظل كذلك الى الأبد ! »

. « وكان على ما تعهده فيه من رزانة ورصانة وهدوء مشترك العقل ذاهب اللب . أما أنا فقد ضاع رشدى وغاب صوابى . فانظر ياڤرتر كيف نفقد هذه المرأة الى الأبد !! إن من الصعب على النفس أن ترى اعزاءها وأحباءها يغوصون فى بحر البلى ويقبرون فى ظلام العدم ، وأشد الناس احساساً بذلك الاطفال ، فان إخوتى لبثوا بعدها طويلا يألمون ويشكون من «أن الرجال السود[1] فد خطفوا **ماما**»

ثم وقفت بالحديث عند هذه الجملة وانتصبت واقفة ، فشعرت كأنى صحوت من حلم ، وأحسست أنى مضطرب المشاعر مبلبل الخاطر. فبقيت جالساً قابضاً على يدها . فقالت : « هيَّا بنا ، فقد آن لنا أن نعود » وأرادت أن تجذب يدها اليها فأمسكتها بقوة ثم قالت :

« انا سنتراءى ، ونتلاقى ، ونتعارف ، على أية صورة تكون »

أنا مسافر بطوعى واختيارى ، ولكنى كلما تذكرت أن ذلك الفراق الى الأبد ضاق ذرعى باحتماله

وداعا ياشرلوت ! وداعا يا ألبير ! انا سنتلاقى . . . فقالت بلهجة

---

(١) يريدون الكهنة

المازح الطرب . « غداً أظن ؟ » فأثارت كلمة **الغد** في نفسي شعوراً غريباً لا قبَل لى بتصويره . واأسفاه ! إنها كانت تجهل ساعة جذبت يدها من يدى أن . . . . لقد هبطا الى الممشى و بقيت جامداً أنظر اليهمـا يبعدان شيئاً فشيئاً فى ضوء القمر . ثم ارتميت على الأرض واستسلمت للعبرات ففاضت شئونى وسحَّت جفونى . ثم نهضت بغتة وعدوت الى آخر المشرف واطَّلعت فرأيت ثوبها الابيض يلمع فى ظلام الزيزفون الباسق وقد بلغت باب الحديقة . فبسطت ذراعىَّ ، وتدفقت عواطفى من عينىَّ ؛ ولـكنها توارت !



الجزء الثانى

٢٠ أكتوبر سنة ١٧٧١

بلغت ذلك البلد أمس فوجدت السفير معتلاً ، ولا يغادر الفراش الا بعد بضعة أيام . لوكان ذلك الرجل على شيء من سماحة الخلق ورقة الحاشية لسار الأمر على ما أحب . إن المقدور يدخر لى فى بطون الغيب ما شاء من أرزاء ومحن ؛ ولكن الله يرزقنى الجلَد ويلهمنى الصبر ، والمرء بشيء من قلة الاهتمام يستطيع أن يتحمل كل شيء . قلة الاهتمام !! يضحكنى أن تسيل هذه الكلمة من يراعى ، وهى لو كانت من خلقى لكنت اليوم أسعد من تظله السماء

واعجباه ! بينما أرى كثيرين حولى سعداء بكفافهم ، يتبجحون بكفاياتهم القليلة ، ويفخرون بقرائحهم العليلة ، أقنط أنا من قواى وأيأس من مواهبى ؟ اللهم يا من حبانى تلك القوى ومنحنى هذه المواهب ! لِمَ لَمْ تسلبنى شطرها وتبدلنى بها ثقة النفس وراحة الفكر وهدوء البال ؟ صبر جميل ! فسيعذب الوِرد ويحمد الصدَّر ، قد أدركت صحة رأيك فيما قلت يا صديقى . فانى منذ ألقيت نفسى فى غمار هؤلاء القوم ، ورأيت ما يعملون وكيف يعملون ، رضيت عن نفسى وسررت بحالى . لا مرية اننا ما دمنا مفطورين على أن نقارن كل شيء بأنفسنا ، ونقارن أنفسنا بكل شيء ، فسعادتنا أو شقوتنا تتعلق بتلك الأشياء التى نرتبط بها ونقارنها . ولذلك كانت العزلة أشد الأحوال

خطراً علينا وأكثرها ضرراً بنا . فان مخيلتنا الوثابة بغريزتها الى دَرَج الكمال ، المهتاجة بما يغذيها الشعر من صور الخيال ، تتصور طبقات الناس كالمدرَّج ثم تجعلنا فى الدركة السفلى منه . فيخيل الينا أن كل شيء ما عدانا أحسن وأجمل ، وأن كل انسان سوانا أفضل وأكمل

ذلك أمر قام عليه برهان الطبع ؛ فانا كثيراً ما نشعر بنقصنا وحاجتنا ، ونظن أن ما نقصناه أو فقدناه يملكه انسان آخر ، فنخلع عليه كل ما نلبس ، ونسدى اليه جميع ما نملك ، ثم نتوج ذلك العمل بسعادة خيالية وراحة وهمية تصرف عنه فكرة الاعنات والجهد . وعلى ذلك تجد هذا المخلوق السعيد قد أصبح جمَّاع الفضائل والكمالات التى خلقناها بأنفسنا وأوجدناها

ونقيض ذلك أنا اذا سرنا فى عملنا غير وانين ولا لاهين وجدنا أنفسنا على الرغم من مصاعبنا وضعفنا قد شأونا الآخرين ونحن نسير الهوينا وهم يسيرون بالشراع والمجداف

وجملة القول ان المرء لا يعرف قيمة نفسه بالحق الا اذا جارت اندادها فى مضمار الحياة فلحقتهم أو سبقتهم

٢٦ نوفمبر

بدأت أجد عبء الحياة بالنسبة الى ما مضى ميسور الحمل ، وأرى فى كثرة العمل شاغلا عما بى ، وأبصر فى تعدد الأشخاص وتجدد الصور مناظر جديدة متنوعة تسلى النفس وتسرّى الهم

قد عرفت الكُنت د . ج . وهو رجل تزداد له اعظاماً وتجلّة ، كلما ازددت عرفاناً به وخبرة . واسع الاطلاع عميق الفكر غزير المادة ، الا أنه على ذلك غير بارد ولا ثقيل . يريك حديثه رقة شعوره وصلاحية نفسه لغراس الصداقة والحب . جذبه الى أنى فاوضته ذات يوم فى أمر كلفت أن أفاوضه فيه ، فرأى من كلماتى الأُوَل اننا متفاهمان متفقان ، وأنه يستطيع أن يكلمنى بغير مايكلم به دهْماء الناس . ولا يسمح لى حيائى أن أتمدح بما يعاملنى به من صدق الاخلاص وصراحة اللهجة . والحق الذى لا مرية فيه أنك لا تجد فى العالم لذة اصدق ، ولا مسرة أقوى ، من ان ترى قلباً خالصاً ينفتح أمامك ، ونفساً كبيرة تنكشف لك

٢٤ ديسمبر

طالما آلمنى هذا السفير وغمنى ، وذلك ما كنت أتوقعه . إنه رجل مأفوك مُماحك يعييك أن يتابعك على ماتريد . لا ينتقدم الاخطوة خطوة ؛ ثم يتكلف فى قوله ، ويدقق فى فعله ، دأب العجوز الثرثارة ؛ ومحال أن يرضى نفسه أو يرضيه غيره . أحب أن أسير على سجيتى فى العمل ، وأجرى على إلهامى فى الكتابة ، فأكتب ما اكتب دون تَعَمُّل ولا تنقيح . ولكنه يرده الى مشفوعاً بتقرير وتعزير كقوله : « انه حسن ، ولكن أعد نظرك فيه ، فان الباحث لا يعدم عبارة أحسن ، ولا أداة أدق » فأود حينئذ لو تخطَّفنى الطير

أو تهوي بيَ الريح في مكان سحيق ! انه لا يريد أن ينسى علامة وقف . ولا علامة وصل ، وهو ألَدُّ العداء للتقديم والتأخير في الكلام كما يقع مني في الغالب . فاذا لم تكن الجمل جارية على سَنَنِ التقليد ، مسوقة على أسلوب الديوان، استبهم عليه اللفظ ، واستغلق دونه المعنى. إن العمل مع أمثال هذا الرجل لَحُمَّى الروح وأذى القلب . على أن فيما يبديه اليَّ الكنت . ج د . من الثقة بي عوضاً عن كل هذا . ولقد صارحني منذ أيام بسخطه على هذا السفير لتلكُّؤه وتنطُّعه وقال : « ان هؤلاء الناس يكدرون صفو الحياة على أنفسهم وعلى غيرهم ، ولكن لابد أن نلبسهم على خشونتهم ، ونسيغهم على كدورتهم ، كالسائر يعترضه الجبل فلا يجد بداً من اجتيازه . لاريب أن الطريق بغير الجبل يكون أجمل وأسهل وأنضر ، ولكنه كان ولا بد من اختراقه !

فطن هذا السياسي المتحذلق الى أن الكنت يؤثرني عليه فورم لذلك أنفه ، وأخذ يتحين الفرص ليذكره بالسوء لديّ ، فأتصدى للدفاع عنه فلا يزداد الا حنَقاً ومَوْجدة . لقد استوقد غضبي بالأمس اذ رماني أنا والكنت بحجر واحد . قال لي : « ان الكنت متقلب في فنون السياسة ، متصرف في ضروب الكتابة ، متدرب اليد على العمل ، ولكنما يعوزه الرسوخ في العلم والضلاعة فيه ، وتلك حال الأدباء أجمعين » ألقى هذه الكلمات بلهجة وهيئة تعبر عنهما

هذه الجملة : « هل نشعر بهذا السهم ؟ » على أن سهمه قد طاش وسيفه قد نبا . فانى أحتقر من يفكر ويعمل على نحو ما يفعل هذا الرجل

رددت عليه قوله غضبان محتداً بأن الـكنت أقْمَنُ بكل اعظام وتجلّة لسمو أخلاقه وسعة مداركه ، ولم ترَ عينى رجلاً مثله قد وسع فكره بأشتات العلوم ، وملأ ذهنه بمختلف الأشياء ، دون أن يفقد نشاطه للاعمال العادية

ولـكن هذا الـكلام كان على ذهنه المغلق وفكره البليد أشبه بالعبرية أو الجبر . ثم انصرفت خشية أن يطيل فى هذا الهُراء فيملُكَّ روحى ويفت كبدى . هذه جريتكم أيها الذين اكرهتمونى على حمل هذا النير بالحاكم علىّ بالاشتغال ونصحكم الىّ بالعمل . وأى عمل فى هذا ؟ انا أجدِّف[1] عشر سنين دأَبا فى هذه السفينة الملعونة التى قُيدت بها اذا لم يكن الرجل الذى يزرع البطاطس ويذهب على جواده الى المدينة ليبيع ثمره أبلغ منى سعياً واكثر عملاً

ناهيكم بهذا الشقاء البراق وتلك الاقامة المشئومة بين هؤلاء الأوغاد الذين يتفانون فى السبق ، ويتهالـكون على التقدم ، ويرائى كل منهم الآخر ويتسقطه ليتقدم عليه خطوة ، أو ينال دونه حظوة

إن أسفل الشهوات وأحقر الأهواء لتتجلى فى هذه البيئة من غير

---

(١) يشبه نفسه فى عمـله الشاق بالمجرمين الذين كانوا قديماً يعاقبون بالتحديف فى سفن الحـكومة Galéres de l'Etat أزمنة مختلفة

نقاب ولا حجاب . وأذكر لك على طريق المثال امرأة من نساء هذا البلد لاتفتأ تتحدث الناس عن شرف أصلها واتساع اراضيها حتى لا يتمالك من لم يعرفها أن يقول فى نفسه : « ما لهذه البلهاء تستطيل عُجباً وتميس اختيالاً بكرم مولدها وشهرة ضياعها ؟ » ولكن أفظع من ذلك وأشنع أنها لم تكن إلا بنت احد كتّاب المحكمة فى الضواحى !

أنا لا أفهم كيف تبلغ البلادة والغفلة بالجنس البشرى أن يهبط إلى هذا الدرْك الأسفل من الضعة . تزيدنى الأيام علماً يا صديقى أن من الحمق ان يقيس الانسان غيره على نفسه . كل له فى نفسه ملهاة ومشغلة . وأن أشد ما يشغلنى لهو تهدئة قلبي الثائر وتسكين نفسى المضطربة . مالى وللناس ؟ لا جرم أنى أدعهم يسيرون كما يشاءون ما داموا لا يقفون فى سبيلى ، ولا يسعون فى تضليلى . على أن آلم الاشياء لنفسى ، وأشدها إثارة لحنقى ، ذلك التمايز القبيح بين طبقات المجتمع . أجل انى أعلم ما يعلمه الناس من ضرورة هذا التباين وما يجديه علينا من النفع ، ويسديه الينا من الخير . ولكنى لا أريد أن يكون عقبة كأداء فى سبيل القليل من السعادة التى يستطيع المرء أن يتذوقها فى هذه الحياة

عرفت منذ قليل فى بعض متنزّهاتى الآنسة . ب وهى فتاة رقيقة الشمائل أنيسة الطلعة ، قد سارا كثر أخلافها مع الطبع فى وسط هذه الاخلاق المتصنعة والخلال المتكلفة . تحادثنا فأعجب كل منا الآخر

ولما صافحتني للوداع استأذنتها أن أزورها فسمحت بذلك عن فضل واسع ونفس طيبة ، حتى لم أستطع تأخير الزيارة إلى الوقت الملائم الا بعد لَأْى

لم تكن الآنسة من هذه المدينة ، وانما كانت تقيم عند عمة لها شمطاء لم تقع من قلبي موقعاً حسناً . على أنني بالغت في الالتفات اليها ، وأقبلت باكثر الاحاديث عليها ، فحزرت من أمرها في أقل من نصف ساعة ما كاشفتني به الحفيدة بعد

علمت من حال هذه المرأة انها لم تجد في شيخوختها عطفاً من الناس ولا ولاء ، ولم تملك على الكبر ثراء ولا ذكاء ، فلم يكن لها سند غير أثيل منبتها وكرم نسبها ، ولا مأوى غير سياج من الشرف ضربته من حولها ، ولا لذة غير أن ترمى الناس بنظرات الاحتقار من طنف بيتها . وقد قيل إنها كانت في شبابها جميلة ، وانها قضت عمرها الأول في السرف والترف ، فعذبت بدلالها وتجنّيها كثيراً من الفتيان المساكين . ولما ذوى شبابها وتصوّح وضعت عن منكبها رداء الزهو ، وبذلت مقادتها لضابط هرم فجازاها على استكانتها وطاعتها بالعيش معها عهد الكهولة حتى غلبها الموت عليه فعاشت في برودة الشيخوخة منبوذة وحيدة . ولولا دماثة طبع الحفيدة ما التفت الى العجوز أحد

٨ يناير سنة ١٧٧٢

عجباً لأولئك القوم الذين يتشبثون بالمواضعات ، ويتعلقون

بالرسميات ، فيصرفون عقولهم وجهودهم طوال السنين فى استنباط الوسائل للانتقال من كرسى[1] متأخر الى كرسى متقدم على المائدة ! لاتحسبن اشتغالهم بتلك المحاقر لأنهم لم يجدوا مايشتغلون به ، فان اهتمامهم بها وانصرافهم اليها أذهلهم عن انجاز الاعمال الخطيرة المتراكمة لديهم ، وعاقهم عن تأدية الامور الكثيرة الواجبة عليهم

كنا فى الأسبوع الماضى فى سباق على الجليد بالزحافات ، فحدث من تنافس القوم فى التصدر ، وتكالبهم على التقدم ، شجار عنيف كدر صفو الحفلة وأفسد نظام السباق . ألا يعلم أولئك الحمقى أن قيمة المرء بما يعمله ، وعظمة المنصب فيمن يشغله ، وأن الأقدار لا تقاس بالرتب ما دمنا نرى ذوى المراتب الرفيعة ، لا يقومون فى الأكثر الا بالأعمال الوضيعة ؟ كم ملوك يقودهم الوزراء ! وكم وزراء يقودهم الكتاب ! فقل لى بربك أى الثلاثة أرفع شأنا وأسمى مقاماً ؟ أن أرفع هؤلاء على ما أرى من كان أبعدهم فى المشكلات نظراً ، وأثقبهم فى الملمات فكراً ، وأقدرهم على أن يستخدم بحوله وحيلته قوى الآخرين وأهواءهم فى تنفيذ أغراضه وتحقيق مقاصده

٢٠ يناير

ألآن أكتب اليك — ولابد — ياعزيزتى شرلوت فى فندق

---

(١) من قواعد المدنية العربية أن يجلس الناس على كراسى المائدة على حسب اقدارهم . فمن كان ادنى الى رئيس المائدة كان أدنى الى السرف من غيره

حقير خارج المدينة قد لجأت اليه من تغير الجو واختلاف الهواء. وقد قضيت زماناً فى هذه المدينة الكالحة مدينة . د . وأنا هائم بين قوم غرباء عنى لاتجمعنى وإياهم عاطفة ، ولاتدنيهم من قلبي مودة ، وما شعرت لحظة واحدة بالحاجة الى الكتابة اليك . ولكنى لم أكد أحل هذا الكوخ الضيق المنعزل وأرى قطع الثلج وحبات البَرَد تسفع نافذتى الصغيرة حتى كنت أول فكرى ومبدأ خاطرى . أجل يا شرلوت ! لم أدخل هذا المكان حتى تمثلت صورتك وذكراك فى ذهنى ، فاستولتا على نفسى وأهاجتا فى قلبي شعوراً سامياً وتأثراً عظيماً

لك الحمد يا ألله ! تلك أول مرة ظفرت فيها بلحظة من لحظات السعادة الأولى ! آه ! لو كنت رأيتنى ياحبيبتى وأنا سابح فى لجج الذهول والغفلة ، ورأيتِ كيف ذوى كل شىء فى نفسى وجف !

لم يبق لى لحظة من تلك اللحظات التى تفيض على القلب الحياة والقوة ، ولاساعة من تلك الساعات التى تشعر النفس بالسعادة واللذة ! هيهات لم يبق من ذلك شىء ! ! ويخيل الىَّ أنى ماثل أمام مشهد من خيال الظل أرى رجالاً صغاراً وخيولا صغارا يمرون أمام عينى سراعاً . فأسائل نفسى : «أما ذلك وهْم مجسّد منظور ؟» على أنى أمثّل دورى بنفسى مع هؤلاء الاشباح ، وبالحرى هم يتخذوننى لعبة تتحرك بارادتهم ، وتلعب بادارتهم ، وكثيراً ما تناولت يد جارى فأحسها من الخشب فأتراجع فزعاً مرتاعاً !

وعدت نفسى فى الليل أن أسرها برؤية الشمس بازغة ، فلما دنا الصباح لم أستطع أن أقطع العزم على ترك السرير . وفى النهار منّيتها ان امتعها بمنظر القمر مضيئا ، فلما أقبل المساء لم أجد ما يحملنى على ترك الغرفة . أنا لا أعلم يقينا لماذا أستيقظ ولماذا أرقد ؟ لقد عدم ذلك العنصرُ الذى كان يبعث فى نفسى الحياة والحركة ، وفنى ذلك السحر الذى كان يعقد طرفى بطرف النجم فى جوف الليل ، وينزعنى من أحضان الكرى فى غرة الصبح

لم أجد فى هذا البلد من يستحق أن يدعى امرأة غير الآنسة ب . إنها تشبهك ياعزيزتى شرلوت لوكان فى الامكان أن يعلق بك شَبَه أو يوجَدَ لك مثال . ألآن تقولين متعجبة : « ها هو ذا أيضاً قد أخذ يسلك سبيل المجاملة والملاطفة ! » إنك اذا قلت هذا لاتبعدين كثيراً عن الحق . فقد أصبحت منذ زمن حلو المعاشرة بارع الظرف لأنى لم أستطع أن أكون غير ذلك . فأنا فى الحديث يقظ الفؤاد سريع الفطنة ، ويقول السيدات انى أقدر الناس على تدبيج المدح وتنسيق الثناء (أضيفى أنت على ذلك أنى أقدرهم أيضاً على الكذب ؛ فان المرء كما تعلمين لا يجيد المدح الا به)

كنت أريد أن أحدثك عن الآنسة . ب . وعن نفسها الجليلة الجميلة التى تتمثل بأسرها فى عينيها الزرقاوين . إن مقامها السامى عبء ثقيل عليها ، لانها لم تبلغ به رضا القلب ولا روْح الضمير . ترغب فى الخروج

عن هذه الضوضاء الى هدوء الخلاء وسكونه . وكم ساعة قضيناها بين الحقول ننشد السعادة الخالصة والسرور المحض! وقد كان ذكرك ياشرلوت ريحانة المجلس ورُوح الحديث . آه ! كم مرة أجبرتها على إكبارك وإجلالك ! أستغفر الله ما أجبرتها ولا أكرهتها ؛ انما تجلك من ذات نفسها عن طوع وإيثار . انها تحبك ، ويسرها ان تسمع الأحاديث عنك . آه ! ما أشوق القلب الى جلسة من تلك الجلسات بين يديك فى تلك الغرفة العزيزة الصغيرة وأطفالنا الأعزاء يطفُرون حولى من المرح ! لقد كنتُ اذا مابرمت أنت بضوضائهم أجمعهم ثم أحملهم على السكون والسكوت بحكايات مؤثرة مخيفة !

الشمس تغرب فى جلال وبهجة وراء التلاع [1] البراقة ببياض الثلج ، والعاصفة قد هدأت ؛ وانا ! لابد أن أعود الى قفصى — أستودعك الله — آلبيرُ بالقرب منك ؟ وكيف ؟ غفر الله لى هذا السؤال

٨ فبراير

مضت ثمانية أيام والرياح عاصفة ، والسحب واكفة ، وتلك حال تسرنى وترضينى . لأنى منذ حللت هذا البلد لم يطلع علىّ نهار ضاح جميل ، الا كدّره أو سممه علىّ ثقيل . اما الآن فالسماء اذا أمطرت أو أثلجتْ ، والأرض اذا جَلدت أو ذاب جليدها ، قلت فى نفسى :

---

(١) التلاع جمع تلعة وهى القطعة المرتفعة من الأرض

« لا بأس ! ليس الأمر فى البيت بأردأ منه فى خارجه »

اذا أسفر طلوع الشمس عن يوم صحو لا أتمالك أن أصيح : هاك نعمة من الله سيسلبها كل من كل ، وينغصها بعض على بعض ! ليس فى العالم شىء لم يتحاسدوا عليه ولم يتنازعوه : صحة وسمعة ومسرة وراحة ! وأغلب ما يصدر ذلك منهم عن سخافة عقل وقصر نظر وضيق فكر . ولئن سألتهم عن ذلك ليقولُنَّ انما فعلناه عن نية حسنة وطوية خالصة . انه ليقوم بنفسى أحيانا أن أجثو أمامهم تضرعاً اليهم ألا يمزقوا أحشاءهم ، وألا يحرقوا دماءهم ، بذلك الاسراف فى الغضب

١٧ فبراير

أخشى ألا أستطيع البقاء مع السفير طويلاً . فان هذا الرجل ثقيل لا يحتمل ، وطريقته فى العمل وفى ادارته سخيفة مضحكة ، حتى لَيُعْوِزنى الصبر فأسفهه وأفنده ، أو أقضى الأمر على ما أرسمه وأقصده ، وذلك بالطبع لا يرضيه . شكانى أخيراً إلى البلاط فوبخنى الوزير توبيخاً ليناً رقيقا الا أنه على كل حال توبيخ . فهممت أن أستقيل لولا أن أُلقىَ إلىَّ كتاب خاص من الوزير لم أتمالك حين قرأته أن جثوت اجلالا لما فيه من عاطفة سامية وحكمة بالغة : لامنى فيه على فرط انفعالى وشدة تأثرى ، ولم ينكر علىَّ أفكارى الحماسية المتطرفة ، ولا هيمنتى على غيرى من العاملين ، ولا طمعى أن أنال مكانة ظاهرة فى العمل ، بل عزا كل

ذلك الى نشاط الشباب المحمود ، ولم يرد أن يكسر من شرّته ، ولا أن يخفف من حدته . بل أراد أن يلطفه و يعطفه الى الغاية التى يحسن فيها استعماله ، ويحمد عندها مآله

بعث فىَّ هذا الكتاب قوة الصبر على ثمانية أيام أُخَر. وجعلنى بعد ذلك على وفاق وسلام مع نفسى . . ان رخاء البال ورضا المرء عن نفسه لهما الفوز العظيم والسعادة الحق . آه يا صديقى لو لم تكن هذه الحلية هشّة المكسر على قدر جمالها ونفاستها !

٢٠ فبراير

بالرفاء والبنين ياحبيبيَّ العزيزين ! بارك الله عليكما ومتعكما بما حرمنى اياه من الأيام السعيدة والعيش الرفيع !

لك الشكر يا ألبير على خديعتك اياى . فقد كنت أنتظر اعلان يوم زواجكما ، وكان فى عزمى ذلك اليوم أن أرفع صورة شرلوت من الحائط باحتفال وأواريها فى بعض الأوراق . وها أنتما هذان قد اقترنتما ولا تزال هذه الصورة فى مكانها . وستبقى فيه أبد الدهر ! ولم لا تبقى وأنا أعلم دون أن أسىء اليك انى عندك أيضاً فى قلب شرلوت . وأعلم كذلك ان لى فيه المحل الثانى ، وأريد بل يجب ان أحتفظ به ، واويلتاه ان حاولت شرلوت أن تنسى ! . . هذه الفكرة يا ألبير هى العذاب المقيم فى نار الجحيم . ألبير وداعاً ! وداعاً يا ملاك السماء ! وداعا ياشرلوت !

١٥ مارس

لحقنى فى هذا البلد إهانة لا يستقر لى معها فرار ولا تطيب لى بعدها إقامة . إهانة بت لها قائماً قاعداً أزفر من الغيظ وأنفث من الغضب ، وهيهات أن أجد عنها عزاء ، أو أعرف لها دواء . وأنتم سبب ذلك كله أيها الذين دفعونى وحرضونى على قبول عمل ليس لى ولست له . شغلته تحقيقاً لأملكم فنلت منه ما استحق ، وأفَدْت به ما أستوجب . فطيبوا نفساً واطمئنوا ! !

لا تقل كعادتك إن افكارى المتطرفة هى التى أفسدت كل شىء . فدونك الحادثة يا سيدى العزيز أسوقها اليك بسيطة واضحة كما يسوقها مسجل الحوادث

كل يعلم أن الكُنْت د . ج يحبنى ويجلنى ، وقد قلت لك ذلك مائة مرة . دعانى الى العشاء معه أمس ، وكان ذلك يوم اجتماع النبلاء للسمر عنده . لم أفكر فى هذا عَلِم الله ، ولم يَدُر فى خلدى أن الرسميات تحرم علينا معشر المرءوسين أن نجالس أولئك السادة ! لا بأس ! فبعد أن فرغنا من الطعام انتقلنا الى القاعة الكبرى وأخذنا نتمشى فيها طولا وعرضاً ونحن نتجاذب أهداب الحديث ، ودخل علينا فى غضون المحادثة الكولونيل . ب فتشقق الكلام واتسع نطاق السمر . أزف وقت الاجتماع وأوشك أن يفد السامرون ، وأنا لا أزال — شهد الله

— خالى الذهن من كل شىء . فتح البـاب ودخلت ذات الرفعة والسلطان السيدة . د . س ومعها زوجها النبيل وابنتها القوية الغبية ذات الصدر المسطوح والخصر الأهيف ؛ فنظروا الىّ حين مروا علىّ مزدرين ، وزمّوا [1] بأنوفهم مستكبرين ، كدأب السادة العظماء !

أنا أكره هذا الجنس بإخلاص ، ولا أحب ان يجمعنى بأفراده مجلس . فانتظرت ريثما يخلص الكنت من ثرثرتهم الغَثة الباردة ثم أستأذنه فى الانصراف . بيْد أنى آثرت البقاء حينما رأيت الآنسة دى ب . داخلة ، لأنى أشعر لدى مرآها بشىء من سرور النفس وانشراح الصدر . لبثت وراء كرسيها ثم طارحتها الحديث فكلمتنى على غير عادتها بلهجة متكلفة غير صريحة ، فيها شىء من التأفف والضجر ، فنال ذلك منى وقلت فى نفسى : « أهى أيضاً على أخلاق هؤلاء ؟ » ثم هممت بالخروج لما نالنى من الهُون . غير انى بقيت طمعاً فى تبرير فعلها ، ورغبة فى استماع جميل قولها . وأملاً فى أن أكون أنا الواهم المخدوع

أخذ عقد الجلوس يتسع بالوافدين شيئا فشيئا ، ورأيت فيمن أقبل البارون . ف . وعليه كل ما فى صوانه [2] من ثياب يرجع عهدها الى تتويج العاهل فرنسوا الأول . وكذلك مستشار البلاط . . الذى

---

(١) شمخوا بها كبراً وصلفا (٢) الصوان : وعاء الثياب Garde-robe

وسموه بألقاب الشرف ، جاء ومعه امرأته الصماء . ولا تنس المسكين ج . فقد كان هندامه المُشَيَّأُ (١) مضحكة للناس ، اذ سد ما ينقصه من الثياب على الطراز الغوطى بخرَق لاقيمة لها من الطراز الحديث . ولا أطيل عليك فقد جاء القوم كراديس ، وأخذوا مواضعهم من المجلس . وأقبلت على بعض معارفى أحدثهم فوجدت منهم فتوراً عن الحديث وايجازاً فى الجواب . ففكرت ثم فكرت ، ولكنى لم أُلق بالى الا الى الآنسة . ب . فما لاحظت أن النساء الجالسات فى آخر القاعة كن يتسارون ، وأن مُسارّتهن دارت حتى بلغت آذان الرجال ، وأن السيدة . س . كانت تفاوض الكنت . كل ذلك لم أفطن له وانما حدثتنى به الآنسة . ب . بعد . وآخر الأمر أن الكنت تقدم الىّ وانتبذ بى ناحية الشباك وقال : انك لاتجهل ما فى عاداتنا من الغرابة والشذوذ ، وقد لا حظت أن القوم لا يروقهم وجودك بينهم . ولكنى لا أريد مع ذلك . . . فقاطعته قائلا : أستغفرك يا صاحب السعادة ألف مرة ! فقد كان حقاً علىّ أن أفكر فى ذلك من قبل . ولكنك ستبسط على نزقى جناح عفوك . ولا أكْذِبُ الله فقد نويت الخروج منذ قليل فعاقنى الشيطان اللعين عن ذلك . قلت هذه الجملة باسماً ثم انحنيت اليه مودعاً فصافحنى الرجل وهو من تأثره فى حال تنم على مكنون صدره . وانسللت من هذه الجماعة

---

(١) المختلف القبيح

الجليلة وركبت مركبة أقلتني الى . م . فجلست فوق الربوة اشاهد مغرب الشمس وأقرأ لهوميروس ذلك النشيد الجميل الذى يذكر فيه كيف نزل أوليس ضيفاً كريماً على راع فاضل من رعاة الخنازير فسُرِّى عنى ، ثم أبت فى المساء الى العشاء فدخلت المطعم ولم يبق فى قاعته غير نفر يلعبون (بالزهر) على أركان المائدة بعد أن رفعوا طرف الخوان . وما استقر بي المقام حتى أقبل الفاضل (أُدْلين) فعلق قبعته على المِشْجب وهو ينظر الى . ثم قال لى بصوت خافت : هل اعتراك امتعاض وابتئاس ؟ فقلت له : أنا ؟ فقال نعم حين حملك السكنت على أن تفارق الجماعة . فصحت به قائلاً : قاتلها الله من جماعة ! لقد وجدتُنى أسعد نفساً وأحمد حالاً فى الهواء الطلق . فقال : يسرنى أن ترى الاشياء من جهاتها الحسنة ، ولكن يسوءنى أن الخبر قد سار على الأفواه فتناقلته الأندية ، واضطربت به الألسنة !

حينئذٍ بدأت أمتعض ، وأخذت كلما دخل المطعم انسان و نظر الىّ ظننت أن هذه النظرة لتلك المسألة ، فيجيش صدرى من الغيظ ، ويغلى دمى من الحنَق . وأنكى من ذلك أنى اليوم أينما أوجه أرى من يرثى لى ويشفق علىّ ، وأعلم أن حسادى ومنافسىّ يبدون الشماتة ويظهرون الفلَجَ[1] ويقولون : « انظروا كيف كانت عاقبة هؤلاء الأدعياء الذين يتبجحون بالنزر اليسير الذى أوتوه من الذكاء ،

---

(١) الفلج : الانتصار

ويحسبون أن لهم الحق فى أن يضعوا أنفسهم فوق كل اعتبار » الى غير ذلك من الهُراء القبيح . مَن من الناس يسمع هذا القول ولا يتمنى أن تخترق أحشاءه مدية قاطعة ؟ فولوا ما شئتم فى تمجيد الاعتدال وضبط النفس ، ولكن أرونى من يستطيع الصبر على سفلة يسمِّعون[١] به ، ويَمْرُجون[٢] ألسنتهم فى عرضه ، وقد تمكنوا من ضفا ثغرته ، ووجدوا السبيل الى دحض حجته ؟ آه لو كان كلامهم واهى الاساس فاسد المعنى لهان على المرء أن يسخر منه ، ويجعل فى أذنه وقراً عنه !

١٦ مارس

كل ما حوالىّ إلْبٌ علىّ يوقد صدرى بالغضب ويفتّ كبدى بالغيظ . اليوم قابلت الآنسة دى ب . فى طريقى الى النزهة فلم أتمالك أن دنوت منها وملت عن الناس بها ، ثم شرحت لها ما أحدثه سلوكها معى يوم أمس من الأذى والألم . فقالت لى وهى منفعلة ثائرة : كيف استطعت يا فرتر أن تفسر اضطرابى هذا التفسير وأنت تعلم قلبى ؟ الله يعلم كم تألمت من جرائك منذ دخلت البَهْو ! وقد كنت أتوقع حدوث ما حدث . وكثيراً ما هممت أن أنبهك له .

---

(١) سمع به : أذاع عنه عيباً وفضحه (٢) مرج لسانه فى عرضه : أطلقه فى ذمه واغتيابه

كنت أعلم أن السيدتين دى . س . ودى . ت . و بعليهما كانوا يؤثرون الخروج على أن يضمهم وإياك منتدى واحد . وأعلم أن الكنت لا يجرؤ على خصامهم ، ولا يقدر على دفع كلامهم . ولا تسل الآن عن الفضيحة المستطيرة ، والقالة المستفيضة ! ! فذكرنى كلامها ما قاله أدلين ليلة البارحة فكأنما تدفق فى عروقى ماء حميم [١] ، ولكنى أمسكت على مافى نفسى من القلق وقلت لها : ماذا تريدين أن تقولى أيتها الآنسة ؟ فقالت تلك الفتاة الفاضلة والدمع يجول فى عينيها : لشدَّ ما شق علىَّ هذا الأمر ! فطار عقلى وجن جنونى وأوشكت أن أترامى على قدميها ثم ناديتها : « بربك لتفصحِنَّ عما تضمرين » فغيضت من عبراتها المسبلة ولم تحاول اخفاءها ثم قالت : « انك تعرف عمتى ! لقد كانت فيمن حضر هذا الجمع ورأى هذا المشهد . رأته ولكن بأى عين ! وتكلمت فيه ولكن بأى لسان ! قرتر ! لقد أطعمتْنى أنياب اللوم ، فى مساء الأمس وصباح اليوم ، على صلتى بك . وقضى الله أن تحتقر وتهان سَمْعَ أذنى ولا أستطيع الدفاع عنك إلا قليلا

كانت كل كلمة من كلماتها أشد وقعاً على قلبى من طعنة خنجر . وما كانت تدرى أن الواجب عليها أن تستر هذه الأشياء رحمة بى وإشفاقاً على . مضت فى كلامها تذكر كيف أرجف الناس بهذا الأمر وخاضوا فيه ، وكيف قامت طائفة تنتصر بهذه الحادثة وتبتهج بها ،

---

(١) ساخن

وتعدها عقاباً على ادعائى وصلفى وقلة اكتراثى بالناس ، وذلك ما لامونى عليه منذ طويل . شديد علىّ أن أسمع كل ذلك من فمها يا وليم بتلك اللهجة الصادقة المخلصة ! لقد اضمحلت قواى ، ولا أزال موغر الصدر مسعور الفؤاد . وكنت أتمنى لو أن انساناً يجرؤ على مواجهتى بهذا الكلام حتى أخترق أحشاءه بالسيف ، فان منظر الدماء يشفى صدرى ويطفئ غليلى

آه كم مرة تناولت الخنجر لأريح قلبى من العبء الذى يبهظه ! لقد قيل إن فى الخيول جنساً كريماً اذا سار ملء فُرُوجه [١] وأحماه الطراد فصد بأسنانه أحد أوردته حتى لا يختنق ، ولطالما أحسست ذلك من نفسى فأود أن أقطع لى وريداً لأجد الحرية الأبدية والراحة الدائمة

٢٤ مارس

رفعت الى القصر استقالتى من العمل وأرجو أن يقبلوها . وأسألك الصفح عما فعلت دون اذنك ، فان رحيلى عن هذه الديار أصبح أمراً محتوماً . على اننى أعلم ما كنت تقوله لتقنعنى بالبقاء لو استشرتك . اجتهد أن تخفف وقع هذا الخبر على أمى وأن تسيغها غصته برفق وهوادة . أنا لا أملك لنفسى شيئاً ، فلم لا تعذرنى هى

---

(١) الفروج ما بين قوائم الفرس . وسار ملء فروجه اذا عدا عدواً شديداً

اذا لم أملكه لها أيضاً ؟ . لاجرم أن ذلك سيؤلمها جد الألم : نعم يؤلمها أن ترى ولدها وهو فى مبدإ الطريق الى دار الاستشارة ، أو دار السفارة ، قد وقف بغتة ثم رجع أدراجه فأدخل جواده فى الاصطبل . سَمِّ ذلك بما تشاء واجمع الفروض واذكر الظروف التى كانت تسمح لى بالبقاء أو تحتمه على ، فقد قضى الأمر وأفد الوقت وحق السفر . وإذاعناك أن تعرف الى أين أذهب فاعلم ان الامير دى . . . هنا ويسره ان اكون معه . وقد عرض على منذ عرف استقالتى أن أصحبه الى ضيعته فأقضى بها فصل الربيع ، وسأكون هناك حرا فى نفسى مالكا لأمرى كما وعدنى . واذ كنت أنا وهو على اتفاق فى بعض الامور فسأغامر فى الحظ عنده وأعزم السفر معه

١٩ ابريل

لك الشكر على رسالتيك ولى العذر فى الأبطاء عن جوابيهما ، فقد انتظرت بالرد ريثما أنال من السفارة إقالتى اذ كنت أخشى أن أمى تتوسل الى الوزير فتكسر من ذرعى ، وتقف دون مرامى . وقد قضى الأمر وجاءت الاقالة . ولا أذكر لك ما تبعها من شدة أسفهم علىّ ، وما كتبه الوزير فى هذا الصدد الىّ . مخافة ان تعظم شكواك ويضيق من عذرى عندك ما اتسع . إن ولى العهد أرسل الىَّ تقدمة الوداع خمساً وعشرين دوقية مع كلمة مؤثرة حركت قلبى وأسالت

شئونى . اذن لا حاجة لى بالمال الذى طلبته من أمى فى كتابى الأخير

٥ مايو .

سأرحل غداً من هذا البلد ، وسأعَرِّج على مسقط رأسى فأزور مغانيها وأقضى عهودها ، فانها على بعد ستة أميال من الطريق فحسب. سأزورها وأستذكر ذلك العيش الغرير وتلك الأيام السعيدة التى قضيناها فى ظلال الأمن والشمل جامع والحبل متصل ! تلك الأيام التى مرت كحلم الوسنان أو خلسة المختلس !

سأدخل هذه الديار العزيزة المأنوسة من الباب الذى خرجت منه مع أمى يوم غادرناها بعد موت ابى لنحتبس فى مدينتكم الثقيلة الوبيلة . وداعا يا وليم ! سأوافيك بأخبار رحلتى من حين الى حين

٩ مايو

قضيت فريضة الحج الى مسقط رأسى بقلب الحاج الورع والعابد المتحنث ولكم انبعث فى قلبى من العواطف ما لم أكن أتوقعه !

لما بلغت سرحة الزيزفون القائمة فوق طريق . س . على ربع فرسخ من المدينة نزلت من المركبة وأمرت الحوذىّ أن يسير وحده ، فانى أريد أن أسير وراء قلبى راجلاً أتذوق جمال تلك الذِّكَر وأنشق أريج هذى العهود . وقفت تحت هذه الدوحة التى

كانت في طفولتي غاية لنزهتي وحدا لمسيري

يا لله ! لشد ما تغير كل شيء : ! لقد كنت فى تلك الأيام وأنا فى نعيم الجهالة أتمنى لو أنغمس فى هذا العالم المجهول رجاة أن أنال فيه ما لم أناله من رغبات النفس ولذاذات العيش وأمانى القلب ! وهأنذا اليوم عائد من ذلك العالم الفسيح وما بين جنبيّ غير اخفاق المسعى وخيبة الأمل !

بدا أمامى ذلك الجبل الذى كان منتجع خاطرى ومهوى فؤادى ، ذلك الجبل الذى كنت أقضى به الساعات جالساً أشاهده وقلبى هائج وفكرى وثاب يحملنى الى ما وراء الهضاب ، ويضللنى فى ظلام الغاب ، ويتيه بى فى تلك الأودية التى كانت تتجلى لعينى فتانة ضاحكة تحت نقاب من ضباب البعد . فاذا ما حان وقت الرجوع تقطعت نفسى حسرات على ترك هذا المكان العزيز على

اقتربت من المدينة فحييت المنازل والحدائق التى أعهدها . أما ما استحدث من المساكن أو تغير منها فلم يقع من قلبى موقع الرضا

ولم أكد أجاوز باب المدينة حتى وجدت ما فقدت من نفسى ، وعرفت ما انكرت من سائرى . ولا أريد أن أشرح لك بالتفصيل كل ما أحس وأرى ، فان ذلك يكسب الحكاية من التشابه والتشاكل بقدر ما يكسبنى من الانفعال والتأثر . عقدت النية على أن أنزل فى دار على ميدان السوق بجانب دارنا القديمة . فلما أجزت الساحة ذاهباً

اليها لاحظت أن المدرسة التى كانت تكدسنا فيها تلك العجوز البرة ونحن صغار كما تكدس الشاء فى حظائرها قد تحولت الى حانوت بدال. وتذكرت ما كنت أعانيه قديماً فى هذا القفص من اضطراب البال، وانسكاب الدمع، وضيق الصدر، وتبريح الهم

ولم أخط خطوة الا وجدت أثراً باقياً أو تذكاراً سامياً يملك القلب ويصبى المشاعر. وما الحاجُّ الى الأرض المقدسة بواجدٍ ما وجدت من جليل الأثر وجميل الذِّكرِ فى تلك البقاع الطاهرة المباركة. خذ مثالا واحداً من ألف: انحدرت فى النهر حتى بلغت مزرعة كنت أغشاها فيما مضى كثيراً مع رفقتى ولداتى فنتبارى فى قذف الحجارة على سطح النهر لنرى أيها أجمل ونوباً على صفحة مائه. فمر بخاطرى ذكرى الساعات التى قضيتها هناك واقفاً على شاطئ النهر أحدج ماءه بنظرى، وأساير تياره بفكرى: أشيعه الى ما يمر به ويرويه من تلك الأقطار التى تتجلى فى الذهن على أبدع ما يتصوره الخيال من الألوان والصور. ولكن سرعان ما يعوق الفكر ضيقُ التصور وحدود المخيلة فيقف. فأحثه على إمعان السير وإيغال التقدم فيسير حتى أضل بأسرى فى بعد شاسع لا ينظر ولا يدرك

كذلك ياصديقى كانت الحدود الضيقة التى عاش بينها آباؤنا الأولون سعداء رافهين تظهر على شعورهم وشِعرهم مسحة السذاجة وآثار الطفولة. لله در (أُوليسَ) حين يتحدث عن البحر لاغور له ولا حد،

وعن الأرض لم يطمثها من قبلُ انس ولا جن ! لِلّهِ ما أصدق كلامه وأعمقه وأليقه بالانسان ! ماذا يفيدنى أن أقول اليوم مع كل تلميذ إن الارض كرة ؟ وهل يحتاج المرء منها الا الى قطعة يسعد بها فى حياته ، وإلى حفرة يرتاح فيها بعد مماته ؟

أنا الآن فى قصر الصيد أعيش مع الأمير على خير حال وأحسنها . إن هذا الرجل مثال الاخلاص والسذاجة . الا أنه محاط بشرذمة غريبة لا أفهم لها مذهباً ولا خلقاً . لا تظهر عليهم علائم الاحتيال والخِب ، ولكنك لا تقرأ فى وجوههم آية الصلاح والفضل . وقد أتوسم فيهم معنى الاخلاص أحياناً ولكنى لا أثق بهم ولا أطمئن اليهم . على أن الشيء الذى يسوءنى هو أن الامير لا يذكر غالباً الا ما يسمعه أو يقرأه ، ولا تراه يتزحزح قيد إصبع عما اكتسبه من السماع أو القراءة ، ولا ينظر الى أبعد مما أراه غيره . وأشد من ذلك علىّ أن يُكبر عقلى أكثر مما يكبر قلبى . وقلبى هو مصدر كبريائى وإعجابى ومنبع كل شيء فى : هو منبع كل قوة وكل غبطة وكل ألم

ألا إن العلم الذى أعرفه يستطيع كل أن يجمعه ويحصله ، ولكن القلب الذى أحمله لا يتسنى لغيرى أن يحمله

٢٥ مايو

كان فى رأسى خُطَّةٌ طويتها عنك ريثما تتحقق وتنفذ . أما الآن

وقد حيل دونهـا فليس ثَمَّ ما يمنعنى من ذكرها . كنت مزمعاً الدخول فى الجندية ، وكان هذا الغرض فى نفسى من زمن بعيد . فلما عرفت الأمير كان أول ما دفعنى الى اتباعه تحقيق هذا العزم لأنه قائد فى جيش روسيا . ولـكنى لم أكد أكشف له عن هذا الرأى حتى زهدنى فيه وصدنى عنه . وليس الأمر صادراً عن هوى مستحكم أو حاجة داعية حتى أحمل نفسى على مراجعته أو مخالفته

١١ يوليو

قل ما بدا لك فهيهات أن أبقى هنا أكثر مما بقيت . وهل لى فى هذا المكان عمل ؟ لقد تولانى السأم وثقل علىَّ الزمن . وأرى الامير يعاملنى معاملة النظير ، ويكرمنى إكرام العشير ، الا أنى مع ذلك لم أكن فى الموضع الذى أستنسبه ، ولم أبلغ المورد الذى أستعذبه . لست فى الامر معه على سواء . فلبس من شكلى ولا من هواى . أجل انه رجل ذكى ، ولـكن ذكاءه عادى ، فلا يُمتْعنى حديثه اكثر مما يمتعنى كتاب محكم الوضع . سأقيم هنا ثمانية أيام أُخر ، ثم أستأنف حياة الظعن والتجوال . وخير ماصنعته فى هذا المقام عنايتى بالتصوير وحسن أثرى فيه . فان للأمير هوى فى الفن وميلا اليه ، ولـكنه يقيد نفسه بالقواعد العلمية والاصطلاحات الفنية ، ولولا ذلك لـكان فناناً قديراً . يحدث فى الغالب انى أكون متقد المخيلة مضطرم الحواس أنقله من حقول

الطبيعة الى رياض الفن ، وأريه روائع الجمال الطبيعى و بدائع الفن الطليق ، اذا به يرمى خلال الطريق كلمة اصطلاحية (مدموغة) حاسباً انه يَفْرِى[١] الفَرِىَّ ويأتى بالعجب ، فيجرضنى[٢] بريقى ، ويسد علىَّ طريقى

١٦ يوليو

إى وربى انه لحق . لست على هذه الارض الا جوَّابة رحَّالة ! وليت شعرى هل أنت الا كذلك ؟

١٨ يوليو

أتدرى الى أين عزمت المسير ؟ سأقول لك ذلك همساً فى أذنك . مددت أجل الاقامة هنا الى خمسة عشر يوما ، ثم أقنعت نفسى أن أزور مناجم . . . وحقيقة الأمر أنى أريد الاقتراب من شرلوت ليس غير . انى أسخر من قلبى ثم أتابعه على ما يريد !

٢٩ يوليو

كلا ، هذا حسن ! كل شىء حسن ! أنا ! أ أكون زوجاً لها ! سبحانك اللهم لو كنت أعددت لى مثل هذه السعادة لكانت حياتى

---

(١) يأتى بالعجاب فى عمله (٢) احرصه بريقه : جعله يبتلعه بالجهد من هم أو حزن أو غيظ

كلها صلاة دائمة لك ، وثناء متصلا عليك . لا أريد يامولاى أن أعارض قدرتك ، ولا أن أناقش حكمتك ، فاغفر لى هذه الدموع السائلة ، وتجاوز عن تلك الامانى الباطلة . هى ! تكون زوجة لى ! اذن لضممت بين ذراعى أجمل وأكمل مخلوقة تحت الشمس !

وليم ! ان جسمى لتستقله الرعدة اذا ما أدار ألبير ذراعه حول قدها الرشيق . وان كلمة تتردد على شفتى فهل يصح أن أقولها ؟ ولم لا ياوليم ؟ أنها لو كانت معى لكانت أسعد نفساً وأرغد عيشاً منها معه . ليس ألبير ذلك الرجل الذى يقضى حاجة هذه النفس ويحقق مراد هذا القلب . لقد تنقصه الحساسية ويعوزه . . . ظن ما تشاء . ان قلبه لايخفق مع قلبينا اذا ما قرأنا فصلا من كتاب مُمْتع ، فتجد قلبى وقلب شرلوت يتقابلان ويمتزجان وقلبه عما نحن فيه بمعزل . ولطالما دار الحديث بيننا عن انسان فنذكر مانحس له من عاطفة ، ونشرح مانرى فى عمله من رأى ، فأتفق أنا وشرلوت الا ألبير فيقف منا على النقيض . عزيزى وليم ! لا جدال فى أنه يحبها من صميم فؤاده ، وهل جزاء هذا الحب الا السعادة ؟ أن أحد الثقلاء دخل علىّ الآن فقطع سلسلة أفكارى ، ووقف تيار دموعى ، وألهانى عن كل ما بى . أستودعك الله يا صديقى !

٤ أغسطس

لست فيما أصابنى الدهر من اليأس والاخفاق بأول الناس ولا

واحدهم . فكل انسان يخطئه سهم الحظ ويكذبه رائد الأمل

ذهبت أزور تلك المرأة التى لقيتها يوم الزيزفون فرآنى بكر أولادها فجاءنى عجلان يسعى الى وهو يصيح صياح الفرح . فتنبهت أمه وتطلعت الى فاذا هى على غير ما عهدت منسرقة القوى منهوكة الجسم . فبدرتنى بالخطاب قائلة : « أواه ياسيدى الكريم ! لقد مات يحيى الصغير » وكان هذا الطفل أصغر بنيها ، فلبثت صامتاً واجماً وانطلقت هى فى شكواها تقول : « وزوجى رجع من سويسرا صفر اليدين . ولولا عطف بعض النفوس الكريمة لما استطاع العودة الا باراقة ماء وجهه ، فان الحمى لم تفلته أثناء الطريق » فلم أستطع أن أقول لها شيئاً ، وقدمت للغلام هدية صغيرة ثم طلبت إلى أن أتقبل منها بعضا من التفاح فتقبلته ، وغادرت المكان مفعم القلب بذكرى محزنة أليمة

٢١ أغسطس

كل ما عهدته فى نفسى تغير فى أسرع من تقليب الكف ، وارتداد الطرف ! ولم يبق من عهد السرور غير بصيص خافت يلمع فى جوانب نفسى من حين الى حين . وما أسرع ما يخبو فيترك القلب ظلاماً ، والهم لزاماً ! ما همت مرة فى أودية الأحلام الا احتوشنى هذا الخاطر من كل جانب فلا أستطيع له دفعاً : « ماذا عسى أن

يكون لو قضى ألبير نحبه ؟ » اذن تكون أنت . . . . أجل وتصير هى . . . . ثم أتبع ذلك الوهم حتى يقف بى على شفا الهاوية ، فأرجع القهقرى مضطرب الحواس مرتعد المفاصل ! وما خرجت من باب المدينة وسلكت الطريق التى سلكتها يوم ذهبت أول مرة الى شرلوت أقودها فى المركبة الى المرقص الاقلت لنفسى : شتان ما بين الأمس واليوم ! وسرعان ما ذهب كل شيء واضمحل ! لم يبق من ذلك العهد السعيد رسم ولا أثر ! ولم أعد أجد وا أسفاه فى قلبى تلك العواطف التى كانت تهزه يومئذ وتحركه !

أنا كالأمير الذى قام من قبره فرأى القصر الفخم الذى شاده لواحده وقرة عينه ، وزينه بالتحف الثمينة والرياش الفاخره، قد تقوض بنيانه وأصبح أطلالا بالية ، ورسوماً عافية

٣ سبتمبر

لا أفهم أحياناً كيف يقدر انسان آخر أن يحبها أو يجرؤ على أن يحبها ، وهى التى سكنت قلبى ، واستأثرت بحبى ، فلا أعرف ولا أحس ولا أرى غيرها فى هذا العالم !

٤ سبتمبر

ما أشبه حالى بحال الطبيعة ! هى تجنح الآن الى الخريف ، وأنا كذلك أرى آثاره حولى وفىّ ، فتلك أوراق الشجر تتناثر وتهوى ،

وهذه أوراق آمالى تتساقط وتذوِى !

أما تذكر أنى حدثتك يوماً عن فتى قَروى عرفته فى أول عهدى بالمقام هنا ؟ لقد سألت عنه هذه المرة فى وَلْهِم فقيل لى إنه طرد من عمله ولا يعلم أحد ماذا كانت عاقبة أمره ؛ وقد اتفق انى قابلته أمس فى طريق إحدى القرى فسألته عن حاله فقص علىَّ ما جرى له . فحرك أوتار قلبى ، وأثار شجون نفسى ، وستجد ذلك فى نفسك اذا ما أعدته عليك . ولكن ما الفائدة من ذكر هذا الحادث لك ؟ ولِمَ لا اكتم فى نفسى ما يهمها ويغمها ؟ لماذا أولمك معى وأفتح لك فى كل ساعة طريقاً الى رثائك لى وتأنيبك إياى ؟ ولكن ما الحيلة ؟ ربما كان ذلك أيضاً من شقاء جدى ونكد حظى

أخذ هذا الرجل بادئ ذى بدء يجيب على أسئلتى بهدوء محزن يخالطه شىء من الوجل على ما أظن ؛ ولكنه ما لبث غير قليل حتى عرفنى فعرف نفسه وخرج عن تحفظه وانقباضه ، واعترف لى بخطيئته ، وأخذ يسهب فى شرح مصيبته ، وأشهد الله انى عاجز عن نقل كلامه اليك بشدة تأثيره وقوة تصويره . حدثنى عن سيدته وهو مسرور سعيد بذكرها وذكراها ان غرامه بها كان ينمو على الايام ويقوى على الزمن حتى بلغ به حد الذهول ، فلم يعد يعلم بعد علمٍ شيئا . عافت نفسه الطعام ، وجفَت عينُه الكرى ، وكرَب صدرَه الخُناق ، وعمل ما لا يجب أن يعمله ، وأهمل ما لا ينبغى أن يهمله . وأصبح كأن روحاً

شريرة تصرفه وتسيره . ففى ذات يوم علم أنهـا فى غرفة من غرف الطبقة العليا من البيت ، فصعد اليهـا مدفوعاً بقوة لا تدفع . وأخذ يتلو بين يديها صلواته وتضرعاته ، فما أثرت فيها الا كما تؤثر هَبَّةُ الريح فى الصخر الأصم. فأراد أن يخضعها اليه كرهاً ، ولا يدرى كيف كان ذلك ، وانما يشهد الله على أنه لم يرد بها سوءا ، بل أراد أن تكون له زوجة يسعد بقربها وينعم بحبها

وقف بعد أن تكلم طويلا وقفة من احتبس فى نفسه شىء لم يجرؤ على قوله . ثم كاشفنى وهو خجلان بما رخصت له فيه من الدالَّة الخفيفة ، والمباسطة القليلة ، والمؤانسة اليسيرة ، وقد قطع الحديث مرتين أو ثلاثاً ليستدرك على نفسه بأنه لم يقل ذلك القول غضاً منها ولا زراية عليها . وانه ما زال يحبها ويجلها ، وانه لم يفه بذلك الحديث الا ليقنعنى بأنه غير فاسق ولا أحمق . وهنا أعود ياصديقى الى أغنيتى القديمة وأرجع الى قولى الأول : أنى أعجزما أكون عن تصوير هذا الرجل كما رأيته وكما أراه الآن ، وعن شرح أمره لك شرحا تعلم منه مقدار عطفى عليـه فى محنته ، ومساهمتى اياه فى نكبته . ولكن مالى أبعد الامر عنك وحالى لك معلومة وحظى فى ذهنك واضح ؟ وانك لتعلم رثائى للبائسين وحدبى على المنكوبين ، ولا سيما أمثال هذا الرجل

أعدت النظر فى هذه الصفحة فوجدتنى قد نسيت أن أذكر لك خاتمة الحكاية وان كان من السهل عليك أن تتخيلها . فأن المرأة

هبت للدفاع عن نفسها، وهرع اخوها الى نجدتها ، وكان يبغض الفتى من قبل ويتمنى ألا يكون فى البيت حتى لا ترغب أخته فى زواج جديد يحرم اولاده الميراث الذى بنوا عليه سعادة مستقبلهم، فلم يتردد لحظة فى طرده ، وأخذ يتقول البهتان و يتزيد فى الحديث ويهوّل فى الأمر حتى قطع على أخته الطريق الى استرجاعه متى أرادته . فاستبدلت به خادماً كان سبباً فى اضطرام الخصام بينها و بين أخيها .لأنها عقدت النية على ان تتزوج منه كما يؤكد العارفون . وقد قال لى صاحبى إن ذلك لن يكون وهو حى

ذكرت هذه الحكاية على وجهها دون تزيد ولا مبالغة ، ولم أحاول أن أنمقها أو أرققها ، بل أرى أنى أضعفتها وسخفتها وجعلتها جافية نابية بما استعملت فيها من العبارات الخاصة بلغتنا الرقيقة المهذبة !

لم يك هذا الحب ولا تلك السعادة ولا ذاك الهوى تلفيق كاتب ولا اختلاق شاعر . بل وجد كل ذلك على غاية من الاخلاص والنقاء فى نوع من الناس نسميه نحن معاشر المتمدينين المهذبين فظ الأخلاق وحشى الطباع !...

نشدتك الله أن تقرأ هذه الحكاية بتدقيق وروية . فقد كتبتها اليك وأنا هادئ ساكن ، ولعلك ترى أثر ذلك فى خطى فانه لا يشبه نبش الدجاج كما عهدته . أقرأ يا وليم وفكر تجد هذه الحكاية أشبه بحكاية أخيك . فهذا ما أشعر به اليوم وذلك ما سألقاه غداً . على

انني لم أوتَ من الاقدام والعزيمة شطر ما أوتى ذلك البائس المسكين الذى أقارن نفسي به

٥ سبتمبر

عاقت زوجها فى الريف عُدَواءُ الأشغال فلم يحضر. فكتبتْ اليه بطاقة بدأتها بهذه الكلمات : « عزيزى الكريم وصديقى الحميم ! أسرع فى العودة ما استطعت ، فانى أنتظرك بصبر قليل وسرور كثير » . ثم جاءها صديق فأبلغها أن ألبير عاقته العوائق عن تبكير العودة ، فتركت البطاقة فى مكانها حتى وقعت فى يدى مساء ذلك اليوم ، فقرأتها ثم ابتسمت . فسألتنى عن سر ابتسامى فقلت لها : « آمنت أن المخيلة أجلُّ منح الله وأسنى هباته . لقد استطعت بفضلها أن آتخيل أن هذه البطاقة كانت مكتوبة الى» فأمسكتْ عن الحديث وتبينت فى وجهها الكدر فسكت

٩ سبتمبر

لقيت من الجهد ما لقيت فى حمل نفسى على خلع هذه « السترة » الساذجة الزرقاء التى لبستها يوم رقصت مع شرلوت أول مرة . على أننى ما خلعتها الا بعد ان حال حالها ، واستحال استعمالها ، وخادعت نفسى فاتخذت سترة تشاكلها طرازاً ولوناً ولبستها على صدار وسروال أصفرين كاللذين كانا علىَّ يومئذ . ولكن هذه الحلة على شدة

مشابهتها لتلك لم تؤثر فى نفسى تأثيرها ، ولم تسرّ قلبي سرورها . وما أدرى لعل هذه الحلة على تراخى الزمن تحل من قلبى محلها ، وتصبح عزيزة علىّ مثلها

١٢ سبتمبر

غابت عن البلد أياماً تطلب ألبير فى الريف . فلما عادت دهبت أزورها نخفّت لمقابلتى ، ومدت يدها الى فقبلتها سكران من حميَّا الطرب . ثم طار كَنارِى ٌّ من فوق المرآة فوقع على كتفيها ، فقالت وهى تستنزله على يدها بالملق والرفق : صديق جديد استخلصته لأطفالى ! لله ما ألطف وما أجمل ! أنظر اليه ! انى حين أقدم اليه الخبز ينقره بلطف وهو يصفق بجناحيه. ثم يقبلنى أنا أيضاً . أنظر! » وأدنته من فمها ، فأقبل العصفور الأنيق على شفتيها الورديتين ينقرهما عجلان ملتذاً كأنما يشعر بتلك السعادة التى يتذوقها ويجنيها . ثم قدمته الى وقالت : لابد أن يقبلك أنت أيضاً . فمر منقار العصفور من شفتيها الى شفتى و نقرنى نقرة سرت فى جسمى سريان النسيم ، وأشعرتنى ببوادر اللذة والنعيم . ثم قلت لها : ان قبلاته لم تخل من معنى ولا غرض فلعله يطلب القوت و يبحث عنه ، وأرى ان هذه المداعبة لا تغنيه من جوع . فقالت : « انه يأكل طعامه من فمى أيضاً » ثم مدت اليه بعض الفتات على شفتيها المفترتين عن ابتسامة حلوة تمثلت فيها لذة

الحب السعيد ، وعذوبة الحنان البرىء . فوليت عنها بوجهى اتقاء لهذا السحر وقلت فى نفسى : حرام عليها كل هذا ! وما ينبغى لها أن تهيج وجدانى بهذه المناظر مناظر البراءة القدسية والسعادة العلوية ! ولا يجوز أن توقظ قلبى كلما أنامته سخافات الحياة حيناً بعد حين . . . . ولم لا تفعل ؟ انها وثقت بى جِدَّ الثقة ، وعلمت أنى أحبها كل الحب

١٥ سبتمبر

ولم ! انى ليحزننى أن أجد فى الناس من لا تبلغ به كفايته الى تقدير ما على الارض من الأشياء القيمة النادرة . لعلك تذكر شجرتَىْ الجوز اللتين تفيأتهما أنا وشرلوت فى منزل القَسِّ يوم زرناه ، تينك الشجرتين اللتين كانتا تملآن قلبى بما خلص من سرور ولذة ، وتفيضان على الفناء ما شاء الله من رخاء ونعيم : أغصان فينانة جميلة ، وظلال وارفة ظليلة ، وذكريات جمة عذبة ترجع بالمرء الى عهود أولئك القسس الكرام الذين غرسوهما . ولطالما ذكر لى معلم القرية اسم قسيس منهم حدثه جده عن صفاته الجليلة ، وأخلاقه النبيلة ، فكانت ذكراه تتمثل فى خاطرى جميلة طيبة كلما تفيأت هاتين الشجرتين . أتدرى ما فعلت يد الأحداث بهما ؟ حكى لنا بالأمس معلم القرية انهما قطعتا . وايمن الله لقد كان الدمع يجول فى عينيه وهو يتحدث . قُطعتا ؟ عجيب ما أسمع ! انى ليخيل الى أن لو رأيت فى غضبى

ذلك البهيم الذى مديده اليهما بالقطع لأوردته حياض المنية . كيف لا ولو كان فى فنائى مثل هاتين الشجرتين ثم أذوى احدهما الكبَر للبست عليها ثوب الحداد ، وقامت عندى قيامة الحزن ، فكيف أطيق الصبر على مثل هذا المنظر ؟

على أن ما يعزينى يا صديقى هو شعور الانسان وإدراكه لمواطن الكمال ، وامتعاضه لتشويه صور الجمال ، فقد أخذ أهل القرية أجمعون يتذمرون ، وعسى أن يكون فى حرمانهم امرأة القسيس هدايا السمن والبيض احتجاج على ما جرته عليهم من الضرر ؛ ذلك لأنها هى التى اقترفت ذلك الأثم . ولا تحسبنها زوجة صديقنا القسيس الشيخ فقد لحق بربه ، وانما هى زوجة القس الجديد الذى خلفه ، وهى امرأة عجفاء معروقة العظم مِسْقامة فظة الطبع لا تألف ولا تؤلف ، حمقاء تدعى العلم وتشارك فى درس قوانين الكنيسة ، وتعمل بجد فى اصلاح قواعد الانتقاد الخلقى فى المسيحية على آخر طراز ، وترفع كتفيها ساخرة بخرقة (لاڤاتر)[1] وتُرَّهاته ! وقد تخوَّنها السقم وهدها المرض حتى لم تجد فى أرض الله موضعاً لسرور ولا موطناً لفرح

فترى أن مخلوقة على هذه الصفات حرية أن تجتث شجرتَىّ من أصلهما : تزعم أن الأوراق الساقطة تلوث الفناء وترطب جوه ،

---

(١) لافاتر Lavater عالم من علماء الدين وفيلسوف من فلاسفة الالمان وشعرائهم . له رأى كبير فى علم الفراسة ومؤلف صخم فيه (١٧٤١ — ١٨٠١)

وأن الاغصان تحجب عنها ضوء النهار ، وأن الجوز اذا ما أينع قذفه الاطفال بالحجارة فيهيجون أعصابها ، ويزيدون أوصابها ، ويهوّشون عليها وهى غارقة فى الموازنة بين كينيكوت[1] وسملر وميخائيلس

ولمـا رأيت الامتعاض والأسف باديين على وجوه القرويين ولا سيما شيوخهم ، قلت لهم : « ولمـاذا تحملون هذا وتقبلونه ؟ » « فقالوا : ان الأمر فى الريف للعمدة : اذا أراد فلا دافع لارادته ، واذا حكم فلا معقب لحـكمه »

على أن الله عزّ اسمه لم يشأ أن يهنأ الغانمون بالغنيمة ، فقد أراد القسيس أن يستفيد هذه المرة من عبث امرأته ، فواطأ العمدة على أن يقتسما ثمن الشجرتين ، ولـكن الخبر نُمِىَ الى إدارة الأملاك فقالت لهما : مكانكما ! وباعت الشجرتين بالمزايدة ورجع صاحبانا بصفقة المغبون . آه لو كنت أميراً ! اذن لعرفت كيف أعامل امرأة القس والعمدة وادارة الاملاك . أمر غريب ! أتمنى أن أكون أميراً ولو كُنْتُهُ لما همنى كل ما فى إمارتى من شجر !

١٠ اكتوبر

غاية السعادة عندى أن أنظر الى عينيها الدعجاوين . وأشد ما

---

(١) كينيكوت عالم دينى انجليزى (١٧١٨ — ٨٣) وسملر عالم دينى المانى (١٧٢٥ — ٩١) وميخائيلس فيلسوف المانى بحاثة (١٧١٧ — ٩١)

يؤلم نفسى أن ألبير لم تبدُ عليه دلائل السعادة التى كان يرجوها . . . وإنى على ما أعتقد أكون أسعد الناس . . . . لو . . . . أنا لا أحب تقطيع جملى ولا تجزئة كلامى ، ولكنى فى هذه المرة لا أستطيع التعبير عن ضميرى بغير ذلك . ويظهر لى أن هذا الكلام شديد الوضوح

١٢ اكتوبر

حل أُسْيان(١) من قلبي محل هوميروس . ويالله أىُّ عالمَ جلت فيه ورُدته فى شعر هذا الشاعر السامى ! عالم كله جلال وروعة ! تجدنى أجول فيه بين أشجار الخَلَنْج(٢) والعواصف الهُوج تزْجى السحائب الدُّجْن فى ضوء القمر الشاحب ، فأرى خلالها أشباح آبائه وأجداده ، وأسمع من قمم الجبال بين هدير السيل الجارف أنين أولئك الأرواح فى أجواف مغائرها ، وتأوُّه تلك الفتاة اليائسة الولْهى وهى تُريق بنفسها من الألم جاثية على الصخور الأربع التى

---

(١) أسيان شاعر ارلندى عاش فى القرن الثالث للميلاد ، وهو ابن فنحال ملك (مورقن) وقد نسب اليه الشاعر الارلندى ماكفرسون ديوان شعر ونشره تحت اسمه فى عام ١٧٦٠ . وهو شعر تنبجس منه العبرات ، وتنعقد فوقه الحسرات ، ستقرأ منه فى أواخر الكتاب نشيداً ترجمه ورتر لشرلوت

(٢) الخلنج La bruyère شجر كالطرفاء زهره أحمر وأصفر وأبيض وحبه كالخردل . ينبت فى الارض البور

ضمت عظام حبيبها ، ذلك الحبيب الباسل الذى مات ميتة الابطال فى معركة شعواء دامية ! ثم ألتقى بذلك الشاعر الأشيب وهو يجوس مغارس الخلنج ويجوب سهول الأرض ، منقباً عن آثار أجداده ، فلا يجد وا أسفى عليـه إلا مصارعهم من البلى ، ومضاجعهم تحت الثرى ، فيرُجع بصرَه حينئذ حزنان شاكياً الى كوكب المساء الزاهر وقد اختفت اضواؤه بين أحضان الأمواج المتلاطمة ، فتعود الى مخيلته ذكرى العهود الماضية والعصور الخالية ، أيام كان ذلك الكوكب ينير للأبطال طريق المخاطر ، ويبدد عنهم بضيائه ظلام المخاوف ، ويَصُب القمر أنواره الفضية على سفنهم وهى عائدة يحدوها النصر ، وتزينها أكاليل الزهر ، فتفعل الذكرى فى قلبه ما تفعل . وأقرأ فى أسرار وجهه أثر الحزن العميق والهم المبرّح ، وأرى ذلك الشاعر الكريم وهو آخر نبعة من غيضته وحيداً على الارض يتقدم الى القبر بخطى مضطربة وأقدام متعَبة ، ويجد فى استحضار طيوف آبائه فرحاً جديداً وسروراً مؤلماً شديداً ، ثم يرسل نظراته الى الارض الباردة والاعشاب الطويلة المضطربة فى يد الريح ويصيح : « ان المسافر الذى عرفنى فى شيبتى وجمالى سيأتى ويسأل : أين الشاعر ؟ أين ذهب الشريف ابن فنجال ؟ ثم يسير واطئاً لحدى بقدميه باحثاً عنى فوق الارض سدى ! »

ياويلتا ليتنى ياصديقى وأنا أحترق بهـذه النار المقدسة فعلت

كما يفعل التابع الأمين الشجاع : أجرد سيفى وأنقذ أميرى بضربة واحدة من حياة بئيسة وموت بطيء ، ثم أرسل نفسى وراء هذا البطل المقدس الى ذلك الملكوت الأعلى !

١٩ اكتوبر

يا لله ! أى فراغ مروّع أجد فى صدرى ! وأى وحشة مخيفة أحس فى قلبى ؟ آه لقد أقول لنفسى أحياناً : « لو استطعت أن أضمها الى صدرى مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر ، اذن لامتلأ ذلك الفراغ ولزالت هذه الوحشة »

٢٦ اكتوبر

أجل يا صديقى ، تزيدنى الأيام يقيناً بأن وجود الانسان فى هذه الأرض شيء تافه وأمر يسير . جاءت الى شرلوت احدى صواحبها تزورها ، فأخذتا تتناثان الحديث ، وذهبت أنا الى الغرفة المجاورة لغرفتهما أبحث عن كتاب فيها ، وأردت أن أقرأ فامتنعت منى القراءة ، وسمج فى عينى الكتاب. فتناولت القلم و بدأت أكتب فسمعتهما تتحدثان بصوت خافت : تذكران من أخبار المدينة ما لا شأن له ولا خطر. قالت الزائرة : « فلانة مقدْمة على الزواج بعد قليل ، وفلانة الأخرى مريضة مثْقلة تسعل سعالاً جافًّا ، وتكاد عظمتا وجنتيها تخرقان الاهاب ، وأرى جسمها الواهن يذوب ولا

يثوب، ولا أراهن على حياتها بدانق » . وقالت شرلوت : « إن السيد . . كذلك أصابتـه علة فادحة » فأجابتها الأخرى : « نعم ! أنه منتفخ وارم »

فطارت بى مخيلتى الى أسـرة هؤلاء البائسين المحتضرين فرأيتهم كيف يُدْبرون عن الحيـاة آسفين ، و يقبلون على الموت خائفين ، ولاحظت أنهم . . . . . وليم ! إن هاتين الفتاتين تتحدثان عن أولئك الأصـدقاء والأقرباء حديث المرء عادة عن موت رجل غريب . . . .

كذلك أقلب النظر حولى فى هـذه الغرفة فأرى فى كل جهة ملابس شرلوت وأوراق ألبير ، وأنظر ذلك الأثاث الذى ألفته كله حتى هذه الدواة ، فأقول لنفسى : (أنظر يافرتر الى مكانك فى هذا البيت ، وإلى محلك من قلوب أهله ! أنهم جميعاً يجلونك ويكرمونك ، ولا تهنأ لهم كأس الصفاء دونك . تُدخل المسرة على قلوبهم ، ويكاد قلبك لا يخفق الا بوجودهم . ولـكن ليت شعرى اذا بعدت عن هذا البيت ، وخرجت من هذه الحلقة ، أيشعرون بذلك الفراغ الذى أحدثه بُعدك ، ويحسون ذلك النقص الذى أوجده فقـدك ؟ واذا شعروا بذلك فهل يدوم هذا الشعور طويلا ؟ »

وا أسفاه ! أن الانسان لسريع الزوال : يمحّى ويزول حتى من المكان الوحيد الذى يتأكد فيه وجوده ، وتثمر فبه عواطفه وعهوده ،

يزول من ذاكرات أحبائه، وقلوب أعزائه، وذلك واحسرتاه يحدث في أسرع ما يكون !

٢٧ أكتوبر

يقوم بنفسي أن أمزق صدري ورأسي كلما رأيت الناس لا يغني بعضهم عن بعض شيئاً. فلا يستطيع أحدهم أن يمد الآخر بشعاع من فكره، ولا عاطفة من قلبه، ولا أثارة من حبه. وهل في قدرة انسان أن يَحْبوَنى الحب والمسرة والحرارة واللذة اذا ما عدمت ذلك في نفسي؟

وهل في قدرتي أنا وقلبي فياض بالغبطة والسعادة أن أسعد أنسانا آخر قد وقف أمامي جامداً بارداً لا قوة فيه ولا حساسة ؟

٢٧ أكتوبر مساء

لا يزال عندي من موارد الحياة ومذخور القوى مدد وَفر ؛ ولكن هواها يبتلع كل شيء ! أجل ! لا زلت أملك كثيراً، ولكن الكثير بدونها قُلّ، والوجود بغيرها عدم

٣٠ أكتوبر

كم مرة هممت أن أضمها الى صدري، وأطفئ باثمها حرارة

قلبى ! رباه ! لا يعلم غيرك ما يكابد المرء من ألم ، وما يعانى من برَح ، كلما رأى هذا الجمال الساحر يذهب أمامه ويجىء وليس من حقه أن يمد يده اليه ! على أن الغريزة البشرية تدعوه الى تلك الحركة وتدفعه . أو ما رأيت الأطفال يجهـدون أن ينالوا كل ما وقع تحت حواسهم وأدركوه بمشاعرهم ؟ — وأنا ؟

٣ نوفمبر

علم الله أنى كثيراً ما أرقد وأنا أود وأرغب ، بل آمل وأرجو ، ألا أستيقظ . فاذا تنفس الصبح واكتحلت عيناى ثانية بضوء الشمس شعرت بحزن عميق و بؤس شديد . آه ! ليتنى أصبح فريسة للأهواء وطعمة للسوداء ! أو ليتنى أستطيع أن أحمـل ذلك الخطأ على دهر أساء و إنسان عدا ومسعى أخفق ! اذن لخف عنى ذلك العبء الفادح عبء الشقاء والحزن الذى أنقض ظهرى ، وأحرج صدرى . واويلتاه على ! أنا جازم بأنى المتجرم على نفسى . لا لا ! ما كنت متجرماً ولا آثمـا . وإنما كنت على الأقل مصدراً لشقوتى و بلائى ، كما كنت قبل اليوم منبعاً لغبطتى ورخائى . أجل لم أعد ذلك الرجل الذى كان يسبح آنفاً فى فيض من الوجدان ولُجّ من العواطف ، وتتجلى له فى كل خطوة من خطواته جنة بهيجة ، ويرى قلبه أهلا لأن يجد فى الحب عالماً بأسره . مات الآن ذلك القلب وغاضت ينابيعه ، فلم يعُد

بجيش بالاعجاب والذهول والحميَّة ، وجفَّت شئون عيني فما تَبِضُّ بقطرة ، وذوت حواسي حين لم يَسْقها الدمع البَرُود ، وضافني الهم وساورني القلق فتخدد جبيني وجف ماء شبابي . أنا أتألم جد الألم لأني فقدت ما كان يجعل حياتي بهيجة لذيذة ، فقدت تلك القوة المقدسة المنعشة التي كانت تخلق حولي عوالم كثيرة ! فتجدني الآن إذا اطّلعت من النافذة فرأيت عروس الصبح تخترق أشعتها حجب الضباب فوق الهضاب البعيدة ، وتضيء مروج الوادي الخالية الصامتة ، وأبصرت النهر الهادئ يسعى الهَّ منساباً بين أشجار الصَّفصاف العارية انسياب الافعوان ، أقف وقفة المتعجب المرتاب أسائل نفسي : لِمَ أصبحت هذه الطبيعة الجميلة أمامي باردة خامدة كأنها صورة مطبوعة ملونة ؟ وكيف لا يستطيع كل ما أرى من جمال وسحر أن يحمل القلب على أن يرسل الى المخ قطرة واحدة من الهناءة والغبطة ؟ لقد بلغ بي ذلك أن أقف أمام الخالق كأنني الوعاء الفارغ والينبوع الناضب ! ولطالما خررت ساجداً أجأر بالدعاء اليه أن يجود عيني بالمطر ، كما يستسقي الفلاح الغمام إذا رأى السماء قد أماطت عن وجهها قناع الحياء ، ووجد الارض فد أجهدها العطش وأعوزها الماء

على أني أشعر وا أسفاه أن الله لا يمنحنا المطر والصحو بتلك الاسئلة الملحفة والأدعية المزعجة . وما كانت تلك الأزمن اللائي أتحسر عليهن سعيدة إلا لأني كنت أنتظر نعم الله بالاناة والصبر ،

وأتقبل النعيم الذى يغدقه علىّ بالحمد والشكر

٨ نوفمبر

لقد لامتنى على سرفى وإفراطى ، ولـكنْ برقة ولين وعطف ! قالت لى وقد رأتنى منذ أيام أشرب الكاس إلهاء وتسلية فأمعن فى الشراب وأسترسل حتى آتى على ما فى الزجاجة : (خل عن هذا وفكر فى شرلوت) . فقلت لها : أفكر فيك ؟ وهل تحتاجين الى أن تأمرينى بذلك ؟ أنا أفكر . . . .كلا لا أفكر ، وانما أنت دائماً نُصْب عينى وأمام نفسى ، حتى فى صباح هذا اليوم كنت جالسا فى الموضع الذى نزلت فيه من المركبة آخر مرة » فعطفتُ الحديث الى جهة أخرى حتى لا أسترسل فى هذا الموضوع

آه ! لقد ضاع رشدى يا صديقى ، وإنها لتصنع بى ما تريد ، وتتخذ منى ما تشاء !

١٥ نوفمبر

أشكر لك ياوليم ولاءك الصادق ونصحك الخالص، وأناشدك الله أن تخفض عليك جأشك وتدعنى أشرب الكاس حتى الثُّمالة . فلا يزال فىّ على الرغم من مشقتى ولُغوبى فضل من القوة يمسكنى الى غاية الأمد

أنا أعظم الدين وأجلُّه كما تعلم ، وأعتقـــد أنه السند الأقوى للنفوس الوانية ، والمورد العذب للقلوب الصادية . ولكن . . . . قل لى بربك أيستطيع أن يكون كذلك لجميع النفوس ؟ أجِلْ بصرك فى هذا العالم الفسيح تجد ملايين من الناس ما أجدى الدين ولن يجدى عنهم شيئاً ، سواء أوعظوا به أم لم يوعظوا . ألم يقل المسيح نفسه إن الذين وهبهم الله له سيكونون معه ؟ فليت شعرى ماحالى اذا كان الله قد استخلصنى لنفسه ولم يهبنى له كما يحدثنى بذلك قلبى ؟ . . . . أعيذك بالله أن تفهم كلامى على الخطأ أو تحمله على التهكم ! فما أردت الا أن أكشف لك عن دخيلة نفسى . ولولا ذلك لآثرت الصمت ضناً بكلامى أن يذهب ضياعاً فى موضوعات يجهلها كل انسان مثلى . ولعمرى ما نصيب الانسان من حياته ؟ هل نصيبه الا أن يحمل عبء الشقاء ويَشْتَفَّ كأس الألم ؟ واذا كان رب السموات والأرض قد استمر(١) هذه الكأس واجتواها(٢) حين وضعها على شفته البشرية ، فكيف أتظاهر بالجلد ، وأتستر بالرياء ، وأدَّعى أن هذه الكأس عذبة سائغة ؟ لماذا أخجل اذا رجفت قوائمى فرقاً من هول تلك الساعة الرهيبة ، ساعة يرتعد جسمى بين الوجود والعدم ، ويلمع الماضى فى هوة المستقبل المظلم لمعان البرق فى حلك الليل ، وينخسف كل ما حولى من الأشياء

---

(١) وجدها مرة (٢) عافها وكرهها

ويبيد ، ويقبر معى العالم بعافيه أجمع ! ألم يسمع الناس ذلك المخلوق (١) المثقل المكروب يقول وقد رأى نفسه يتردى فى الهاوية دون أن تنفعه حيلة ، أو تغنى عنه وسيلة : « رباه رباه لماذا تركتنى ؟ ! » فهل أستحى بعد ذلك أن أهتف بهذه الجملة فزعاً من تلك اللحظة التى لم يَنْج منها رب السموات الذى يطويها طى السِّجِل للكتاب ؟

٢١ نوفمبر

شرلوت لا ترى ولا تشعر أنها تجهز السم الذى سيهلكنى وإياها معا ؟ وأنا أعُبُّ ذلك الشراب المشئوم بشغف ولذة . وإلا فماذا تقصد بهذه النظرة الحنون التى تلقيها على غالباً ؟ غالباً ؟ كلا بل أحياناً . وماذا تريد بهذا التساهل فى قبول ما يبدر منى أثناء الكلام فى شرح عواطفى ! ولماذا أقرأ فى جبينها الرثاء لمصابى ، والاشفاق علىّ من أوصابى ؟ وأعجب من هذا أنى لما أردت الانصراف من بيتها أمس مدت الىّ يدها قائلة : (مع سلامة الله ياعزيزى ڤرتر) عزيزى ڤرتر ! ؟ تلك كانت أول مرة دعتنى فيها **عزيزا**. فتمشت حُمَيَّا هذه الكلمة فى أعضائى ، وأخذت أرددها وأعيدها التذاذا بذكرها ، وانتعاشاً بسكرها . وفى المساء حينما أويت الى مضجعى واستسلمت

---

(١) يريد بذلك المخلوق المسيح عليه السلام ساعة صلب

لأحاديث النفس ، وهواجس الفكر ، بدَرت منى هذه الجملة : (لِيَهْنِكَ النوم ياعزيزى ڤرتر) فلم أتمالك أن ضحكت من نفسى ، وسخرت من أمرى

٢٤ نوفمبر

انها تشعر بألمى وشقائى ، وتدرك سبب همى وحقيقة دائى . ولقد نظرتْ الىَّ اليوم نظرة نفذت الى السواد من قلبى . وذلك أنى لقيتها فى البيت وحدها فوقفت حيالها موقف الابكم ، وأخذت هى تحدق النظر فى شخصى وتستقصيه ، وقد اختفى ما كنت أراه فيها من الجمال الساحر ، والذكاء النادر ، فلم يبق الا نظرات سامية ترسل الرثاء والشفقة ، وتفيض الحنان والعطف . ليت شعرى لِمَ لمْ أجرؤ على أن أرتمى بين قدميها ؟ لم لمْ أجرؤ على أن أطوق عنقها بذراعىّ وأجاوبها بلسان القبلات على هـذه النظرات الوديعة ! . . . ثم رجعتْ بصرها اليها ، وفزعت إلى بيَانها فغنت عليه أنشودة جميلة مؤثرة بصوت أحلى من الأمانى وأعذب من نسمات السحَر

لم أر كاليوم شفتيها مهبطا للسحْر ولا مسقطا للجمال ! لقد كان يخيل إلىّ أنها تنهج ، وأن شفتيها لا تنفرجان الا لتِتَنَسَّم النغمات الحلوة الصاعدة من البيان ، وأن فمها النقى الطاهر لا يردد الا صدى هـذا النغم السماوى العَذب. آه لو كنت أستطيع أن أقول لك ذلك كما أحسه!

لم أقو على مقاومة ذلك طويلا فخضعت وأذعنت ، وأخذت على نفسي هذا الموثق : « أبداً لا أدنسكما بالقبل أيتها الشفتان اللتان تطير عليهما أرواح السماء » على أنني أريد . . . . آه لكأنى أرى أمام نفسي حائطا يحجزها عما تريد ! أريد أن أذوق هذه السعادة ثم أموت تكفيراً عن هذه الخطيئة . . خطيئة ؟

٢٦ نوفمبر

أقول لنفسي أحياناً : يانفس أنت واحدة النفوس في هذا الحظ، وأولئك الناس حولك تستطيعين أن تعدّيهم سعداء ، وهيهات أن تجدي فيهم من شرب من نقيع الحنظل ما شربت . فاذا ما قرأت لشاعر من الشعراء الأقدمين خيل الى أني أنظر في قلبي ، وأقرأ صحيفة لي ، فيهيج بي الوجد ويشتد عليّ الألم وأقول : والهفتاه ! هل كان فيمن تقدمني من الناس من لقي من أرزاء الدهر وبأساء الحياة ما لقيت؟

٣٠ نوفمبر

هيهات هيهات أن أرجع لنفسي وأعود لحسي ! فحيثما أوجّهْ ألقَ خيالاً يهد عمادي ، ويذهب رشادي . اليوم ! ياللَحظ ! ياللَانسانية ! اليوم وجدت بي إفهاءً[1] عن الغداء فخرجت فبيل

(١) أقهى عن الطعام كرهه ولم يشتهه

الظهر أتنزه على ضفة النهر ، وكانت الحقول صامتة موحشة ، والريح الغربية تهب من ناحية الجبل بَلِيلَةً باردة ، والسحائب الجُون الممطرة تتراكم فوق الوادى طبقة فوق طبقة ، فرأيت رجلاً عليه طِمرٌ أَخضر يمشي منحنياً بين الصخور كأنما يبحث عن بعض أعشاب الجبل . فلما أحس خطاى التفت فاذا سحنة غريبة تنم عن حزن دخيل هادئ ، بَيْد أنها تنبئ عن نفس كريمة طيبة ، وشعرٌ جَثْلٌ أسود قد اتخذ منه عقيصتين لواهما بدبوسين فى مقدم رأسه ، ثم أرسل باقيه جديلة غليظة تنوس (١) فوق ظهره . فعلمت من هندامه وبِزّته أنه من أوساط الناس فلا يمتعض اذا دخلت فى أمره ، واستفهمته عن بعض شأنه . فدنوت منه ثم سألته عما يبحث . فتنهد تنهداً عميقاً ثم قال : « أبحث عن زهور ، ولكنى لا أجد منها شيئاً » فقلت له باسماً : ذلك لاننا فى غير فصل الزهور . فقال الفتى وهو يدنو منى : « بلى إن فى الرياض زهوراً كثيرة . وفى حديقتى وُرود شتى ونوعان من زهر العسل أعطانى أحدهما أبى ، وهو ينبت كما ينبت النجيل ، ومنذ يومين أبحث عنه فلا أجده . كذلك عندى فى كل آن من الازهار الأصفرُ والأَزرق والأحمر والقنطاريون ذو الزهيرات الجميلة . على انى لا أجد من كل ذلك شيئاً »

فلاحظت فى هيئته ولهجته شيئاً غريباً خفياً ، فسألته بعد أن

(١) تتحرك

لويت الحديث : وماذا تصنع بهذه الزهور ؟ فقال وقد علت شفتيه ابتسامة غريبة ووضع إصبعه على فمه : «لا تنم عليّ ولا تَخنّى : سأصنع من هذه الزهور طاقة لحبيبتى » فقلت له : هذا منك حسن جميل . فقال لى : « إن عندها أشياء كثيرة ، إنها غنية ! »

— وهل هى مع ذلك تحب طاقاتك ؟

- أَوه ! ان عندها حُلياً وتاجاً

— وما اسم هذه الحبيبة ؟

— لو شاءت الجمعية [1] العمومية أن تنقدنى ما أريد من المال لكنت اليوم رجلا آخر . ولقد أتى عليّ زمن كنت فيه رخى الصدر مثلوج الفؤاد . أما الآن فقد قضى الأمر وأصبحت . . . . » ثم رفع الى السماء طرفه الباكى فعبر بهذه الحركة عما يريد . فقلت له : اذن لقد كنت سعيداً . فقال : « لا أود الا أن اكون كما كنت : لقد كنت جذلان رافهاً مرِحاً كأنى السمكة فى الماء » وإنا لكذلك اذ رأيت عجوزاً تتقدم الينا وهى تنادى : هنرى ! أين أنت يا هنرى ؟ لقد طلبناك فى كل مكان فما وجدناك . هلم الى الغداء . فتقدمت الى العجوز وسألتها : هل هذا ولدك ؟ فأجابت : نعم ولدى واحسرتاه عليه ! لقد فجعنى الدهر فيه فجيعة أليمة . فقلت لها : وكم لبث فى

---

(١) الجمعية العمومية Les états généraux هى ما كانت تمثل فى تلك العصور طبقات الامة الثلاث : الاشراف والكهنة والعامة

هذه الحال ؟ فقالت : لله الحمد ! عاوده منذ ستة شهور هدوءه وسكونه . أما قبل هذه المدة فقد لازمه الهياج الشديد سنة كاملة قضاها فى البيمارستان مقيداً مغلولا . وها هو ذا الآن وديع هادئ لا يؤذى أحداً ولا يضر مخلوقاً . غير أنه يشغل باله ووقته بذكر الملوك والأباطرة . عهدى به غلاماً باراً وديعاً يعيننى على اكتساب القوت واحتمال العيش بخفة يده وحسن خطه ، فاذا به قد تحول فجأة الى تفكر عميق وانقباض محزن ، ثم الى حمّى صالب وهذيان مستمر ، ثم انقلب الى ما تراه عليه الآن . لو كنت أستطيع أن أقص عليك يا سيدى كيف . . . . »

فجزتُ سيل هذا الكلام الدافق بقولى لها : « وما أمرُ تلك الأيام التى يزعم أنه كان فيها سعيدا ؟ » فجرت على شفتيها ابتسامة الاشفاق والرحمة وقالت : وارحمتاه لهذا المجنون ! إنه يرمى الى تلك الأيام التى كان فيها مستلب العقل فاقد الشعور ، أيام كان فى البيمارستان مُدَلّهاً غائب الرشد ! تلك أيام لا يبرح آسفاً عليها مَشُوقاً اليها فخوراً بها »

فوقع هذا الخبر على سمعى وقوع الصاعقة ، فوضعت فى يدها قطعة من النقود ثم توليت على عجل ميمماً نحو المدينة مردداً فى نفسى هذا الكلام : أهذه هى الأيام التى كنت فيها سعيداً ؟ أيام كنت طروباً مرحاً كأنك السمكة فى الماء ! رباه يارب السموات والأرض !

أ كذلك قضيت على بنى آدم ألا يكونوا سعداء الا قبل أن يُوهبوا العقل أو بعد أن يُسلبوه ؟

أيها البائس ! لَشَدَّ ما أحسدك على انقباضك الذى يَعزُلك ، وجنونك الذى يُنحلك ! أنت تخرج مملوءًا بالأمل تبحث لملكتك عن الزهور فى جوف الشتاء ! ثم تتألم لأنك لا تجد ، ولا تدرى لماذا لا تجد ! وأنا . . . . أنا أخرج بغير أمل ، وإلى غير قصد ، ثم أعود إلى البيت كما خرجت منه . . . . تتخيل أنك تكون رجلا آخر اذا شاءت الجمعية العمومية أن تعطيك المال الذى تريده . . . طوبى لك أيها المخلوق السعيد ! لقد استطعت أن تعزو شقاءك إلى أسباب دنيوية بشرية ، وجهلت أن فى قلبك المضطرم ومخك المضطرب علة شقائك ، ومصدر دائك ، وأن جميع ملوك الأرض لا يملكون لك شفاء ولا يدفعون عنك بلاء !

ألاَ أهلك الله باليأس رجلاً يهزأ بالمريض الذى يقطع الشُّقة البعيدة إلى المنبع السحيق الذى يزيد فى سقامه، ويضاعف آلام حمامه،

ولا أبقى الله على من تزدرى عينه ذلك المنكود الذى يحج البقاع المقدسة تنفيساً لكُربة نفسه ، وتفريجاً لشدة ألمه ، وتسكيناً لثائرة قلبه ، وتخلصاً من وخز ضميره ! أليست كل خطوة يخطوها فى هذه الطريق الوعرة نقطة مرهم تضمد جراح نفسه ، وكل ليلة يقضيها بعد هذا السير المُلْغِب تخفف من عناء بؤسه ؟

ذلك ما تجرؤن أن تسموه جنوناً ووهماً أيها المتشدقون المستلقون على وسائدكم الوثيرة الرّخصة ! جنون ووهم !

اللهم يا من ترى عبراتى المسفوحة ! أكان حقاً عليك أن تجعل للانسان — وقد خلقته بائساً ضعيفاً — إخوةً يحرمونه العزاء فى محنته وخَصاصته بسلبهم إياه ذرة الايمان بك والأمل فيك ؟ وهل اعتقادنا فى جذور الطب ، ودموع الكرْم إلا اعتقاد فيك ، وايمان بك وبما أودعته فيما يحيط بنا من خواص الشفاء والراحة التى نحتاجها فى كل آن؟

أيها الأب الذى لا أعرفه ! والإله الذى كان يشغل جوانب قلبي فيما مضى ثم ذوى الآن وجهه عنى ! ادعنى اليك وكلمنى ! لا تلزم جانب الصمت فان نفسى التواقة الصادية تشتهى أن تسمعك . أىّ والد يتحمله الغضب اذا رأى ولده يترامى بغتة بين حِضْنيه وهو يصيح : « هأنذا يا أبي قد عدت اليك ! فلا تحل غضبك علىّ اذا لم أُرِدْ أن أتم الرحلة التى حددْتها لى ارادتك . لقد وجدت العالم فى كل مكان هو العالم : عناء وعمل وجزاء ولذة . وماذا يجدى علىّ كل ذلك ؟ أنا لا أكون سعيداً الا حيث كنت ، ولا أريد أن آلم وألذ الا حيث أنت » فهل ترضى أيها الأب السماوى الرحيم أن تذود عن بابك ذلك الطفل المتوسل الضارع ؟

أول ديسمبر

ولْيم ! إن الرجل السعيد الشقى الذى حدثتك عنه فى الرسالة

الأخيرة كان كاتب سر لوالد شرلوت . وقد نبت حبها سراً فى قلبه ، ثم خبَلَه العشق ولجَّ به الهوى فأعلن المكتوم وأظهر المضمر ، فصرفه الوالد عن عمله ، وحال بينه وبين أمله ، فاعتراه مسٌّ ذهب بالبقية الباقية من عقله

هيهات أن تشعرك هذه الكلمات الجافة بما أصابنى من الذهول حين قص علىَّ ألبير هذه القصة بدم فاتر ولهجة باردة وحالة قد تكون أشبه بحالتك عند قراءتها !

٤ ديسمبر

حنانَيْكَ يا صديقى ! لقد انتقضتْ مِرَّتى ، وعجزت مُنَّتى ، وأصبحت لا أتمالك من الوجد ، ولا أتماسك من الجوى ! كنت اليوم جالساً بجانبها وهى توقع على بيانها ألحاناً مختلفة بما شاء الله من قوة تعبير ، وشدة تأثير ، وأختها الصغيرة تلبس عروسها الثياب على ركبتى . فاغرورقت عيناى بالدمع ، وطأطأت رأسى ، فوقع بصرى على خاتم الزواج فى يدها ، فتصببت عبراتى وسحَّت جفونى وما هو الا أن فجأتنى بتوقيع ذلك اللحن القديم العذب الذى أحبه حتى خف ما بى وسُرِّى عنى . بيد أنى تذكرت به الماضى ، وتفكرت فى تلك الأوقات التى كنت أسمع فيها هذا اللحن وما أعقبها من الأيام السود ، والآلام المُمِضَّة ، والآمال المخفقة ، فنهضت أمشى فى الغرفة ضيِّق النَفَس مكروب

النّفْس مشرد العقل ، ثم لم أتمالك أن دلفت اليها وتراميت عليها قائلا: « نشدتك الله ياشرلوت إلا كففت ! ! » فكففت عن العزف وحدقت النظر فيَّ وقالت باسمة : « فرتر ! إنك لاتعاف طعامك السّيغ الهنيء الا لمرض شديد . فأتوسل اليك أن تذهب فتهدىء روعك وتريح نفسك »

فخرجت من عندها ، و . . . . رباه ! انك ترى ما أكابد من عناء وحزن ، فاجعل لهذا الشقاء حداً

٦ ديسمبر

إن صورتها تتبعني في كل مكان وتلزمني في كل لحظة ! إمَّا صحوت وإما غفوت فانها تملأ جوانب نفسي وتشغل فراغ قلبي . هنا ، اذا أنا أغمضت جفني ، هنا ، تحت الجبهة حيث تتركز القوة الباصرة ، أرى عينيها الدعجاوين . هنا ! لا أستطيع أن أشرح لك كل هـذا . كلما أغمضت عيني رأيت عينيها هناك مفتوحتين أمامي وفيَّ كالبحر أو كالهاوية فلا أحس غيرهما في جبهتي

عمرَكَ الله ما الانسان وماقيمة تألهه وصَلفَه ؟ أما تخذله قواه وتخونه عند مس الحاجة اليها ، وضرورة الاعتماد عليها ؟ أما يشعر عند مايغرقه السرور أو يحرقه الحزن أنه موقوف عند حدوده ، ومردود الى احساسه البارد بكونه ووجوده ، على حين يرجو أن يسبح ويفنى في محيط اللانهاية بكبر وصلف ؟

من الطابع الى القارىء

كنا نود لو بقيت في أيدينا حكاية الفترة الأخيرة من حياة صديقنا ڤرتر باملاء قلبه وخط يده، فلا نضطر الى قطع سلسلة رسائله بما سنقصه على القارىء من أخباره وحوادثه

وتلك الأخبار نقصها ونرويها على ما سمعناه من أفواه الثقات الذين خالطوه ولابسوه فكشفوا دخيلة سره، وعرفوا حقيقة أمره

حكاية ڤرتر واضحة بسيطة، والناس في روايتها لسان واحد، لا يكادون يختلفون الا في مسائل ثانوية لا خطر لها. فاما تشعب الآراء وتفرق الاهواء، فهو في الحكم على أخلاق الأشخاص والتقدير لافعالهم. فسبيلنا اذن أن نقص ما علمناه بالبحث الدقيق والاستقصاء البالغ مضمنين ما تركه لنا ڤرتر من الرسائل والكتب دون أن نهمل منها ورقة، أو نحذف منها حرفاً، أو نصدر عليها حكما. فان من الصعب الوقوف على البواعث الحقيقية والأسباب الجوهرية للعمل البسيط اذا وقع من قوم يعلون على الدهماء ويرتفعون عن العامة

***

تغلغلت أصول الخور والضجر والكآبة في نفس ڤرتر، ثم ربت وتشعبت، ثم طالت وتشاجنت، حتى هيمنت على كيانه،

وسيطرت على جثمانه ووجدانه ، فتهوش نظام حياته ، وتنافر انسجام وجوده ، وأخذت قواه الطبيعية تذيبها نار همومه المستعرة المضمرة ، تلك النار التى أسلمته الى الضنى والوهن بعد أن نجم عنها مانجم من شر النتائج وسوء الأثر ، وأصبح مايلقاه من الهم فى مكافحة هذا الغم أشد عليه مما لقيه من جميع الآلام التى كافحها الى الآن

برّح بقلبه لاعج الهم حتى أودى بقوة فكره وحدّة خاطره وتوقد ذكائه ، وصار لا يجد فى مجالس الأنس غير الوحشة ، ولا فى سرور الصحاب الا الحزَن ، ولا يمر عليه يوم دون أن يصعد فى سلم الشقاء درجة ، وكلما أرهقه البؤس ولجّ به الجوى كان أكثر تألماً وأشد تبرماً

واليك ما يقول أصحاب ألْبير فى أمره وأمر ڤرتر : يقولون ويؤكدون أن ڤرتر لم يعرف كيف يقدِر رجلاً فاضل الخلق رحب الأناة لا غرض له الا أن يحتفظ برغيبة قلبه ومصداق أمله ، على حين يسرف ڤرتر فى قواته ، ويبذر فى خيراته ، ولا يدّخر غير الفاقة والألم لمساء حياته . ألْبير لم يغيره الزمن القليل ، بل ظل على حاله التى امتدحها ڤرتر وأجلها منذ تعارفا وتآلفا . يحب شرلوت حباً دونه كل شىء ، فهو يفخر بها ويباهى بحبها ، ويتمنى أن تُذكر فى الناس جميعاً بما لم تنله امرأة من الجلالة والكمال . فهل عليه من بأس اذا ربأ بها عن مواطن الشبهات ، وأبى على غيره أن يساهمه الاستمتاع بحبها وقربها ولو كان ذلك الاستمتاع طاهراً بريئاً ؟ ثم إنهم مجمعون على أن ألْبير

كان يترك غرفة امرأته اذا دخلها ڤرتر ، لا كراهة منه لصاحبه ، ولا ازوراراً عنه بجانبه ، بل لأنه كان يشعر أن وجوده ينغصه و يضايقه

* * *

توعك أبو شرلوت فلزم الفراش وبعث اليها بمركبته يدعوها اليه . فذهبت تعوده فى يوم من أيام الشتاء جميل ، وكانت طلائع الثلج قد سقطت على الارض فطبَّقت البلاد . اما ڤرتر فلحق بها صباح اليوم الثانى ليصحبها فى العودة اذا لم يتسنَّ لألبير أن يوافيها هناك . وكان فى أثناء ذهابه مهموماً فلم يؤثر صفاء الجو فى قلبه المضطرب الا قليلاً : كان يحس نفسه رازحة تحت عِبء فادح من الكرب . و يخيل اليه أن صوراً محزنة مخيفة تملأ فكره و تقفو أثره ؛ وكان خاطره مبلبلاً مُذْهلا لا ينتقل من فكرة مؤلمة الا الى فكرة أشد منها عذاباً وألماً

كان فى شقاق دائم مع نفسه ، فلم يرَ لذلك فيمن حوله من الناس الا مظاهر للاضطراب والقلق : ظن أنه [1] خَبَّ على ألبير امرأته وأفسد ذات البين بين الزوجين ، فأقبل على نفسه يلومها لوماً فيه شيء من الحنق على ألْبير ، وأخذ يردد فى خاطره وهو فى طريقه الى شرلوت هذه الافكار ويقول لنفسه هذه الكلمات وهو غضبانَ محتد : أجل ! أجل ! لقد تحول هذا القِران المملوء بالحب الخالص ، والحنان

---

(١) خب المرأة على زوجها : حملها على النفور منه

الفياض ، والجاذبية المستمرة ، والوفاء الباقى على الزمن ، الى اشمئزاز ، وملل ، وقلة اكتراث . ألم تلهه المسألة الصغيرة الحقيرة عن هذه المرأة العزيزة التى يعبرها ؟ هل قدَر سعادته حق قدرها ؟ أم هل عرف على الأقل قيمة هذه الزوجة الصالحة فعاملها بما تستحق من إكبار وجلالة ؟

لا يعرف الا أنه مالكها ! نعم هو مالكها ! وعندى بذلك علم . وقد كنت أحسبنى ألفتُ هذه الفكرة واعتدتها ، فاذا هى لا تزال توقد صدرى بالغضب ، وستطفىء سراج حياتى يوماً ما

هل ثبتت صداقته لى على التجربة وحالت بينه و بين الوساوس ؟ ألم يرَ فى حبى لشرلوت تعدياً لحدوده ، ونقضاً لعهوده ؟ ألم يجد فى رعايتى لها وعنايتى بها تأنيباً صامتاً على إهماله ، وتنبيهاً دائماً على إغفاله ؟ بلى كل ذلك أعلمه وأحسه ! . . إن منظرى أصبح لا يروقه ، ومحضرى صار عبئاً عليه لا يطيقه ، فلا ينبغى الآن الا أن أفارق وأرحل »

***

كم مرة تمهل فرتر فى سيره وهو موفِض فيه ! وكم مرة وقف مريداً أن يعود أدراجه ! ولكنه تابع سيره مدفوعاً بالرغم منه الى أن بلغ منزل العميد بين حديث نفسه ووساوس قلبه . دخل ثم سأل عن شرلوت وعن الشيخ فلاحظ أن فى البيت حركة وجلبة . وجاءه أصغر الصِّبْية يقول : إن حادثة وقعت اليوم فى وِلهم . فقد عثروا

بأحد الفلاحين قتيلاً . فلم يُلق ڤرتر باله الى هذا الخبر ، ودخل البهو فوجد شرلوت تحاول أن تثنى أباها عن الذهاب وهو مريض الى مكان الحادثة لتحقيق الجريمة ، فان القتيل وُجد صباح اليوم مقتولا على باب داره ولم يعثروا على قاتله . غير أن الناس يظنون الظنون و يلقون التهم ، فيقولون إن القتيل كان فلاحاً لامرأة أيِّم ، وكان عندها من قبله فلاح آخر طردته على أثر شجار نشأ من سوء سلوكه . فلما سمع ڤرتر هذا البيان ارتاع وارتعد . ثم انتصب قائماً يقول : « رباه ! أذلك ممكن ؟ لا بد من الذهاب الى مكان الحادث دون تريُّث » ثم انطلق يعدو الى ولْهِمَ وقد تواردت على قلبه الذِّكَرُ ، ولم يخامره شك فى أن القاتل هو ذلك الرجل الذى حادثه طويلا وأحبه كثيراً . ولما بلغ الزيزفون وهو فى سيره إلى الحانة التى سجّوا أمامها القتيل داخله خوف وفزع ، وقد كان ذلك المكان فيما مضى موضع حبه وإعزازه . إن عتبة البيت التى كان يلعب حولها أطفال الحى قد لطخها الدم ، وإن الحب الخالص والوفاء الشديد والعواطف السامية قد حالت إلى عنف وقتل ، وأن الاشجار الباسقة قد تعرّت من الورق واكتست بالجليد ، والأسْوِجة الشجرية المعقودة على حائط المقبرة القصير قد جُردت من سندسها الأخضر ، وأمكنت الرائى أن ينظر من خلالها الأجداث مغطاة بالثلج . !

لم يكد يدنو ڤرتر من الحان ويرى أهل القرية وقد تجمعوا

أمامها حتى ارتفعت الأصوات فجأة . وأبصر على البعد قوماً شاكى السلاح قد أخذوا بتلابيب رجل يقول الناس إنه القاتل . رآه ڤرتر وملأ منه عينيه فانجلى الشك وانتفى الريب وأيقن أنه هو . هو الفلاح عاشق تلك الأيم ، هو الرجل الذى لقيه منذ قليل يهيم فى الحقول مستسلماً لحنقه الصامت ويأسه المكنون . تقدم ڤرتر نحو الأخيذ وقال له : « ماذا صنعت يا مسكين ؟ » فنظر اليه الرجل نظرة هادئة كعادته دون أن ينبس . ثم كان جوابه اليه هذه الجملة : « انها لن تنال أحداً ولن ينالها أحد » ثم قادوه إلى الخان وتولى ڤرتر مسرعاً

زعزعت هذه الصدمة القوية كيان صديقنا البائس وفتتْ فى عضده ، بيْد أنه تماسك وتجلد حينَ وقع فى نفسه وهيمن على فكره أن ينقذ هذا الرجل الذى يدرك بؤسه وشقاوته ، ويرى على الرغم من إجرامه براءته ونزاهته ، واعتقد أنه سيحمل النـــاس على متابعته والأخذ برأيه . بدأ فى نفسه هذا الخاطر رجاءً وأمنية ، ثم ما نشب أن عاد حقيقة ممكنة . وأخذت كلمات الدفاع المؤثرة تنثال على شفتيه . فانطلق وشيكا يؤم بيت الصيد ولسانه فى الطريق يردد عالياً ما سيقوله للحاكم فى هذا الموضوع

ولج البهوَ على الحاكم فوجد معه ألبير فاضطرب قليلا ثم تمالك . وأخذ يذكر رأيه فى أمر القاتل بحدة وحمية ، ويفيض فى الدفاع عنه

باخلاص وحسن نية ، فلم يترك كلمة فى تبرير عمل وتبرئة رجل إلا قالها ، والحاكم فى أثناء ذلك يهز رأسه دون أن يتحرك قلبه لهذا الدفاع المخلص المؤثر كما توقعه الحضور من قبل . وأكثر من ذلك انه لم يترك صديقنا يتم دفاعه ، بل احتج على كلامه بقوة ونعى عليه أن يتولى الدفاع عن قاتل ، وأظهر له أن السير على هذا السَّنَن يلغى القوانين وينقض حبل الأمن ، وأنه لا يستطيع الدخول فى هذا الأمر دون أن يحمل من ورائه تبعة عظمى . ثم ختم قوله بأن المرء محتوم عليه أن يساير النُّظُمَ ولا يتعدى حدود القانون

لم يسلم ڤرتر بهذه الأسباب والتمس من الحاكم أن يغض الطرف اذا مهد للشاب سبيل الهرب . فرفض الحاكم هذا السؤل أيضاً ، ودخل ألبير فى الحديث فعزز رأى الشيخ وشايعه . فأذعن ڤرتر لحكم الكثرة ، وخرج علَى وجهه ونفسه تكاد تُرهق من الألم بعد أن سمع الشيخ يكرر هذه الجملة . « ليس فى مقدور أحد أن ينقذه » فأثرت فيه هذه الكلمات تأثيراً بليغاً يظهر فى جملة كتبها ذلك اليوم على رُقعة وجدت بين أوراقه وهى : « ليس فى مقدور أحد أن ينقذك أيها البائس ! أجل أعلم ذلك وأعتقده . ليس فى مقدور أحد أن ينقذنا »

ولقد كان لما قاله ألبير فى شأن القاتل أثناء الحديث وقع مؤلم فى نفسه ، اذ تبين فيه أثر المَوْجدة عليه والتنكّرِ له . ثم فكر ڤرتر فيما

كان فرأى بعقله المنطقى أن الحق مع خصميه ، ولكن خيل اليه أن متابعتهما على مايريان ما كانت تقع الا اذا تجرد من وجدانه وعواطفه. على أننا وجدنا كذلك فى أوراقه بعض سطور تتصل بهذا الموضوع وتصف حالته وعلاقته مع ألبير . قال :

« ماذا ينفعنى أن يقول الناس ويعيدوا إنه طيب القلب كريم ؟ أنا لا أستطيع أن أكون عادلا ، وذلك ما يستوقد قلبي ويمزق حشاى »

* * *

وجدت شرلوت وزوجها أن هواء المساء فاتر عليل ، فاختارا أن يعودا الى المدينة راجلين . وبينما هما فى الطريق كانت شرلوت تلتفت وراءها الحين بعد الحين كأنما كان ينقصها وجود ڤرتر واصطحابه . ثم أخذ ألبير يخوض فى أمر ڤرتر ويلومه بانصاف وعدل، ولما جر الحديث الى هواه المنكود ودّ لو أنه استطاع البعد ابتغاء لراحته وهدوئه . ثم قال : « وأرى أن فى ابتعاده راحتنا وهدوءنا كذلك » فعسى أن تحوّلى نهجه معك الى وجهة أخرى ، وألا تكون زيارته إياك إلا لِماما . فقد بدأ الناس يظنون ، ولعلهم أخذوا يتهامسون »

فسكتت شرلوت ولم تجب . ورأى ألبير فى سكوتها جرحا لعزته وهَوْناً لنفسه . فتحاشى منذ يومئذ أن يذكر ڤرتر أمامها تصريحاً أو تلميحاً ، حتى اذا هى حدثت عنه أخمد نشاط الحديث أو حوّل مجراه

* * *

كان سعى ڤرتر الباطل فى انقاذ القروى القاتل أشبه بالومضة الأخيرة من شعلة فانية أو شمعة محتضرة . فقد عاد بعد إخفاقه فيه إلى أشد ما يكون من الحزن والألم والخمود ، ولا سيما حين علم أنه ربما دُعى الى الشهادة على ثبوت الجريمة بعد أن جنح المجرم الى الانكار وعمد الى التنصل . ثم ورد على خاطره كل مالقيه فى حياته العاملة من مكاره ومحن ، فذكر ماعاناه لدى السفير من غم وذلة ، وتصور ماصادفه فى أموره من يأس وخيبة ، فجاشت غصة الهم فى صدره ، وثارت عوامل القلق فى فكره ، وتخيل أن ذلك كله يسوِّغ له عيش الفراغ والعطلة ، وأنه لايرى فى المستقبل رَجيَّةً ولا أمنية ، ولا يجد نفسه بعد ذلك أهلا لعمل من أعمال الحياة العادية . وكذلك كان ڤرتر يقترب من عاقبته الوبيلة مستسلماً لعواطفه ووساوسه ، مسترسلا فى أفكاره وهواجسه ، مستكيناً لهوى مُبَرِّح لاغاية له ولامخرج منه ، مستمراً على صِلاته المتشابهة الأليمة بتلك المخلوقة التى ملأتها فراغ قلبه ، وكدر صفو عيشها بحبه ، ممعناً فى تبذير مواهبه وإتلاف قواه من غير غرض ولا موجب

وإن فيما بقى لدينا من كتبه لبينات مسلمة على شدة اختباله ، وتحكم هواه ، ومبلغ اضطرابه ، واستنزاف جهوده ، واشمئزازه من الحياة ؛ وهانحن أولاء نرويها على سَوْقها ، ونثبتها بنصها

١٢ ديسمبر

عزيزى وليم ! أصبحت فى الحال التى يكون عليها أولئك المساكين الذين يتخبطهم الشيطان من المس كما كان يزعم الأوائل . تعترينى فى الغالب تلك الحال فلا أتبين لها كنهاً . لاهى رغبة ، ولاهى رهبة ، وانما هى ثوران دخيل مبهم ، يقوم بصدرى فاخاله يتمزق ، ويأخذ بكظمى فأجدنى أختنق . وفى تلك الساعات الرهيبة أخرج هائماً على وجهى فى ظلام الليل بين المشاهد المخيفة والمناظر المروّعة التى تتجلى فى هذا الفصل فصل الشتاء عدو الانسان

لم أستطع أن أحبس نفسى عن الخروج مساء الأمس ، فقد بغتنا ذوبان الجليد ، وقيل لى إن النهر طغى والجداول فاضت ، ووادىّ العزيز يعب عبابه ابتداء من وَلْهِمَ . فخرجت أعدو اليه وكانت الساعة الحادية عشرة . فيالله أى مشهد رائع شهدت ! نظرت من أعلى الصخرة فاذا الامواج المزبدة تصطخب فى ضوء القمر وقد سقّقت[1] الأرضَ وَغمرت الحقول والمروج والآجام والأسْوِجة ، فلا ترى بين عَدْوتى الوادى غير بحر لُجِّىّ يثور ويضطرب على عصف الرياح الهُوج ولما احتجب القمر هنيهة وسفر من فوق غمامة جوناء فانعكست أنواره الرهيبة الوضاءة على الأمواج الهدارة بين قدمىَّ ، عرتنى هزة

(١) سقق الماء الأرض عمرها

قوية ، أعقبتها شهوة شديدة . . . . آه ! لقد كنت هناك على شفا الهاوية وعيناى مفتوحتان ، وذراعاى مبسوطتان ،وقلبي تواق مشوق الى الهوىّ فى قرارة الماء ،لأدفن معى ما أكابد من عذاب وعناء، وأدع نفسى لغوارب[1] السيل تحملنى حيث تشاء ! فمالى جمدت وسمّرت قدماى فى الأرض فلم أجعل لهذا العذاب حداً وغاية ؟ إن ساعتى لما تحِنْ بعد ولكنى أحسها ! آه ياوليم ما كان أسرّنى وأبهجنى لوخرجت عن طبيعتى البشرية فأقتحم الجو مع العواصف أخترق السحب وأثير الامواج ! ليت شعرىَ أما تكون هذه اللذائذ من نصيبنا أيها المسجونون يوماً ما ؟

ما كان أشد أسفى حين صوبت طرفى الباكى إلى مكان صغير قُدتُ اليه شرلوت ذات يوم من أيام الصيف فتفيأنا شجرة من الصفصاف فيه ! لقد رأيته يعج بالماء عجيجاً حتى كدت لا أتبين الشجرة . فتذكرت حينئذ مروجه وضواحيه وقلت فى نفسى : «صنع الله لهذا السيل المجحف ! لكأنى به وقد قوض عشنا المحبوب وخرب مهدنا الأعز» ثم ومض فى جوانب نفسى المظلمة شعاع من شمس الماضى كما يحلم السجين بالمروج والقطعان ، ويُمَنّى نفسه المجد والشرف ، فبقيت صامتاً لا أتحرك ! . . . . . أنا لا أتهم نفسى ، فان عندى على الموت شجاعة وجلداً . . . اذن مالى أصبحت كالعجوز

---

(١) الغوارب : الامواج

تلتقط حطبها من جوانب السُّوج ، وتجمع خبزها من فضلات البيوت ، لتطيل بقاءها وتخفف عناءها زمناً يسيراً ؟

١٤ ديسمبر

ما هذا يا صديقي ؟ لقد أصبحت أخاف نفسي وأخشاها ! ألم يكن حبي لها حباً أخوياً نقياً لا يشوبه خداع ولا نقص ؟ هل شعرت لهـا يوماً فى قلبي بلذة مجرمة وشهوة أثيمة ؟ أللهم لا داعى إلى أن أقسم بك على ذلك أو أشهدك عليه . اذن ما شأن هـذه الأحلام الآن ؟ لقد صدق الذين يَعْزُون هذه الآثار المتضادة الى قوى خارجية غير طبيعية

زارنى طيفها الليلة .. . — أواه ! ان ذكر ذلك يخيفنى ويرعدنى — فأخذتها بين زراعىَّ وضممتها الى قلبي بقوة ، ثم أحييت بالقبل الحارة على فمها الجميل العذب ، وقطفت من بين شفتيها الورديتين غماغم[1] الحب الحَيِّ ، وكانت عيناى غريقتين فى عينيها الفياضتين باللذة . رباه ! ألا أستحق غضبك وانتقامك بشعورى فى هذه الساعة أيضاً بالغبطة لدى ذكر هذا الطرب الشديد والهياج القوى ؟

شرلوت ! شرلوت ! لقد قضيت وقُطِع بىَ السبب ! هذى مشاعرى منذ ثمانية أيام ذاهلة عاطلة ، لا أجد سبيلاً الى التفكير ،

(١) الغماغم جمع غمغمة وهى الكلام الذى لايبين

ولا تجف عيني من البكاء ، لاأحس نفسي موجوداً في مكان ، وكأنني في كل مكان موجود ! لا أتشهّى ولا أتلهّى ولا أتمنى ! أليس أخلق بي وأجمل أن أرحل ؟ »

* * *

كان موقف ڤرتر في ذلك الحين مما يقوى فيه العزم على ترك هذا العالم ، وكان من لدُن عودته الى شرلوت لا يجد أملاً يرتجيه ولا غرضاً يقصده الا تحقيق هذا العزم . غير أنه قرر في نفسه ألا يكون هذا العمل سابقا لأوانه ، ولا مخالفا لعقله ووجدانه ، بل يريد أن يكون عن عقيدة صادقة وعزيمة هادئة ما أمكنه ذلك . وستقرأ في هذه الرقعة التي تركها بين أوراقه غفلاً من التاريخ مثار الشكوك في قلبه ، ونشوب العراك مع نفسه . وربما كانت فاتحة كتاب لوليم لم يتم :

« حضورها ، وحظها ، وعطفها عليّ . وعنايتها بي . كل أولئك يستقطر الدموع الباقية في محاجري الناضبة المحترفة . كل ما هنالك أن أزيح الستر[1] ثم أمر الى داخله ! ففيمَ التردد وعلام الاضطراب ؟ ألأنني أجهل ما وراء الستار ؟ أم لأنني اذا ذهبت لاأعود ؟ أم ذلك لأن الفكر من خاصته أن يتوهم الظلام والالتباس والخلو فيما لا يعلمه علم اليقين ؟ »

ثم أخذ هذا الخاطر يَحْلَى رويداً في صدره ، ويتفق مع أماني

---

(١) يريد الستر الذي بين الحياة والموت

قلبه ، حتى أضرب [١] جأشاً لهذا العزم كما يدل عليه هذا الكتاب المبهم الذى كتبه الى صديقه .

٢٠ ديسمبر

لك الشكر ياوليم على أن فهمت كلامى كما كتبته . ولقد أصبت فى نصحك لى بالرحيل فذلك خير وأولى ، ولكن لم يَرُقنى طلبك أن أعود اليكم ، فانى أرغب على الأقل أن أجول فى البلاد جولة ، ولاسيما اذا أجْلَدَت الأرض وطاب الطريق . ولقدسرنى كذلك عزمك المجىء للبحث عنى ، غير أنى اتقدم اليك أن تمهلنى خمسة عشر يوماً وسيأتيك منى كتاب فيه تفصيل ما أجملت فانتظر . إن الثمرة لاتجنى قبل أن تينع ، وإن خمسة عشر يوماً قبل أو بعدُ تؤثر كثيراً ، قل لأمى تدع الله لولدها ، واطلب لى الصفح منها عما جررت عليها من الأذى والحزن . كذلك جَدِّى ! لاأملك لمن كنت أحب إسعادهم غير الشقاء والألم ! وداعاً ياصديقى الأعز ، وسلام الله عليك وبركاته »

أما ما كان يختلج فى صدر شرلوت اذ ذاك وما كانت تحمله من العواطف لزوجها وصديقها فذلك ماسنحاول شرحه بالقول وإن صعب . فان معرفتنا بأخلاق شرلوت تعيننا على أن نجمع فى أنفسنا رأياً عنها وحكما عليها . وكل نفس كريمة تستطيع أن تتحد بنفس

(١) وطن نفسه عليه

شرلوت فتفهم مايجول فيها ويقوم بها

مما لاشك فيه أنها قطعت العزم سراً على أن تبتغى الأسباب لابعاد ڤرتر . فاذا عادها التردد فذلك لأنها كانت ترغب رغبة المخلص الودود فى أن تحفظ كرامته وترعى شعوره . فقد تعلم يقيناً مايجره عليه فراقها من الويلات والحرَب ، بل ربما كان فوق طاقته ووراء احتماله . غير أنها شعرت اذ ذاك بدافع شديد يدفعها الى العمل بحزم وقوة

أما زوجها فقد ظل فى هذا الموقف صامتاً لايصرح ولا يلمح ، وظلت هى كذلك فى مثل حاله لا تبدىء ولا تعيد ، حتى اذا لم يبق للصمت موضع أرادت أن تبرهن لزوجها بالفعل أن عواطفها عِدْل لعواطفه ، وأخلاقها كفء لأخلاقه

ذهب ڤرتر مساء اليوم الذى كتب فيه الكتاب السابق الى صديقه يزور شرلوت فوجدها فى البيت وحدها . وكان ذلك اليوم الأحد الواقع قبل عيد الميلاد ، وكانت تعمل فى ترتيب هدايا العيد التى أعدتها لاخوتها وأخواتها . فأخذ يتحدث عن سرور الأطفال بتلك اللُّعَب ويذكر ما كان يجد فى نفسه من الطرب وهو صغير حين يُفتح الباب فجأة فتظهر الشجرة[1] الموقَرَة بالشموع والتفاح والحلوى

---

(١) من عادة الألمان أن يخبئوا ليلة عيد الميلاد شجرة موقرة بالشموع الصغيرة والحلوى المختلفة فى خزانة كاذبة ، ثم يفتحونها على غرة من الأطفال فيسرونهم بهذه المفاجأة الحسنة

فقالت له شرلوت وقد سترت ارتباكها بابتسامة حلوة : «ستنال هداياك أنت كذلك اذا عقلت : شمعة صغيرة وشيء آخر أيضاً »فقال لها ماذا تعنين ياشرلوت بالعقل ؟ وكيف ينبغي أن أكون ؟ وماذا أستطيع أن أعمل ؟ فقالت له إن ليلة الخميس هي ليلة العيد ، وسيحضر الأطفال مع أبيهم ليأخذوا هداياهم . فاحضر أنت أيضاً ، ولكن اجعل حضورك معهم لا قبلُ ولا بعدُ . فوجم ڤرتر كأنما أفرغَتْ عليه ذنوباً [١] واستمرت شرلوت تقول . « سألتك بالله أن تسمع لقولي وألا تنبو [٢] في يدى فذلك مالا بدمنه . أطع بحقي عليك إيثاراً لراحتي وسلامي . لا ينبغي أن تدوم هذه الحال طويلاً ، فان ذلك أصبح مستحيلاً »

فأشاح عنها بوجهه ، وأخذ يتمشى في الغرفة مغمغماً بهذه الجملة : لا ينبغي أن تدوم هذه الحال طويلا ! وأحست شرلوت بلهيب كلامها في قلبه ، وتأثير ملامها في نفسه . فأرادت أن تلهيه بالأسئلة المختلفة عن أمره ، وتذهله عن فكره ، فما رجعت بطائل . ثم صاح ڤرتر قائلاً : « كلا لن أراك يا شرلوت بعد ! » فأجابته على الفور : لماذا يا ڤرتر؟ تستطيع أن تراني ، ويجب أن تراني ، ولكن اضبط نفسك واملك هواك . سبحان الله ! لِمَ خُلقت هكذا قوى الحدة شديد الانفعال يشتعل هواك بما يلقى كما تشتعل النار بما تمس ! » ثم تناولت يده وقالت : « نشدتك الله والود أن تقبض زمام

---

(١) الدلو (٢) نبا في يدها : عصاها

نفسك ! إن لك فى فكرك وعلمك وذهنك لفنوناً من اللذة وضروباً من اللهو. كن رجلا وخلص نفسك من غرام مشئوم بفتاة لا تملك الا الرثاء لك والاشفاق عليك. » فتأوّه ڤرتر وصرّ بأسنانه ، ثم نظر الى شرلوت نظرة همّ وكآبة ويده لا تزال فى يدها. فقالت له : أعرنى لحظة واحدة من رباطة جأشك وهدوء نفسك يا ڤرتر. ألا تشعر بأنك تخدع نفسك وتسوقها الى الهلاك عن رضا وطواعية ؟ ما معنى أن تقصر هواك علىّ يا ڤرتر وأنت تعلم أن زمامى بيد آخر ؟ أنا أخشى أن يكون يأسك منى هو ما يهيج رغبتك فىّ ويضرم ولوعك بى » . فنزع يده من يدها ورماها بنظرة همّ وسخط ثم قال : عقل رصين وحق مبين ! ! لعل هذه الملحوظة لألبير ، فانها على ما أرى دقيقة عميقة ! فأجابته شرلوت : « كلّ يستطيع أن يلحظها . أما فى العالم كله فتاة تبلغك ما فى نفسك وتدنى قلبك مما يؤمل ؟ أشغل بالك بالبحث عنها ويمين الله لتظفرن بها . لقد ساورنى القلق منذ طويل عليك وعلينا ، وداخلنى الخوف من تلك العزلة التى أسلمت اليها نفسك طوعاً . استعِدْ قواك ثم اعزم رحلة تنسيك وتسليك ، ونقب عن فتاة تكون أهلا لحبك ، وكفاء لقلبك ، ثم عد الينا نتمتع جميعاً بنعمة الصداقة الخالصة ، ولذة العشرة الصادقة . فقال ڤرتر وقد افترّ عن ابتسامة مرة : « يجب أن يطبع هذا الخطاب فى كتاب ثم يوصّى به المعلمون . » عزيزتى شرلوت !

خليني قليـــلا من الزمن فى سلام وراحة ، وسينتهى الأمر على ما تشائين . فقـالت له شرلوت : لا أطلب اليك الا شيئاً واحداً : ألا تجئ قبل ليلة العيد . . . فهمّ ڤرتر بالجواب لو لا أن دخل ألبير . فتبادل الرجلان التحية بفتور ثم طفقا يمشيان فى الغرفة مرتبكين ، وأخذ ڤرتر فى كلام لا معنى له ثم قطعه ، وفعل ألبير مثل ذلك . ثم أقبل على زوجه يسألها عن عمل كلفها اداءه ، فأجابته أن يدها لمـا تمسّه . فكلمها كلمات رآها ڤرتر جافة باردة ، فهمّ بالخروج فعَىَّ بالنهوض فبقى متردداً حتى دقت الساعة ثمانى دقات ، وهو فى خلال ذلك يشعر بنمو الانقبـاض والحزن فى صدره . فلما أقبلوا يمدون السماط تناول عصاه وقبعته ونهض ، فاستبقاه ألبير للعشاء فحمل دعوته على المجاملة الكاذبة وشكره ببرود ثم خرج

فلمـا رجع الى منزله وجد خادمه ينتظره بالمصباح ، فأخذه من يده ودخل الى حجرته ، وأخذ يمشى فيهـا طولاً وعرضاً وهو يبكى أحرّ بكاء ، ويحدث نفسه غضبان مشترَك الخاطر ، حتى ضاق بحمل نفسه ، فتطرّح على فراشه دون أن ينضو ثوبه . كذلك وجده خادمه فى الساعة الحادية عشرة حين خاطر بالدخول عليه من ذات نفسه يسأله أن يخلع له حذاءه . فتركه يفعل ثم حظر عليه دخول الغرفة فى صباح الغد قبل أن يدعوه

وفى صباح الاثنين الحادى والعشرين من ديسمبر كتب الى

شرلوت هذا الكتاب ، وقد وجدوه بعد موته مختوماً على مكتبه فألقوه اليها . ونحن نثبته هنا قطعاً مجزّأة نرتبها على ما يظهر لنا من مساق الحوادث والظروف .

« عقدت النية وقطعت العزم يا شرلوت على أن أموت . أكتب اليك هذا الكتاب وأنا هادئ مطمئن لا سلطان للخيال عليّ ، ولا سبيل للحماسة اليَّ ، فى غدوة يوم سأراك فيه لآخر مرة !

فى الساعة التى تقرئين فيها هذا الكتاب يا حبيبة القلب يكون القبر الموحش قد اكتنف بظلامه و برده بقايا هذا البائس الذى لم يجد فى آخر حياته القلقة أسرّ ولا أسعد من الحديث اليك

كانت ليلتى طويلة مروعة ! ومالى أقول ذلك وهى التى قطعت عزيمتى على الموت ؟ لم أكد أخرج من عندك بالأمس حتى هاجمنى الانفعال والجزع ؛ وتمثلتُ حياتى بقربك من غير سرور ولا أمل فطارت نفسى شعاعاً من الفزع . وما بلغت البيت حتى جثوت على ركبتيّ فاقد الرشد ، ومنّ الله عليّ بنعمة البكاء فنفَّس عن صدرى المكروب ، ومرت على قلبى خواطر شتى ومقاصد جمة ، فلم يبقَ منها ثابتاً مكيناً غير فكرة واحدة — هى الموت — نمت واستيقظت فوجدتنى وادعاً مطمئناً ، ثم تلمّست جوانب نفسى فلم أجد فيها قوياً ثابتاً غير هذه الفكرة فكرة الموت . . . لم يكن ذلك لقنوط ولا يأس ، وانما كان لأنى نزحت مَعين الأسى ، وجرعت كأس الالم ، وأردت أن

أجعل نفسى فداء لغبطتك وراحتك . أجل ياشرلوت ! الى متى الكتمان والصمت ؟ لا بد أن يموت أحد ثلاثتنا وأريد أن أكونه ! آه ياحبيبة القلب ! طالما اندس فى فكرى أن أقتل زوجك ، أو أقتلك ، أو أقتل نفسى ! وها قد وقع الخيار علىّ !

اذا ما تسنمت الجبل وعلوتِ الربوة فى أصيل يوم من أيام الصيف الجميلة فاذكرينى ! واذكرى كم مرة جئت هذا الوادى ساعياً اليك ! ثم ارسلى طرفك الى الجهة الأخرى وصوبيه نحو المقبرة وانظرى هناك تجدى ضريحى تتمايل عليه الأعشاب الطويلة فى أشعة الشمس الغاربة !

لقد كنت فى بدء الكتابة هادئاً ، فلما تراءت لى هذه الصور الحية العابسة نفر منى الهدوء ، ونأى عنى الجلد ، وبكيت كما يبكى الطفل أفحمه البكاء »

***

دعا فرتر خادمهُ قبيل الساعة العاشرة وقال له وهو يرتدى أثوابه : « انى أزمعت الرحيل بعد بضعة أيام فنظف ملابسى وهيء حقائبى ، واذهب الى التجار فاقض ما لهم علىَّ من الدين ، واسترد الكتب المعارة ، وأعط صدقة شهرين مقدماً للفقراء الذين اعتدت الاحسان اليهم فى كل أسبوع »

ثم أعَدَّ لنفسه الغداء فى غرفتهِ فتغدى ، وركب الجواد الى الحاكم فلم يُصِبْه حاضراً . فأخذ يتنزه فى الحديقة والأفكار تسايره وتساوره وهو ذاهل مستغرق ، كأنما أراد أن يستجمع كل ذِكْرياته المؤلمة فى هذه اللحظات الأخيرة ليعظم بثّه ويزداد حزنه . على أن الأطفال لم يَدَعوه وأفكاره طويلاً ، بل سارعوا اليهِ وتراموا عليه وقالوا له : « اذا فات غدٌ ، وغدٌ بعده ، ويوم آخر ، ذهبنا الى شرلوت نتقبل منها هدايا العيد ! » ثم وصفوا لهُ الأعاجيب التى تمنيهم بها مخيلاتهم الطفلية وهم فرحون مستبشرون . أما هو فقد صاح قائلا : « غدٌ ! وغدٌ بعده ! ويوم آخر ! . . . . » ثم قبلهم بحنان وعطف ، وأراد أن يذهب فعلق به أصغر الاخوة يريد أن يلقى اليه كلاما فى أذنه ، فمال به ناحية واستمع اليهِ فاذا هو يقول سراً : « إن اخوتى الكبار قد كتبوا تهانئ جميلة بالنيروز[1] على ورقة كبيرة ! كبيرة ! منها تهنئة الى أبى ، وتهنئة الى ألبير وشرلوت ، وتهنئة الى السيد فرتر ، وهم يريدون أن يقدموها صباح يوم النيروز » فما سمع فرتر هذه الكلمات حتى رهقهُ من الجزع ما ضاق عنهُ وسعهُ ، ووهن به جلده . فأعطى كل واحد من الاطفال شيئاً من النقود وحمّلهم السلام الى أبيهم ، ثم امتطى جواده وذهب دامع العين مفطور الفؤاد . رجع الى منزله فى الساعة الخامسة فأوصى خادمته أن تُعنى بالنار وأن تمدها بالوقود

---

(١) عيد رأس السنة

حتى تدوم هزيعاً من الليل . وأمر خادمه أن يضع كتبه وأمتعته فى الصندوق وأن يصر ملابسه فى صرة . ومن المحتمل أنه كتب حينئذ الفقرة الآتية من كتابه الأخير الى شرلوت

« أنت لا تنتظرينني ! تحسبين أنى أطيعك فلا أراك الا ليلة العيد ! لا وأبيك ياشرلوت ، إما لقاء اليوم وإما فراق الأبد

فى ليلة العيد ستتناولين هذه الورقة بيدك فترتعدين ، ثم تبللينها بدمعك الغالى العزيز . أنا أريد ذلك[1] . . . وأراه واجباً . . . ما أسعدنى بهذا العزم الذى لا يتزعزع ولا يحور »

على أن شرلوت كانت اذ ذاك فى مأزق حرج وحال سيئة ، فقد دلها حديثها الأخير مع فرتر على مبلغ ماسيلقاه كلاهما من الأسى والألم لفراق صاحبه . وقد اتفق أن قالت أمام ألبير إن فرتر لا يعود قبل ليلة العيد . ثم عرض لألبير أمر مع بعض الحكام فسافر اليه على جواده ، ولن تتسنى له العودة قبل الغد . فبقيت شرلوت فى المنزل وحدها لا يؤانسها من عشيرتها أخ ولا أخت ، فاستسلمت صامتة لافكارها وهواجسها ، ومرّ على قلبها حال نفسها وحرج موقفها ، فرأت أنها متصلة أبد الدهر برجل تعرف فيه الوفاء والحب ، وتضمر له الاخلاص والود ، وتجد فى أخلاقه المتينة الرضية ضماناً قوياً لسعادة امرأة فاضلة ، وتذكر له أياديه عليها وعلى عشيرتها الأقربين . ثم رأت تلقاء ذلك فرتر

---

(١) يريد الانتحار

وقد أصبح اليها حبيباً وعليها عزيزاً ، فوجدت أن نفسيهما تآلفتا منذ تعارفتا ، وأن عشرتهما المستمرة ، ومودتهما المتبادلة ، وعواطفهما المتجددة ، قد تركت فى قلبيهما أثراً لا يعفو على الزمان ولا يبيد ، تعودت أن تساهمه ما تفكر فيه وما تشعر به ، فخشيت أن يحدث فراقه فى حياتها فراغاً لا يملأ وصدعاً لا يُرأب . آه : ما كان أسعدها لو أمكنها أن تحوله الآن أخاً لها ! أو تزوجه على الأقل من إحدى صواحبها ! أو تقوِّى ما وهن من أسباب المودة بينه وبين ألبير . ثم عرضت فى نفسها جميع صواحبها واحدة فواحدة ، فأخذت على كل منهن شيئاً فى أخلاقها ، ونقصاً فى طباعها ، ولم تجد فيهن من تستحق أن تتخلى عنه لها

أحست شرلوت لأول مرة — دون أن تعترف صراحة بما تحس — أن رغيبة قلبها ومنْيَة نفسها أن يكون فرتر خالصاً لها دون سواها. ولكن صوتاً من أعماق ضميرها ناداها : « هيهات ! لا تستطيعين أن تستخلصيه فقد غدا عليك حراماً » فسقط قلبها النقى الطاهر بعد خلوه من الهم أو اضطلاعه به رازحاً تحت عبء من الحزن لا يشعر به الا من دجا أمامهُ اليأس فلم يجد أثراً للسعادة

على تلك الحال الأليمة والبال الكاسف قضت شرلوت يومها . فلما انتصفت الساعة السابعة من مسائه سمعت خطوات فرتر على السلم وصوته على الباب يسأل عنها . فخفق قلبها لقدومه — ولا بأس أن

نقول ذلك — وتلك كانت أول مرة. فهمّت بأمر الخادم أن ينكر وجودها لولا أن دخل . فلم تر بُدًّا من قولها لهُ بلهجة الولهان الذاهل : « انك لم تصدق فى قولك ، ولم تبر بوعدك » فقال لها : ماقلت ولا وعدت . فقالت : « لقد كان أقل مايكون أن تجيبنى الى ماسألت ابتغاءً لراحتى وراحتك » فما كان من ڤرتر الا أن وضع كتباً كانت معهُ ثم طلب غيرها . أما شرلوت فما كانت تدرى ماتقول ولا ماتفعل . ثمَّ عنَّ لها أن تبعث خادمها فى طلب فتاتين من صواحبها تشهدان الحديث ، حتى لاتكون فى خلوة مع ڤرتر . و بقيت مترددة بين عاملين مختلفين ، فتارة تتمنى أن تجىء الصاحبتان وتارة تتمنى ألا تجيئا . فلما عادت الخادم تحمل جوابيهما بالاعتذار خطر لها أن تأمر هذه الفتاة بالمكث فى الغرفة المجاورة ، ثم بدا لها فأمسكتْ . وأخذ ڤرتر يمشى فى الغرفة ذَهاباً وجيئة ، وحاولت هى أن توقع على بيانها لحناً فما استطاعت . فعادت الى مكانها وجلست هادئة بجانب ڤرتر — وقد أخذ مجلسه المعهود من الكنبة(١) — ثم قالت له : أما معك ماتقرأه فأسمع ؟ فأجابها لا شىء معى . فقالت إنّ فى درجى تلك الأناشيد التى ترجمتها أنت من أُسيان لم أقرأها بعدُ أملاً فى أن أسمعها منك ، فما سنحت الفرصة ولا سمح الزمن . فتبسم ڤرتر وذهب يأتى بمخطوطه ، فما مسه حتى

---

(١) آثرنا هذه الكلمة الأعجمية على الأريكة والصفة والمسورة لأنها أدق فى الدلالة على معناها ولا تخرج عن الأوزان العربية

استقلته الرعدة ، وما فتحه حتى غلبه البكاء ، فرجع بالكتاب الى مكانه وأخذ يقرأ :

* * *

« يا كوكب الشفق و يانجمة الليل الوليد ! ما أعجب أن ينير الغربَ ضوءك اللألاء ، و يسمو فوق الغمام جبينك الوضاء ، و تنتقل خطاك فوق الربوة بعزة وكبرياء !

عمّ يبحث طرفك الساجى فى سهول الخَلَنْج ؟

« لقد سكنت رياح العاصفة ، و بلغ أسماعنا دَوِىُّ السيل من بُعد ، ولعبت صواخب الموج على أقدام الصخور الوعرة ، وانتشرت حشرات الليل الطنانة زُمَرًا فى الحقول

« ماذا تنظر أيها الكوكب الجميل ؟ مالك تبسم ثم تختفى ؟ إن الأمواج تسارع اليك ، وترقص حواليك ، وتبلل ذيلك الفخم الجميل !

« اذهب بسلام أيها النور الصامت الهادئ ، ولُحْ بجلاء يا نور نفس أسيان !

« بدا النور أشدّ ما يكون تألقًا وزهوًّا ، فرأيت صحابتى المتوفين وقد تجمعوا حول لورا كما كانوا يفعلون فى تلك الأزمن السعيدة الخالية ، وتقدم فنجال كأنه عمود

من ضباب ندِىّ ، وقد أحدق به أبطاله ، والتف حوله أشباله . وأقبل الشعراء أولو الأناشيد الخالدة : فهذا أولين ذو الشَّعر الفضى ، وذاك رينو الجليل العظيم ، وهناك أُلْبين ذو الصوت الرخيم ، وهنا مينُونا ذات اللهجة الشاكية العذبة .

لَشَدَّ ما تغيرتم أيها الصحاب بعد أيام سِلْمى ، تلك الأيام التى كنا نتقاتل فيها على جوائز الغناء تقاتلاً ليناً محموداً كأنفاس الربيع الضاحك تهب من فوق الآكام والربى ، فتخدِّد الأعشاب (١) الكثيفة ، وتحنى السيقان الضعيفة . هذه ميلونا تتقدم وكأنها مثال الجمال أو إلهة الحسن ، نظراتها مصوّبة الى الأرض ، وعيناها مخضلتان بالدمع ، وشعرها المرسل الأثيث يهتز فى يد النسيم الهابط من الربوة

« ولما ارتفع صوتها الرخيم الحنون بالرثاء خيم الحزن على قلوب الأبطال . لأنهم طالما أبصروا قبر سُلجار ، وشاهدوا ظلمة بيت كُلْمى فى أحضان الثلج

« لقد كانت كُلمَى ذات الصوت العذب وحدها على الربوة تنتظر إياب سُلجار وقد وعدها أن يئوب

---

(١) تخدد : تشقق

على أن الليل أرخى سدوله على الرُّبى والبطاح ولم يعُدْ المنتظر . اسمعوا صوت كُلْمى وهى وحدها جالسة على الربوة » .

كلمى

« غشينى الليل بظلامه وأنا وحدى منسية على الربوة وقد هاجمتها الزوابع . الريح تعصف فوق الجبال ، والسيل يتدفق داوياً بين الصخور ، ولا ملجأ لى من المطر ولا كِنَّ ؛ أنا وحدى متروكة على الربوة وقد هاجمتها الزوابع »

« أخرج أيها القمر ساطعاً من بين الغيوم ،وانشرى أضواءك الزاهية يا نجوم الليل ، فعسى أن أهتدى إلى حيث يستريح حبيبي من متاعب الصيد ، وقوسه المُرْخاة ملقاة إلى جانبه ، وكلابه اللاغبة راقدة من حوله ! ولكن كُتِبَ علىّ أن أبقى هنا فريدة على الصخرة المعشبة ! إن السيل يزخر ، والعاصفة تزأر ، فلا أستطيع أن أسمع صوت حبيبى !

« لماذا تبطئ ياحبيبى سُلجار ؟ هل نسيت موعدك ؟ هذه هى الشجرة ، وتلك هى الصخرة ، وها هو السيل

يدوى ! لقد وعدت أن تكون هنا مع الليل ! والهفتاه
أين ضل حبيبى ؟ كنت أريد أن أفر معك بعيداً عن أبى
الجبار وأخى المتكبر
لقد جف[1] الثرى بين قومينا فتعاديا منذ طويل .
أما نحن فلسنا عدوين يا سلجار ! إحبس نَفَسَك أيها
الهواء لحظة ، وقِفْ جريانك أيها السيل لمحة ، فعسى أن
يرن صوتى فى جوف الوادى فيسمعه حبيبى التائه ! سلجار !
هأنذى أدعوك ! هذه هى الشجرة ، وتلك هى الصخرة ،
حبيبى سلجار . هلمّ الىّ فهأنذى . لماذا أبطأت فى العودة ؟
أنظر ! لقد أسفر القمر فى السماء ، وتلألأت الأمواج فى
الوادى ، وابيضّت الصخور على جوانب الهضبة ، وحبيبى
لا أراه فوق القمة ، وكلابه لم تسبقه معلنة قدومه . لقد
كُتب علىّ أن أبقى هنا وحيدة !

« ولكن من هذان الراقدان هناك فوق سهول
الخلَنْج ؟ أهذا حبيبى ؟ أذاك أخى ؟ ردّا علىّ الجواب
يا خليلىّ ! ويلاه إنهما لا يجيبان ؟ واحر قلباه من حزن
يذيبه وجوى يحرقهُ ! لقد ماتا وبجانب كل منهما سيفه
تجرى على ماء حديده نار الدماء . أخى ! لِمَ قتلت حبيبى ؟

---

(١) كناية عن العداوة والخصومة

حبيبى ! لم قتلت أخى ؟ لقد كنتما عزيزين علىّ . كان حبيبى أجمل الرجال فى الجبل ، وكان أخى أشجع الأبطال فى المعركة . أجيبا النداء وأسمعا الصوت ياخليلىّ ! ولكن هيهات ! لقد أصابهما الخرس الأبدى فَعيّا عن الجواب ، وبَردت أحشاؤهما فأصبحت كصعيد الأرض !

كلمونى يا أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل ، كلمونى فانى لا أرتاع ولا أفزع . خبرونى أين تلتمسون الراحة ؟ أفى الغِيران والكهوف أوافيكم فألاقيكم ؟ حنانيك يارب ! لا يحمل الهواء إلىّ صوتاً ، ولا ترد العاصفة علىّ جواباً ! أنا وحدى فى وسط الآلام ، أنتظر الصباح باكية بدموع الغمام ! احفروا القبر يا أصدقاء الموتى ولا تَهيلوا التراب قبل أن تأتى كُلْمى ! مضت حياتى مُضِىّ الحُلم ، وسبق الذين أحبهم فَلِمَ أتأخر عنهم ؟ هنا أريد الثواء بجانب الأحبة على ضفة الجدول الهادر فوق الصخرة !

« حينما يضرب الليل بجِرانه على التَّلعة ، وتهب الريح رُخاء فوق الخلَنج ، تجدون هناك روحى مع الهواء تبكى الأحبة وترثيهم . سيسمعنى الصائد فى كوخه فيفزعه صوتى ، ولكن لا يلبث أن يحبه ، فان صوتى سيكون عذباً رخيماً فى رثاء الحبيبين . لقد كان كلاهما عزيزاً على ! »

***

«هكذا كان غناؤك يا مينُونا يا ابنة طرمان ، يا ذات الوجنتين المضرَّجتين بحمرة العفاف والخجل . لقد سالت مدامعنا وجَوِيت نفوسنا رحمةً لكلمى

ثم تقدم أُولينُ ومعهُ قيثارته فأسمعنا نشيد ألْبينَ .

كان صوت ألْبينَ رخيماً ، وكان رينو متُوقد النفس عظيماً ، ولكن المنية علقتهما معاً فما تسمع نبرات صوتيهما في سِلْمى !

مرَّ بهما ذات يوم أولينُ وهو عائد من الصيد فسمعهما يتعاقبان الغناء فوق الجبل ، وكان غناؤهما مطربا شجياً : يندبان به مصرع مورار رأس الأبطال . وكانت نفس مورار كنفس فنجال ، وسيفه كسيف أسكار ، ولكنه خرّ صريعاً فلم يغن ذلك عنه شيئاً ، فبكاه أبوه ، وأعولت عليه أختُه مينونا الجميلة أخت مورار الباسل !

« لم تكد تسمع مينونا غناء أولين حتى انصرفت كالقمر أنذرته العاصفة بالمطر ، ففر الى المغرب وستر رأسه الجميل بين السحب

« أما أنا فانطلقت أناملى على القيثارة تتابع أولين فى هذا اللحن الحزن .

رينو

« سكنت الريح ، وأقلعت السماء ، وصفا الجو ، وانقشع الغمام ، وشعشعت الشمس وهى هاربة زهور الربى المخضرة ، وألقت الأرجوان من نارها على موج الجدول . ما أجمل خريرك أيها الجدول ! ولكن أجمل منه ذلك الصوت الذى أسمع . صوت ألبين يندب الأموات ويرثيهم ، وقد مالت برأسه الهموم وقرح جفنيه البكاء . مالى أراك أيها الشادى الرفيع وحيداً على الربوة المقفرة الصامتة ؟ ولِمَ تئن أنين الهواء السجين فى الغابة ، وتنتحب انتحاب الموج على الساحل البعيد ؟

ألبين

« إن دمعىَ يارينو على الأموات موقوف ، وصوتى فى رثاء الظاعنين معروف ؛ أنت فوق الربوة جليل عظيم ، وبين أطفال السهول جميل وسيم ، ولكنك ستُصرع كما صُرع مورار ، ويقف على قبرك أصحابك المحزونون يبكونك ويندبونك ! ستنساك التلاع ، وستبقى قوسك المرخاة مهجورةً فى إحدى زوايا القاعة الكبرى ! لقد كنت يامورار سريعاً كالظبى فوق

الجبل ، مروعاً كالنار تضطرم ليلا فى الأفق . وكان غضبك يثور كالزوبعة ، وسيفك يلمع كالبرق فى المعمعة ، وصوتك أشبه بهدير السيول غِبَّ المطر ، أو بقصف الرعود على التلال النائية . كنت اذا حمى الوطيس أطفأته بالدماء ، وأحرقت بنار غضبك جسوم الأعداء ، فاذا أغمدت السيف عاد صوتك هادئاً كصوت الطفل ، ووجهك طلقاً أبلج كالشمس بعد العاصفة ، أو كالبدر فى الليلة الساكنة الصامتة ، وأصبح صدرك الثائر الهائج كصدر البحيرة اذا ما قرّ الهواء وسكن . ما أضيق اليوم مثواك ! وما أظلم يامورار مأواك ! وما أعجب أن يوارىَ مجدك وعلاك قبرٌ ذَرْعه ثلاث خطوات ! واحسرتاه ! لم يبق لمورار القوى القادر من أثر يتبينه السائح غير أربعة أحجار كللت رءوسها الأُشْنَة ، وشجرة نضَت أوراقها يد الخريف ، وأعشاب سامقة ترقص على صفير الرياح ! ليس لك أم تذرف عليك دموع الحنان ، ولا خطيبة تسكب عليك دموع الحب ! لقد ماتت أمك وهلكت ابنة مُرْجُلان !

« مَن ذلك القادم متوكئا على عكازته العَقْداء ؟ ذلك أبوك يا مورار ! أبوك الذى لا ولد له غيرك ولا وزَرَ له

سواك ! لقد قرع مسمعيه صيتك فى صدق اللقاء ، وتشتيتك الأعداء تشتيت الهباء فى الهواء . علم أبوك يا مورار بفعلك العظيم ومجدك السامى ، ولكنه وا أسفاه لم يعلم بخطبك الجسيم وجرحك الدامى ! إبك أيها الوالد ما أقرنت عينك بالبكاء[1] ولكن ولدك لا يسمعك. إن نوم الميتين عميق ثقيل ، ووسائدهم من الثرى واطئة منخفضة . أبداً لا يبلغه صوتك ولا يوقظه دعاؤك . متى ينبثق ضوء الفجر فى القبر فيقول للنائم : تيقظ ؟ وداعاً يا أشرف الرجال ! وداعاً يا سيد الأبطال يوم القتال ! هيهات أن تراك بَعْد هذه الحقول ! وهيهات أن يَمِضَ مَتْنَا سيفك فى ظلام الغابة ! ليس لك من ولد يحمل فى الحياة اسمك ، ولكن أغانينا ومراثينا ستخلد ذكرك بعدك ، وتنقل الى الأجيال المقبلة فخارك ومجدك »

« فعلا نحيب الأبطال واشتد بكاؤهم ، ونفث أرمين من صدره نفثة خفتت دونها الزفرات ، وضاع فيها الأنين . أذكره ذلك الرثاء مصرع ولده وهو فى وفرة الشباب وزهرة العمر ، فلم يطق حبساً لزفراته ، ولا كفًّا لعبراته . وكان كرمور أمير جَلْماﻻ جالساً مع

---

(١) من قولهم . أقرنت السماء بالمطر . دامت ولم تقلع

الأبطال ، فتقـدم الى أرمين يسأله . — ما هذه الزفرة الداميـة يا أرمين ولات حين بكاء ؟ إن أنغـام الشعر والغنـاء لتريض النفس وتبهج القلب وتنعش الخاطر. إنها لأشبه بالبخار الخفيف ينعقد فوق البحيرة ثم ينحل رذاذاً فوق الخمـائل والأودية ، فيرطب الزهر ويندِّى الشجر . ولكن الشمس اذا علا ضحاها تبـدد البخار وجف الندى . مالك يا أرمين تعلن الشكوى وتضج من الألم وأنت الحاكم على جُرمَا المحاطة بالأمواج — ؟

أرمين

« — نعم أنا شاكٍ باكٍ حزين ، وإن سبب عذابى لقوىّ مكين ! إنك يا كرمور لم تفجع فى ابن رطب العود ، ولا فى ابنة ريانة الشباب . لا يزال كُلجار الشهم وأميرا الجميلة يتنسمان روْح الحيـاة ، ولا تزال فروع دوحتك يا كرمور تزهو وتزهر . أما أرمين فآخر نبعة من أرومته !

« ما أظلم مَرقدك يادُورا ! وما أطول رقادك تحت الثرى ! متى تهبين من سباتك العميق فنسمع غنـاءك

العذب وصوتك الرخيم ؟

« هُبِّي يا رياح الخريف هُبي ! هُبي واعصفى فوق حقول الخَلَنْج العابسة ، واصدمى أيتها العواصف رءوس السنديان ، وادوى ياسيول الغابة ، وتقدم أيها القمر خلال الغيوم الممزقة ، واحسر عن وجهك الشاحب فترة بعد فترة ، وأعدْ الى ذا كرتى تلك الليلة الهائلة المروِّعة ، ليلة دعا داعى الموت ولدىّ فسقط أرِ ندال القوى ، وهلكت دورا العزيزة !

ابنتى دورا : لقد كنت جميلة كالبدر على يَفَاع فيرا ، بيضاء كالثلج على أجنحة الرياح ، رقيقة كأنفاس النسيم فى فم الصباح !

« ولدى أرندَال ! لقد كانت قوسك صلبة شديدة ، وحربتك فى الوغى سريعة سديدة ، وكان نظرك كالبخار فوق الأمواج ، وترسك كالغمامة الملتهبة فى الزوبعة !

« جاء ارمار الصيِّت فى القتال يخطب قلب دورا ويبتغى حبها فلم تمتنع عليه طويلاً ، فسر ذلك قلوب أوليائه ومحبيه إلا إراط بن أُدْجال فقد أضَبَّ له [1] على

---

(١) أصب له على حقد . أصمره ونواه

حقد وحسد ، لأن أخاه سقط فى حومة الوغى طعين أرمار .
تنكر هذا الخائن فى زى ملاح تَوَّجه الدهر بتاج المشيب
فبـدا على محيـاه جلاله ووقاره ، وأقبـل تاركا زورقه
الجميل على الماء حتى لقى دورا فقال : « يا أجمل العذارى
ويا ابنة أرمين الفاتنة ! هناك على تلك الصخرة القريبة
من الســاحل ينتظرك أرمار . وقد جئت أدعوك
ياحبيبة قلبه لأ عبر بك البحر المزبد اليه » فما ترددت
مورا ولا كذبت ، بل اقتفت أثره وركبت زورقه حتى
دنت من الصخرة ، فنادت أرمار فلم يجبها غير صداها !
« أرمار يا حبيب مهجتى ! أرمار يا مؤنس وحشتى !
لَمَ تركتنى فريسة الهم و القلق ؟ سَماع يا ابن إرناط
سماع ! إن دورا هى التى تهيب بك وتدعوك
« تركها الخائن ارناط على الصخرة بين الأمواج
وارتد الى الساحل ضاحكاً . فأخذت المسكينة ترفع
عقيرتها مستغيثة بأبيها وأخيها : أخى أرندال ! أبى أرمين !
أما يأتى أحد كما فينقذ من يد الموت قرة عينه دورا ؟
« عبر صوتهـا البحر الى مسامع أرِندال وقد كان
هابطاً من الربوة موقَراً بمغانم الصيد ، قوسه فى يده ،

وسهامه ترن الى جانبه ، وخمس سلوقيات[1] غُبْرٍ ضوامر تلهث من حوله . فرأى على الشاطىء إراط المقدام فشد وثاقه وربطه فى سنديانة ، فملأ أنينه الجو وبلغ عويله السماء . ثم دفع ارندال زورقه بين الأمواج يريد خلاص دورا . فجرى القضاء المحتوم أن يأتى الساعة أرمار وهو لا يعرف نفسه من الغضب ، فظن الأخ عدوا فرماه بسهم مُرَاش لم يجد موقعه الا فى قلبه . يا لَشقاء الجد ياولدى ! لقد أقصدتك[2] نبلة ريشت للعدو ، وأصمتك ضربة كانت للخائن !

« وقف المجداف فجأة ، ووقف بك الزورق على الصخرة حيث فاضت روحك بين يدى أختك ! وارحمة لك يا دورا ! ما أشد عذابك وأفدح مصابك حين خضبت قدميك دماءُ أخيك !

« نهشت الأمواج الزورق فتحطم ، فلم يجِد أرمار حيلة لخلاص دورا إلا أن يلقى بنفسه فى اليَمّ ، فاما أن ينقذها وإما أن يموت . سبح أرمار فوق الماء ، وقضت

---

(١) كلاب الصيد (٢) أقصده السهم . اصابه فقتله مكانه وكذلك أصماه

مشيئة الله أن يجل الخطب ، ويفدح الرزء ، فأرسل من صياصي الجبال عاصفةً هوجاء أثارت غضب البحر فابتلع أرمار !

« والهف نفسي على ابنتي وحدها على الصخرة ترسل أنَّاتها مع الرياح إلى الجهات الأربع ! كانت صرخاتها حادة متواصلة ، وأبوها لا يملك لها نفعاً ، ولا يغني عنها شيئاً

« سهرتُ الليل كله واقفاً على الشاطىء أنظر اليها في أشعة القمر الشاحبة وما فتر صراخها طول الليل ولا همد . كان الهواء عاصفاً يملأ الجو صفيرُه ، والمطر واكفاً يصك الجبل هديره ، وابنتي ترسل الصيحة إثر الصيحة حتى خشع صوتها قبل الصباح وخفت . ثم غاب ذلك الصوت وذهب كما تذهب نسمات المساء بين أعشاب الصخور ، وماتت ابنتي منهوكة القوى من الحزن والألم ، وخلفت أرمين بين مخالب اليأس وحيداً . واحسرتاه ! لقد قتل من كنت أتقوى به يوم الطعان ، وماتت من كنت أفخر بها على الكواعب الحسان !

« كلما هبطت زوبعة من الجبل ولعبت ريح الشمال بالموج جلست على الشاطىء الهدار أنظر إلى تلك الشجرة المشئومة ! وكثيراً ما ألمح عند أفول القمر طيفي ولديَّ

يحولان معاً فى ضباب الفجر حزينين باكيين ؟

* * *

انهلَّت مدامع شرلوت انهلال القَطر فنفَّست عن صدرها المكروب وقطعت قراءة ڤرتر . فرمى الكراسة من يده وأخذ يدها ثم تساتل[1] دمعه وانهمل . أما شرلوت فاعتمدت على يدها الاخرى وسترت وجهها بمنديلها ، وكان انفعالهما المشترك قوياً شديداً : رأى كل منهما عثار جده وسوء حظه فيما قدرلأبطال أسيان ، فاتحد الأسى وامتزج الدمع ؛ ووضع ڤرتر شفتيه الملتهبتين وعينيه المتقدتين على ذراع شرلوت فارتعدت ، وأرادت أن تبتعد فَغَلَّها الاشفاق وكبَّلها الألم فلم تستطع حراكا . وأخذها الخُناق فبالغت فى الشهيق وحاولت أن تعود إلى نفسها فأقسمت على ڤرتر بنغمة قدسية عذبة أن يواصل القراءة . فاضطرب ڤرتر وخيل اليه أن قلبه يكاد ينفطر ، ثم تناول الكراسة وأخذ يقرأ بصوت يتهدج من النحيب ، ويتقطع من الوجد :

« لِمَ توقظينى يا أنفاس الربيع ؟ هذه نفحاتك الحلوة تلاطفنى وتقول : « انى أقطِّر لك الندى ، وأسكب عليك طل السماء » ولكن وقت ذبولى قدأفد ، وأوشكت

---

(١) تقاطر وتتابع

العاصفة التى تسقط أوراقى أن تهب ، وغداً يأتى المسافر
الذى عرفنى فى شبيبتى وجمالى فيفتش عنى فى الحقول ،
ويطلبنى فى السهول ، فلا يجد لى خبراً ولا أثراً »

فوقعت هذه الكلمات المؤثرة فى قلب المغرم المسكين وقوع العبء الفادح على الكاهل الواهن المنحلّ ، فارتمى على قدمى شرلوت فى حال من اليأس لا توصف . وأخذ يديها ووضعهما على عينيه ، ثم على جبينه ، فخيل اليها أن عزمه[٢] المروّع قد مر فى قلبها مرور السهم فى الرميّة ، فاضطربت مشاعرها وخارت قواها ، فضغطت يديه ثم ضمّتهما الى صدرها ، ومالت عليه منفعلة ثائرة . فتماسّ خداهما المحترقان وانمحى امامهما العالم بأسره. حوطها بذراعيه وضمها الى حضنيه ثم أنحى على شفتيها المضطربتين المغمغمتين بالقبل القوية الحارة ، فأعرضت عنه وصاحت بصوت مختنق : « ڤرتر ! » ثم أزاحته عن صدرها بيد فاترة ، وقالت مرة أخرى بلهجة ثابتة تدل على أشرف الاخلاق وأنبل العواطف . « ڤرتر ! »

لم يقاوم ڤرتر ، بل تركها تفلت من بين ذراعيه ووقف أمامها ساهماً مشدوهاً كأنه أبله . واتجهت هى نحو الباب فزعة مسرعة تقول وفى قولها رنة الغرام والغضب . « تلك آخر مرة ياڤرتر !

---

(١) عزمه الانتحار

هيهـات لن تراني بعـد ! » وألقت على البائس الواله نظرة تفيض بالحب ، ثم لجأت الى الغرفة المجاورة وأغلقتها عليها

ما زاد الفتى على أن بسط ذراعيه اليها دون أن يحاول اعتياقها ، وجسمه ممدد على الأرض ، ورأسه مُسْند الى الـكنبة ، وبقى على تلك الحال أكثر من نصف ساعة ، ثم عاد الى نفسه على حركة الخادم وقد أقبلت تمد الخوان . فقام يتمشى فى الغرفة حتى رأى نفسه وحيداً ، فتقدم نحو الحجرة التى لجأت اليها وناداها بصوت خافت : « شرلوت ! شرلوت ! بّردى حشاى بلفظة ، ودّعى الظاعن بكلمة ، حنانيك لا أطلب الا ذاك » فلم ترد عليه جواباً ، فانتظر ثم تضرع ثم انتظر ، فلما أبطأ الرد ولى مدبراً وهو يصيح : « وداعاً يا شرلوت ! وداعاً الى الأبد ! » وأخذ سمْتَه الى باب المدينة فتركه الحرّاس يمرّ دون أن يكلموه لاعتيادهم رؤيته على مثل حاله

خرج من المدينة فرتر والرياح شديدة عاصفة ، والسماء مُثْلجة واكفة ، فلبث حتى الساعة الحادية عشرة ثم عاد الى منزله فرآه خادمه من غير قبعة فلم يجرؤ على تنبيهه ، ونضا عنه أثوابه فوجدها مبللة . ثم رأى بعض الناس قبعته بعد حين فوق صخرة على سفح الهضبة ، فلا جرم أنه تسلقها فى ليلة حالـكة ماطرة دون أن يسقط

نام تلك الليلة ملء جفونه ، ولما أصبح الصباح دخل عليه الخادم بالقهوة فوجده مكباً على الـكتابة . كان يضيف هذه الأسطر التالية

على كتابه الى شرلوت :

« تلك إذن هى المرة الأخيرة التى أفتح فيها عينىّ ! وا أسفاه ! إنهما لن يريا ضوء الشمس بعـد . الشمس محتجبة بالغمام ، والسماء منتقبة بالظلام ، وهكذا فليكن حدادك أيتهـا الطبيعة . إن ابنك وحبيبك يقرب من نهاية أيامه ، ويدنو من ساعة حمامه . شرلوت ! إن الشعور الذى يشعر به المرء ساعة يقول لنفسه : « **ذلك هو يومى الأخير** » لا يوازيه شعور ولا يقاربه شئ ، اللهم الا عواطف الأحلام المبهمة . الأخير ؟ هذه الـكلمة يا شرلوت لا أفهم لها معنى . ألستُ اليوم فى مرح القوة ووفور العافية ؟ وغداً سأكون طريحاً على الثرى دون حركة ولاقوة . الموت ! مامعنى الموت ؟ ألا ترْين أنا نحلم كلما تكلمنا عن الموت ؟ لقد رأيت كثيراً من الناس ماتوا ، ولـكن الانسانيـة محدودة الادراك فلا تستطيع أن تفهم لوجودها أصلاً ولا غاية

أنا اليوم لا أزال لنفسى ، بل لك يا حبيبة القلب ! وفى لحظة واحدة ينسدل بيننا حجاب القدر فنتفرَّق ويفقد كلانا الآخر ، وربما كان ذلك الى الأبد ! لا لا يا شرلوت ! كيف يعرونى الفناء وكيف يطويك البِلى ونحن مع ذلك نعيش ونوجد ؟ ما معنى الفناء ايضا ؟ إنها كلمة جوفاء لا تُسفِر عن معنى ولا تدل قلبي على شئ . أمعنى الموت يا شرلوت أن أغيَّب فى جوف الأرض وأقبر فى لحد ضيق مظلم ؟ يا للهول !

لقد كان لى فى شبابى المفقود صديقة لا تعرف سواى ، فعدا عليها الموت ، فشيعت جنازتها مع المشيعين ، ثم وقفت على شفا الحفرة ورأيتهم وهم يدخلون فيها الناووس ، وسمعت جرجرة الأحبال وهى تُحل وتجذب . . ورأيت الهيْلة الاولى تسقط على التابوت فأخرجتْ منه صوتاً أصم ما زال يزداد على الانهيال صمما حتى توارى الناووس تحت الثرى . فجثوت على ركبتى بجانب القبر مبلبلاً مأخوذاً يفيض الهم من جوانب قلبى المصدوع ! ولكننى كنت أجهل ما يحدث أمامى ، وما ينتظرنى فى آجل أيامى . موت ! فناء ! قبر ! كلمات مخيفة لا أفهم لها معنى ولا أدرى لها حقيقة

آه ! عفواً أيها الملاك وصفحاً ! أمس ! يالله من أمس ! ليته كان آخر عهدى بالحياة ! أجل أيها الملاك الكريم ! تلك كانت أول مرة شعرت فيها يقينا بسرور نفسىٍّ ، وشعور قدسىٍّ ، سريا فى عروقى وجريا فى دمى ، فاهتز لهما جثمانى ، وفاض بهما وجدانى . ذلك لأنى علمت أنك تحبيننى ! نعم تحبيننى ! وهذه النار المقدسة التى سرت من شفتيك لا تزال تحرق شفتىّ ! ألاَ إن نشوة شديدة جديدة قد ملكت مشاعرى ، وملأت قلبى وخاطرى ، فعفواً يا ملاك وصفحاً !

آه ! لقد كنت أعلم يا شرلوت انك تحبيننى . نعم كنت أعلم ! ذلك منذ تصافحنا لأول مرة ، ومنذ رميتنى بنظراتك الأولى التى تمثلت فيها نفسك ، وتجمَّع فيها حسك ، ولكننى كنت مع هذا اذا

تركتك أو رأيتك مع ألبير أخذتنى حمى الشك وملكنى شيطان الغضب . أتذكرين تلك الأزهار التى بعثت بها الىّ عقب ذلك المجتمع البغيض الذى لم تستطيعى فيه أن تكلمينى أو تصافحينى ؟ لقد قضيت نصف الليل جاثياً أمام تلك الزهرات وهى تحدثنى عن حبك وغرامك . ولكن وا أسفاه ! لقد امّحت تلك الانفعالات كما يمّحى على التدريج من قلب المؤمن شعوره بفضل الله الذى أسبغه عليه وأسداه اليه !

كل ذلك يعفو على الزمن ويبيد . ولكن الحياة المضطرمة التى قبستها من شفتيك بالأمس لا يقوى الأبد على إطفائها وإفنائها . إنها تحبنى ! وساعداى هذان قد التفّا عليها ، وشفتاى هاتان قد اضطربتا على شفتيها ، وفى هذا قد تمتم على فمها الضاحك العذب ! إنها لى ! أجل إنك لى ياشرلوت إلى الأبد ! ماذا يهمنى أن كان ألبير زوجاً لك ؟ زوجاً لك ! إن ذلك فى رأى هذا العالم وحده ، فى رأى هذا العالم الذى يعد حبى إياك خطيئة ، ويرى انتزاعى لك من ذراعيه إلى ذراعى خطيئة . خطيئة ! إن تكن فقد عاقبت نفسى عليها . لقد تلذذت بهذه الخطيئة وتمتعت بمذاقها السماوى العذب ، وسقيت منها القلب شراباً طهوراً ، وقبسته حياة وقوة وسروراً . أنت لى منذ تلك اللحظة يا شرلوت . وسأتقدمك إلى أبى وأبيك فأشكو اليه همومى فيعزينى ويسلينى ريثما تقدمين . فاذا ما قدمتِ طرت اليكِ ، واستوليت عليكِ ، ثم نقف أمام الخالق الأزلى ونفسانا ممتزجتان

وجسمانا متحدان بعناق دائم سرمد

أنا لا أحلم ولا أهذى . بل النهـار يضىء ساطعاً فى عينى كلما دنوت من باب القبر . إنا سنوجد ياشرلوت ، وسيرى كل منا الآخر، وسألقى أمك ! أجل . سأراها وألقاها ، وأفضى اليها بذات صدرى ، ودخيلة أمرى ، فهى صورتك التامة الـكاملة »

***

قُبيل الساعة الحادية عشرة دعا ڤرتر خادمه وسأله أعاد ألبير ؟ فأجابه أن نعم . فحمله رسالة مفتوحة اليه يقول فيها :

« لك الفضل يا صديقى إن سمحت باعارتى غدارتيك أحملهمافى سفرة أزمعتها . وإنى أستودعك الله ! »

أما شرلوت المسـكينة فلم تنم تلك الليلة إلا غِرارا . فقد كان ما خشيت أن يكون ! كان ولـكن بطريقة لم تحسها ولم تتوقعها ، فعاد دمها الساكن المنتظم ثائراً فواراً ؛ وألَحَّتْ العواطف المتناقضة المبهمة على ذلك القلب الـكريم فهوشته وأضرمته . هل كان ذلك لظى النار التى أشعلها فى صدرها عناق ڤرتر ؟ أم من السخط الذى نالها من جرأته وإقدامه ؟ أم كان ذلك لموازنتها المؤلمة بين حاضرها الظنين المروع ، وماضيها الرخِىّ البرىء ، أيام كانت طليقة من عقال الهم شديدة الثقة بنفسها قوية الأمل فى حياتها ؟ كيف تقف أمام زوجها ؟ وكيف تَقِفه على هذا الأمر ؟ وهل فيه ما تخشى الاعتراف به ؟ على أنها لا تستطيع

مع ذلك أن تنشره ولا أن تذكره . لقد لزم الزوجان الصمت منذ حين ، فهل تكون هى أول من يقطع ذلك الصمت بحكاية ذلك الخبر الطارئ فى وقت غير مناسب ؛ لقد كانت تخشى أن يكدر زوجها زيارة ڤرتر البسيطة ، فكيف إذا علم بهذه النازلة ؟ هل كان فى مرجوّها أن يرى ألبير هذا المشهد على حاله فيعلم أمرها من غير سوء ، ويحكم عليها من غير ريبة ، ويقرأ فى صحيفة قلبها البيضاء براءة نفسها ونقاء ضميرها ؟ أم كان فى حسبانها أن تكاتمه الأمر وتطوى عنه الخبر ؟ وما أدرى كيف يستطيع هذا القلب المفتوح أن يمسك على ما فيه ، وما عهده ألبير الا ناصح الدِّخلة مأمون المُغَيَّب ! ما حاولت شرلوت يوما أن تدافع زوجها عن قلبها ، فما زوت عنه سراً ولا كتمت دونه عاطفة . لذلك اعتراها من هذا الامر ارتباك وقلق ، وأخذت خواطرها تذهب وتعود فلا تقع إلا على ڤرتر ، ذلك الذى هلك فى سبيلها فلا تستطيع أن تقطعه ، ولا تجد فى وسعها أن تنفعه ، واذا ما فقدها فلن يكون له فى العالم أحد ، ولن يبقى له فى الوجود شىء

ما كانت لاضطرابها تستطيع أن تلحظ ذلك الفتور الذى كان لأجلها بين ألبير وڤرتر . فقد تعادى ما بين الرجلين على رجاحة عقليهما ، وسمو فضليهما ، ولزما جانب الصمت المطلق ، وذهب كل منهما الى النظر فى شأن أخيه فرأى الخطأ فى جانبه . ثم استفحل الأمر واستحكم الخلاف حتى أعضل الحل وعز الوفاق فى أشد

الأوقات حرجاً ، وأمسها بحسن الظن حاجة . فلو أن الثقة عادت الى الصديقين ، وتجدد التسامح والحب بين القلبين ، لكان من الممكن أن ينجو صديقنا المسكين

ومما زاد شرلوت اضطراباً وحيرة أن ڤرتر لم يحاول كتم ما فى نفسه من بغض هذا العالم ورغبته الشديدة فى تركه . ولطالما كانت هذه النية التي جد فى محاربتها ألبير موضوع الحديث بينه وبين زوجه . وكثيراً ما دعاه مقته الانتحار الى أن يقول بلهجة ليست من عادته ولا طبعه إن ذلك لا يصدقه ، ولا يعتقد فى ڤرتر مايحققه ، وربما خرج فى حديثه مع شرلوت عن هذا الأمر الى التهكم به والسخر منه ؛ فكان ذلك يذهب خيفتها ويسكن روعها كلما تمثلت فى ذهنها تلك الفاجعة الأليمة . على أنها ما كانت تستطيع الافضاء الى ألبير بتلك المخاوف التى كانت أوانئذٍ تهاجم قلبها وتذكى حشاها

* * *

عاد ألبير نخفت اليه شرلوت فى عجلة وربكة ، فلم تجده مشروح الصدر ولا صافى النفس ، لأن أعماله لم تنجز ، ولأنه وجد فى حاكم المقاطعة المجاورة رجلا شكس الخلق صعب المراس دنىء الطباع ، ذلك الى مالقى فى الطريق من وعورة ومشقة كدرت صفوه وغيرت مزاجه . سألها عما كان فى غيبه فأجابته أن ڤرتر جاءها ليلة الأمس .

فقال لها ألبير : ألم يرد الى مع البريد رسائل ؟ فقالت : بلى جاءتك رسائل وأضاميم فوضعتهـــا على مكتبك فى غرفتك . فذهب الى مكتبه ، وبقيت شرلوت وحدها وقد تفتح قلبها لانفعالات جديدة فى حضرة هذا الرجل الذى تحبــه وتجله ، ووجدت فى ذكرى كرمه وحبه وحنانه روحاً من الرخاء والهدوء لنفسها القلقـــة المعذبة . فشعرت فى نفسها بقوة خفية تدفعها الى اللحاق به. فأخذت نسيجها فى يدها وذهبت اليه على عادتهـا ، فوجدته مشغولا بفض رسائله وقراءتها ، وكان بعضها يحمل أنباء لا تسر . فألقت عليــه بعض مسائل أجاب عنها باختصار ثم جلس الى مكتبه وطفق يكتب

لبثا على تلك الحــال ساعة من نهار . وكانت شرلوت تنقبض من حين الى حين ، وترى من المستحيل أن تصارح زوجها بدخيلة أمرها ولو كان فى خير حالاته ، وأسر أوقاته . فأخذها الحزن واحتضرها الهم ، وكادت تنفجر لولا أن ملكت نفسها ، ونهنهت دمعها ، ولكن ظهور خادم ڤرتر فى تلك الساعة أتم عليها الحيرة وجاز بها حد القلق

تقدم الخادم الى ألبير وناوله بطاقة ڤرتر فقرأها ، ثم التفت الى امرأته وهو هادئ مطمئن وقال لها : « ناوليه الغدارتين » ثم قال للخادم : « قل لسيدك إنى أرجو له سفرة حميدة ، ورحلة سعيدة » فوقعت على شرلوت هــذه الكلمات وقوع الصاعقة . ثم نهضت

حيرى يميد بها الشجو ويهفو بها القلق وهى لا تدرك شيئاً مما تحس وتشعر. وتقدمت الى الحائط فى وناء و بطء فنزعت الغدارتين بيد واجفة مسحت عنهما الغبار ثم وقفت مترددة . ولولا نظرة من ألبير خرجت بها عن موقف الحيرة لطال التردد وزادت الربكة . فدفعت السلاح المشئوم الى الخادم دون أن تنبس بحرف . وشيعته بنظرها الحائر الى باب الدار. ثم التقطت نسيجها من الارض وانزوت فى غرفتها والقلق يعبث بها عبث الزعازع الهوج بالشجرة المتهدلة الغضة . وما كان وحى قلبها الا المخاوف المروعة والاهوال الفظيعة . فتارة تريد أن تلقى بنفسها على قدمى زوجها فتبوح اليه بما أسرّت من حوادث البارحة وتكشف له عن خطيئتها المستترة ومخاوفها المتوقعة ، وتارة ترى أن تلك طريق لا توفى بها على القصد ولا تخرج منها الى الغاية ، فتيأس من حمله على الذهاب الى ڤرتر

مُدّ الخوان وأعدت المائدة . واتفق أن جاءت صاحبة تريد شيئاً على عجل فحجزاها للطعام ، فكان حديث المائدة بسببها محتملاً مقبولا ، فان الزوجين كظما على ما فى نفسيهما وتشقق الحديث فلها كل عن شأنه

عاد الخادم بالغدارتين الى ڤرتر ونبّأه أن شرلوت هى التى ناولته إياهما فقبلهما جذلان طرباً . ثم تناول ما أعد لنفسه من خبز ونبيذ بعد أن صرف الخادم يتناول غداءه ثم جعل يكتب :

« سلمتهما الى الخادم بيديك ! ونفضت عنهما الغبار بيديك ! فأنا أقبلهما ألف قبلة لأنك لمستهما ومسحتهما . أنت ياملاك السماء أسعفتني بحاجتي ، وسهلت عليّ تنفيذ رغبتي . أنت يا شرلوت التي قدمت اليّ السلاح ، ومهدت لي طريق الموت . لقد كنت أطمع أن أنال شهد الحياة منك ، وهأنذا اليوم أتجرع صاب الردى من يدك

« كم سألت خادمي وسألت ! فقال لي إنك كنت تضطربين ساعة ناولته السلاح ، وإنك لم تحمليه وداعاً الي ! وا أسفاه ! واويلتاه ! حتى الوداع لا أظفر به منك ! هل أغلقت أبواب قلبك دوني من جراء تلك اللحظة المقدسة التي ربطتني وإياك الى الأبد ؟ شرلوت ! ستمر ألوف من السنين وتكر ، ويتغير كل ما على الأرض ويعفو ، الا أثر تلك اللحظة فانه باق على الزمن لا يمّحي ولا يبيد . أجل ! أشعر أنك لا تبغضين ذلك الذي يحترق في سبيلك ، ولا يتبع فيما يعمل دليلا غير دليلك »

ثم أمر خادمه بعد الغداء أن يحزم الصرر ويعد الحقائب . ومزق جملة كبيرة من الأوراق ، وخرج فقضى ماعليه من ديون يسيرة ، ثم عاد وما لبث أن خرج تحت المطر الوابل الى ظاهر المدينة يؤم حديقة الكنت . فتجول ما شاء في الحقول ولم يعد الا مع الليل . فدخل غرفته وأخذ يكتب :

« رأيت ياوليم السموات والغابات والمزارع لآخر مرة ،

أستودعك الله يا أمى العزيزة البرَّة . سامحيني واغفرى لى . عليك يا وليم أن تسليها وتواسيها ، وعلى الله أن يسبغ عليكما إحسانه ، ويمنحكما بركته ورضوانه . كل أعمالى مرتبة منظمة . أكرر لكما الوداع يا عزيزىَّ . سوف نتلاقى و نتراءى ، ويومئذ يبتسم لنا ثغر السعود ، فى جنات النعيم والخلود

« لقد جزيتك يا ألبير على ودك شر الجزاء ، فاعفُ عنى وسامحنى . كدرت صفاء بيتك ، و بذرت التُّهمَة والحذر بينك و بين زوجك . أستودعك الله ! سأجعل لكل ذلك حداً . وعسى أن يسعدكما شقائى ، ويوجدكما فنائى . ألبير ! ألبير ! أسعد هذا الملاك ووطىء له أكناف الراحة والغبطة . والله يفيض عليك خيراته ، و يوليك رحمته و بركاته »

***

أمسى المساء فاشتغل ڤرتر طويلا بفحص أوراقه ، فمزق منها جملة كبيرة وألقاها فى الموقد ، ثم حزم مما بقى أضاميم تشتمل على أبحاثه القصيرة وأفكاره المنشورة ، وعنونها إلى وليم — وقد اطلعت على كثير منها — . ولما حانت الساعة العاشرة زاد المصطلى سعيراً . وطلب زجاجة من النبيذ ، ثم أمر خادمه أَن يذهب فينام — وكانت غرفته وغرفة الأضياف فى طرف الفناء بنجوة عن مكان سيده —

فتطرح الغــلام على سريره دون أن ينضو ثيابه استعداداً لهبو به بكرة ، فان خيول البريد ستقف على الباب قبيـل الساعة السادسة كما قال له سيده

بعد الساعة الحادية عشرة

« كل ما حواليَّ ساكن هادىء ! وكذلك نفسى آمنة مطمئنة ! فلك الشكر يا مولاى على ما ادخرت لى فى ساعتى الأخيرة من قوة وحرارة وعزم

« أدنو من النافذة ياشرلوت فأرى من خلال السحب المُزْجاة فى جوّ السماء نجوماً مبعثرة تتألق فى أديم الجلَد [1] . معاذ الله أيتهـا الـكواكب الخالدة أن تهوِين . إن الدائم الباقى سيضمك مثـلى إلى خلوده ، ويلقى علينا نفحة من وجوده . كذلك أشاهد بنات نعش ، وهن أعظم كوكبة فى السماء جمالا وروعة ! لقد كنت ساعة أخرج من بيتك مساء أجدها أمامى تتلألأ وتلمع ! ولطالمـا راعيتها بعين قريرة ونفس هائجة ! ولـكَم رفعت يدى اليها أشهدها على غبطتى وهنائى ، وأتمثل فيها بناء سعادتى ورخائى ! تلك أيام خلت . . . !

« ليت شعرى يا شرلوت أى شىء لا يذكرنى أياكِ ؟ ألم أكـ

---

(١) الجلد : رقيع السماء Firmament

محاطا بك من كل مكان ؟ ألم أفعل ما يفعل الطفل فاختلست منك بشراهة وحرص ألف هنَيَّة[1] لا تفيد لأنك قدستها بلمسك وطهرتها بيدك ؟

« والهفتاه عليك أيتها الصورة العزيزة ! لقد كنت كلما دخلت أو خرجت أطبع عليك ألف قبلة وأحييك ألف تحية ! إنى أوصى اليك بها يا شرلوت وأناشدك المحبة أن تكرميها

« إن فى آخر المقبرة لدى الزاوية المطلة على الحقل شجرتين من شجر الزيزفون أرجو أن يُشَق تحتهما لحدى ، ويبنى فى ظلالهما ضريحى . تلك أمنية لا يضن بها أبوك على صديق حميم ، ولقد كتبت اليه أسأله أن يرعى ضريحى ويكلأه ، فعززى ندائى بندائك ، وأشفعى رجائى برجائك . أنا لا أطمع أن يدفن المسيحيون المتقون جثثهم فى جوار شقى بائس ، بل كنت أرجو واحسرتاه أن أدفن على قارعة الطريق أو فى عدوة الوادى ، حتى يمر بشاهد قبرى الكاهن واللاوى فيصلِّيا ويستعيذا ، ويمر بعدهما السامرى فيذرف دمعة على ثراى الجديب

« قدمى الكأس يا شرلوت فليس بى رعدة ولا وجل ، قدمى الكأس المخيفة الباردة أذق بها سكرة الموت ؛ أنت التى تقدمينها

---

(١) الهنية : الشىء الحقير Bagatelle

إلى فكيف أتردد أو أحجم ؟ كذلك يارب تتم رغائبي وتتحقق آمالي في الحيـاة ! ! سأقرع أبواب الموت النحاسية غير هيـاب ولا واجف . ليتني نلت ياشرلوت سعادة الموت في سبيلك ؛ وضحيت هـذه النفس المعذبة لأجلك ! لو كان موتي يرد عليك دعة النفس وخفض العيش وسعادة الحياة ! إذن لمتُّ قوي القلب مثلوج الصدر . ولكن وا أسفاه ! تلك سعادة لا يؤتاها الا أولو النفوس الكريمة : يسفكون دماءهم في سبيل أحبائهم ، وينيرون بموتهم طريق الحياة العاملة السعيدة لأصدقائهم

« أريد ياشرلوت أن أكفن في هذه الثياب التي لمستها وقدستها ، وتلك إحدى أمانيَّ التي طلبتها الى أبيك . ان روحي ستحلق فوق ضريحي ، فحذار أن يقدم أحد على أن يبحث في جيوبي ! إن العُقَد الوردية التي كانت تزين منطقتك يوم رأيتك لأول مرة بين أطفالك — آه ! ! قبلي لي أولئك الأبرار ألف قبلة ، وقصي عليهم نبأ صديقهم البائس . وا لهفتاه على عهـد مضى بين أولئك الأطهار الأعزة ! لكأني أنظر اليهم الآن مجتمعين حولي ، مبتهجين بمداعبتي وقولي ! أواه ياشرلوت ! لقد تعلقت جد التعلق بأسبابك . ولم أرَ معنى للوجود الا بك ، وأصبح افتراقنا منـذ عرفتك لا يحتمل . . . . . ؛ — تلك العقد يا حبيبتي أريد أن تدفن معي : فانك أهديتها الي في عيد ميلادي . لَشَدَّ ما كنت أتقبل هـذه الأشياء

بجشع شديد ونهم قوى ! واويلتاه ! ما كنت أحسب هذه الطريق تفضى بى الى هذه الغاية ؟ نشدتك الله أن تطيبى نفساً وتهدئى بالا ؛ انهما محشوان . . . . دقت الساعة اثنتى عشرة ؟ ليكن ما قدر الله ! . . . . . شرلوت ! شرلوت ! وداعاً ! وداعاً ! »

* * *

رأى أحد الجيران وَمْض البارود وسمع صوت الطلقة ، ولكنه لم ير بعد ذلك ضجيجاً ولا حركة فما فزع ولا اكترث

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم دخل الخادم الغرفة وفى يده المصباح فوجد سيده صريعاً على الأرض ، ورأى الغدارة ، ولمح الدم ، فناداه ، ثم أمسك به ، ثم أقامه ، فما سمع منه الاشهيقاً وغطيطاً . فأسرع الى الطبيب ، ثم هرول الى ألْبير . فكانت شرلوت أول من سمع طرق الباب فمشت فى أعضائها رجفة قوية ، وهيمنت على قلبها خيفة شديدة . أيقظت زوجها وهبّ كلاهما يستطلع طِلْع الطارق ، فألفيا الخادم لدى الباب صارخاً مُعْوِلاً يغمغم بالخبر المشئوم ، فخرَّت شرلوت أمام زوجها صَعِقة

جاء الطبيب إلى الصريع البائس فوجده مجندلا على الأرض مُشفياً[1] لايحس ولايعى . فلما جس راهشه وجده لايزال ينبض ؛ إلا أن أعضاءه قد تصلبت فلم تدع للأمل فى شفائه محلا

(١) مشفياً : مشرفاً على الموت

كان ڤرتر فد أطلق الرصاصة على ما فوق عينه اليمنى من الجبهة ، ففتح للمخيخ طريقاً فانبجس من الجرح وسال ، فرأى الطبيب أن يجرب آخر حيلة ، ففصده فى ذراعه فسال الدم واستمر النفَس

إن الدم الذى لطخ ظهر كرسيه ليشهد أنه أطلق النار على نفسه وهو جالس الى مكتبه ، ثم وقع يتشحط فى دمه ويضطرب من غمرة الموت حول كرسيه . حتى سكنت حركته ، وسكتت نأمته[1] . فبقى مستلقياً على ظهره بجانب النافذة وهو منتعل مزمّل فى سترة زرقاء وصدار أصفر



موت ڤرتر

(١) كناية عن الموت

ريع البيت ، وفزعت الجيران ، وهرعت المدينة جمعاء ، وجاء ألبير وقد سجُّوا على السرير ڤرتر وهو معصوب الرأس على وجهه طابِع الموت ووسمه ، وكان لا يزال يغط غطيطاً مروّعا ، فتارة ينسم نَسَم الريح الضعيفة ، وتارة يشهق شهيقاً عالياً ، والناس من حوله ينتظرون أن يسكن نسيسه فى كل لحظة

لم يشرب ڤرتر الا قدحاً من النبيذ . وقد قضى ورواية (أمليا[1] جالوتى) منشورة على مكتبه

ليعفنى القارئ وله الفضل من وصف ما عرا ألبير من الوله والجزع ، وما أصاب شرلوت من اليأس والهلع ، فذلك ما لا يقع فى الامكان ؛ ولا تناله قدرة كاتب . أما الحاكم الشيخ فلم يكد يصك مسمعيه الخبر حتى هرع إلى الدار وانحنى على الميت يعانقه ويقبله وهو يبكى أحر بكاء . ثم أقبل على أثره ولداه الكبيران راجلين فسقطا قريبا من المحتضر على حال من الألم والحزن لا توصف . ثم مالا على يديه وفمه يقبلانهما بحرارة ولهفة . والتصق فم الأكبر بشفتى ڤرتر ، وقد كان أحب إخوته اليه وآثرهم لديه ، ولم ينفصل عنه الا قسراً بعد أن قضى الصديق أجله ولفظ نَفْسه .

خلجته المنون ظهر اليوم ، وقد كان وجود الحاكم وما اتخذ من تدبير وتصرف سبيلا إلى علم الناس فتقاطروا على بابه ؛ واحتشدوا

---

(١) مأساه سهيره للكاتب الالمانى لسنج

فى منزله . فلما أمسى المساء ووافت الساعة الحادية عشرة حُمل على النعش فوق أكتاف العملة . وسار فى جنازته الحاكم الشيخ وأولاده المحزونون دون أحد من رجال الكهنوت حتى غيّب فى القبر وأدرج فى المكان الذى اختاره وأوصى به

أما ألبير فقد خذلته قواه ، وخانته رجلاه ، فلم يستطع إلى السيرسبيلا . وأما شرلوت فوالهف نفسى عليها ! لقد أصابتها غشية ما ظنها أَحد تفيق منها . وناء بها الخطب فتركها واجمة والهة تكاد تُرهق نفسها من الحزن والهلع . فجزع الناس لمصابها ، وخافوا على حياتها ، ودعوا الله أن يُوزعها الصبر ، ويَشعبَ قلبها بالسلّوة .

انتهت آلام فرتر

8049